محمد عبد المنعم خفاجي

# تفسير القرآن الحكيم

أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(٧)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم



دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ تليفون : ٥٠٨٥٢

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ○
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ○ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ○

# تمهيـــد

بسم الله والحمد لله ، له الحمد والثناء ، وهو وليي ، نعم المولى ونعم النصير .

وبعد : فهذا هو الجزء السابع من هذا التفسير الجديد لكتاب الله الحكيم ، الذى أنشره على الناس ، شرحا لأصول الإسلام وتقريبا لمبادئه إلى أذهان المسلمين وعقولهم وقلوبهم ، وتيسيرا لفهمه على ناشئتهم ، وإعلانا به فى الملأ أن آمنوا بهذا النور والهدى والحق ، واتبعوا هذا الداعى الكريم المبلغ عن ربه ، وأن اعملوا بهذه المبادىء الرفيعة التى دعا إليها الإسلام وكتابه الكريم البشر كافة .

لقد كانت رسالة محمد ، وهذا الكتاب المنزل من السماء ، أعظم ثورة عالمية فى تاريخ الإنسان والحضارة ، وفى تاريخ الديانات والمذاهب والآراء ؛ وإليهما يعود الفضل فى التطور العظيم الذى بلغته الإنسانية ، وفى قيام حضارة إنسانية رفيعة مثالية ، تبشر بالحق والحرية والعدالة والمساواة والإخاء ، وتدعو إليها البشر جميعا . وليس هنا أعظم خطرا ، ولا أجل شأنا من هذا النداء الإلهى العظيم ، الذى نزل به الوحى من السماء إلى الأرض ، وبلغه رسول الله محمدا صلوات الله عليه ، ليبلغه للناس كافة ، وتمثل فى هذا الكتاب العظيم ، والذكر الحكيم ، والقرآن الكريم ، والفرقان المجيد ، والناموس الخالد ، الذى يعد أعظم وثيقة عالمية فى تاريخ الحياة والحضارة ، وأروع إعلان إلهى يعلن إلى الناس كافة أن عهدا جديدا قد أشرق نوره ، وأن هذا العهد الجديد سوف يصبح مسرحا لأعظم ثورة روحية ، ودعوة إلهية فى تاريخ الأمم والشعوب .

ونحن إذ نتناول القرآن الكريم بالشرح والتفسير فى هذا المقام ، فإنما نتجه إلى أصوله نتفهمها ، وإلى مبادئه نكشف عنها ، وإلى أهدافه نبينها فى وضوح وجلاء للناس ، ليؤمنوا بعظمة الإسلام ، وكتابه الكريم ، وبعظمة داعيه العظيم ، محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . وما توفيقى إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

# فاتحة هذا الجزء

( ١ )

بسم الله الرحمن الرحيم . نحن نعيش اليوم فى معركة الإيمان ، معركة حقيقية مع خصوم الدين ، مع الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومع الذين يزعمون أن الإيمان والأديان والبعث والقيامة والملائكة وسائر أمور الغيب إن هى إلا خرافة ، وإن هى إلا دجل ، وإن هى إلا استغلال لعواطف البشر .. هكذا يقولون ويزعمون ، وبئس ما يزعمون . وتجادل هؤلاء الشاكين فى الدين وفى الله وفى الرسل ، فتجد عقلا فارغا ، وقلبا جاحداً ، وضلالا استحوذ على أنفسهم ، وسولت لهم الشياطين هذا البهتان ، وهذا الكفران ، وسارت بهم فى صحراء مظلمة ليس لهم ولا لمن يضللونهم منجاة منها إلا من عصم الله .

يقولون : إن العقل قد ارتقى فى عصر العلم ، وإن الآلة سحقت كل شىء ، وإن الحياة ليس فيها إلا جبروت هذه الآلة التى يقودها عقل الإنسان ، فالعقل يجب ألا يخرج عن نطاق العلم التجريبى ، وألا يسير وراء الأوهام ، وأن يعمل مؤمنا بالحياة وحدها . هكذا يقولون ويسرفون ويبالغون ، ويستمرون فى مزاعمهم الباطلة ، وفى جحودهم المطلق ، وفى كفرهم الصريح ، وفى دعوتهم إلى الإلحاد والثورة على الدين والمتدينين .. ثرثرة فارغة وقول هراء ، وأكاذيب ملفقة ، بل ضلال وبهتان لاحد لهما . ولو استمع هؤلاء لصوت ضمائرهم ، ولو ركنوا إلى الحق قليلا ، ولو أنصتوا لحكم التفكير الصحيح ، لعلموا أن ما يتقولون إن هو إلا باطل وضلال مبين ، وزور من القول وبهتان عظيم . إن العقل يرشدنا دائما إلى الله وإلى الدين وإلى الحق .. العقل المجرد من الهوى المنزه عن الغرض .. العقل البرىء الذى لم تلوثه الشهوات ولا المطامع ولا الأغراض ولا العصبيات ، فالعقل دائما يقف مؤمنا بالله وبالرسل

وبالدين وبوجود الملائكة وبالآخرة وبالبعث وبالنشور والحساب . لأن العقل يأبى أن يرى قدرة الله وآثارها الظاهرة فى السماء والأرض وفى خلق الإنسان ، ثم يكفر بوجود الله .. ولأن العقل لا يستطيع أن يفهم أن الحياة خلقت عبثا ، ولا أن الناس خلقوا سدى ، ولا أن الإنسان يعيش لدنياه فحسب . ولأن العقل يأبى أن يصدق مزاعم الجاحدين والكافرين والمشركين : من أن الدين خرافة ، وأن الحياة ليس وراءها بعث ولا نشور ولا حساب .

إن العقل دائما فى صف الإيمان . إنه يقف مشيراً إلى وجود الله وقدرته ، إنه يقول ما قال القرآن الكريم : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » ، العقل يقف متعجبا من خلق الإنسان ، وما ركب فى جسمه من أذنين وعينين وساقين ويدين ، وما أودع فى جوفه من قلب ، وفى رأسه من عقل ، ولا يجد مناصا من أن يعترف بأن خالق ذلك كله هو الله الذى أتقن كل شىء صنعا ، وأحسن كل شىء خلقا . والعقل يدعو القرآن الكريم إلى جعله طريقا من طرق المعرفة ، ووسيلة من وسائل الإدراك . يقول الله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد » . ويقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » ويقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » . ففى هذه الآيات الكريمة تحديد واضح لمنهاج المعرفة ومذاهب التفكير والفهم عند البشر ، وقد عنى القرآن الكريم فى هذه الآيات وفى سواها مما لم نذكره أن يوضح للبشر دون لبس منابع الحقيقة واضحة بينة حتى لا يضلوا فى الحياة ، أو يتشعب بهم الظن فى مجال البحث واليقين ، وحتى يبنوا عقائدهم وآراءهم

على أساس سليم مستقيم ؛ ففي الآية الأولى يذكر الله عز وجل صنيع بعض المشركين المتمردين على عقيدة التوحيد ، الدائبين على اللجاج والجدل في الله ، دون أن يرتكز لجاجهم وجدلهم على دعامة من العلم والبرهان والمنطق ، ودون أن يخضع نقاشهم لحكم العقل والإنصاف ، وإنما يخبطون خبط عشواء ، ويسيرون في صحراء ظلماء ، لايفرقون بين حق وباطل ، ولايحاولون الرجوع إلى الحق أو التزامه أو الدفاع عنه . . فهم ينازعون في ذات الله وفيما يجوز عليه وما لا يجوز من صفات وأفعال ، ويقولون من الأباطيل ما يقولون ، ملابسين للجهل ، ويتبعون في أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم كل شيطان عات ضال مضل عن سبيل الله ، وذلك من أشباه : أبي جهل ، والأخنس بن شريق، والنضر بن الحارث ، وسواهم . وكان النضر يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين . ويقول : إن ما يأتيكم به محمد هو ماكنت أحدثكم به عن القرون الماضية . ويقول : الله غير قادر على إحياء من بلى وصار تراباً ، وكان يذهب إلى فارس فيشترى كتب الفرس وأساطيرهم فيحدث بها قريشا ، ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة ، والآية عامة في كل من أمعن في الجدل دون علم أو برهان ، ومن يضل ويضل بذلك عن سبيل الله ودينه وشريعته .

وكذلك الآيتان الأخريتان من سورة لقمان تؤكدان هذه المعاني ، وأن من الناس من يدأب على الجدل في ذات الله وصفاته ، أو في دينه وشرائعه دون علم واستبصار ويقين مأخوذ من دليل عقلي ودون هدى وإرشاد ، متفادين كل هاد ومرشد من الرسل والأنبياء ، ودون كتاب منير واضح جلي هاد لا خفاء في هديه ، منزل من الله عز وجل إلى رسول من رسله المكرمين ، فهو لايؤمن بالدين وإنما يؤمن بالأوهام والتقاليد والأساطير الكاذبة يتخذها منهجا له في التفكير والبحث ، ويهمل عقله إهمالا ، ويفسد فطرة الله في نفسه إفساداً شديداً ؛ وهل هناك ما هو أضر على الإنسانية من التقليد الأعمى والاتباع المرذول ، وهل حارب القرآن الكريم شيئا كما حارب التقليد وصنيع

المقلدين ، ولذلك ذهب الأئمة إلى أن التقليد فى أصول العقائد ضلال غير جائز حتى قال الرازى : « وأكثر العلماء على أن التقليد لا يكفى فى أصول العقائد » ؛ ويؤكد القرآن أن مثل هؤلاء إنما يتبعون سبيل الشيطان ، والشيطان إنما يدعوهم إلى عذاب السعير .

أما الآيات الثلاث الأخيرة وهى من سورة الحج، فهى كذلك تأكيد لهذه المعانى الشريفة وتقرير لها ، وتوضيح لصنيع هؤلاء الناس الذين يتخذون الجدل بالباطل وسيلة للضلال والإضلال عن سبيل الله ، فهم لا يرجعون فى جدلهم فى الله إلى العلم أو الهدى أو الكتاب المنير ، وهنا يفسر المفسرون العلم بالعلم الضرورى ، والهدى بالاستدلال والنظر الذى يهدى إلى المعرفة ، والكتاب المنير بالوحى . وإن كنا نحن لا نرى مانعا من تفسيرها بما فسرناها به آنفاً ، أو بما فسرها به المفسرون هنا ، أو بتفسير آخر نذهب إليه ونرجحه ، وهو أن المراد بالعلم الحقائق التى تستقر فى النفس ، ويرشد إليها التفكير والبحث والدليل والتجربة ، والهدى المراد به الإلهام النفسى الذى تمده فطرة الله فى النفس الإنسانية التى فطرها الله على التدين والإيمان ، والكتاب المنير هو المنزل من السماء على رسول من الرسل يدعو إلى مبادئه، ويبشر بشريعته ، وتكون أقواله وأفعاله تفسيراً لما تضمنه من أحكام وآداب وشرائع وشعائر وعقائد ومثل ، ويؤكد الله عز وجل هنا أن الإعراض عن الحق والاستكبار عن السماع من الرسل هما ديدن هؤلاء الناس الذين حاربوا الرسالات الإلهية ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله ، وأن لهم خزياً وهواناً فى الدنيا ، وعذابا أليماً فى الآخرة ، بما اجترحوا من سيئات وما اقترفوا من آثام فى حق الله والعقل والإنسانية والشعوب والجماعات ، والله عادل فى عقابه لايظلم أحداً . ولا شك فى أن مثل هؤلاء يستحقون هذا العذاب . فقد صدوا عن الله ودينه وتوحيده ، وجادلوا فى الله مجادلة عن عناد واستكبار ؛ دون أن يخضعوا فى جدلهم وحجاجهم لأصول العقل أو برهان العلم أو هداية السماء ، فإذا ما حاولت إقناعهم وإرشادهم وهدايتهم أصروا

واستكبروا استكباراً ، وجادلوا بالباطل وقالوا زوراً وبهتاناً ، وأخذوا يثرثرون بما لا يعقله العقل، ويهرفون بما يزينون من الشرك والضلال والإضلال. وهنا نجد القرآن الكريم يبنى صرح الحياة الإنسانية المثلى ، ويقيم دعائم المدنية والحضارة على أساس رائع عظيم من الفطرة والعقل وهداية السماء . فهذه الآيات ،وإن تضمنت فى عمومها بيان جزاء الصادين عن دين الله الذين يضلون ويلوون رؤوسهم عناداً واستكباراً فى الدنيا والآخرة ،كما تضمنت التحذير من الجدل والمناظرة فى العقيدة بالهوى والقياس ؛ لأن فى ذلك الضلال والابتداع والتحذير من التقليد الأعمى المرذول ، وتعطيل حكم العقل بالسير على منهج الآباء والأجداد فى كل شىء حتى فيما يؤدى إلى الضلال والبهتان والشرك ، ومع أنها تضمنت كذلك نفى الظلم عن الله وبيان أن الإنسان هو الذى يجنى على نفسه بعناده واستكباره ومشايعته للباطل.. فهى كذلك تقرر أصول المعرفة الثلاثة : العلم الفطرى المركوز فى طبائع الناس كافة الذى يرشد إلى الخير والفضائل والتوحيد والإيمان ، والعلم النظرى المستفاد من الحجة والاستدلال والبرهان والبحث والتجربة ، والعلم الإلهى المستفاد من الوحى والكتب السماوية المنزلة على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . . فأنت إذا خلوت إلى وجدانك وقلبك وذوقك ونفسك وعواطفك ومشاعرك ، أرشدتك إلى الله موجوداً ، وإلى القدس الأقدس خالقاً ، وإلى رب الأرض والسماء إلها معبوداً وإلى محمد رسولا ، وإلى القرآن كتاباً منزلا من السماء ، فرض الإيمان به وبجميع ماتضمنه من أوامر ونواه ، ومن طاعات وعبادات وشرائع ، على الناس كافة . وأنت إذا رجعت إلى عقلك وخلوت إلى فكرك ؛ وبحثت وفتشت ، وقدرت ونظرت واعتبرت ، هداك العقل إلى الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . وأنت إذا رجعت إلى القرآن كتاب الله الحكيم ،

ودستور الإسلام العظيم ، أرشدتك إلى الله رباً ، وإلى الإسلام ديناً ، وإلى محمد نبياً ورسولا ، وإلى الملائكة جند الله ، وإلى البعث والنشور والحساب ، وكل ماجاء فى الدين من الغيب ، مما فرض الله الإيمان به ، « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

والمؤمنون يرون أن المعرفة بالله عن طريق الاستدلال والنظر والمنطق والقياس مرحلة بدائية من مراحل الإيمان ، لأنهم لايعتمدون على العقل كثيراً كطريق من طرق المعرفة ، كما لايعتمدون على الحواس الظاهرة فى الإنسان ، إنما يعتمدون على القلب الذى هو مركز المعرفة وموضع الإيمان ، ومحل الدين ؛ إنهم يفتشون فى وجدانهم فيجدون الله منقوشاً على كل ذرة ، مضيئاً على كل شىء ، مشرقا فى كل جارحة وكل قلب . إنهم يرون الله فى السماء وفى الأرض وفى كل شىء .. يرونه عن طريق الكشف والذوق ، يرونه بوجداناتهم وقلوبهم ومشاعرهم وعواطفهم ، ويؤمنون به إيمانا صادقا لا يزعزعه شىء ، ولا يؤثر فيه أى شىء . لقد جاهدوا أنفسهم وطهروها ، وأخلصوا لله حتى كشف عنهم حجاب الحس ، ورأوا الله بعين الإدراك وعين اليقين ، فعبدوه حق عبادته ، وأطاعوه حق طاعته ، ففازوا فى الدنيا والآخرة برضائه ومحبته ، أولئك الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وأولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

(٢)

إن المذهب الواقعى يرى فى المعرفة أنها مايطابق الواقع ، فوجود العالم الخارجى هو وجود واقعى حقيقى مستقل عن الذات ، فالمعرفة عنده هى صورة مطابقة للموضوع لاأثر للذات أو للعقل فيها ، ويرى الفيلسوف الإنجليزى « جون لوك » أن المعرفة ، وإن تكن مستمدة من الواقع عن طريق الحواس

فإنها مع ذلك ليست فى مجموعها صورة مطابقة للواقع تماما ، لذلك يحلل «لوك» المعرفة أو الأفكار ليبين مايطابق منها الواقع وما لايطابقه ، فالمعرفة عند «لوك» وإن كانت مستمدة من الواقع ليست فى مجموعها صورة مطابقة للواقع ؛ فبعض عناصر المعرفة عنده موضوعى يصور الواقع كما هو تماما ، وبعضها ذاتى من نتاج العقل ولا يصور الواقع بل هو تحوير للواقع .

وأما المذهب العملى فلا يفصل بين الفكر والعمل ، فالمعرفة عنده ليست تصوير الواقع كما يذهب الواقعيون ، وإنما هى أداة للسلوك أو خطة تقود إلى عمل ، والفكرة عنده هى تصور النتائج العملية التى يمكن أن تترتب على الاعتقاد بفكرة ، ومعيار الصدق والكذب فى المذهب العملى هو الاختبار العملى للفكرة من حيث نتائجها لا من حيث مصدرها وأصلها ، وهذا فيه الكثير من الإسراف؛ فإن الفكرة تكون صادقة أو كاذبة بصرف النظر عن النتائج العملية.

أما المذهب المثالى فهو عكس الواقعى ، إنه ينكر وجود شىء خارج العقل، ويزعم أن « ماله وجود هو العقل ، وما بالعقل من أفكار » فالشىء لاوجود له إلا إذا كان فكرة فى العقل ، ومعرفة الشىء هى وجوده ، فالشىء موجود فى المذهب المثالى لأنه مدرك ، وفى المذهب الواقعى :الشىء مدرك لأنه موجود ، فالموجود فى المذهب المثالى هو الإدراك ، ومعرفة الشىء هى وجوده ، فطبيعة المعرفة هى هى طبيعة الوجود ، ومن دعاة المذهب المثالى « هيجل » الذى يرى أن المعانى الكلية أو المقولات هى مبدأ المعرفة أو شرط المعرفة ، والمعرفة عنده هى الوجود .

ومصدر المعرفة عند أصحاب المذهب التجريبى هو التجربة الحسية ، وعند أصحاب المذهب العقلى هو العقل وحده ، ويمثل ديكارت هذا الاتجاه ، وأما المذهب النقدى فيرى أن مصدر المعرفة هو التجربة والعقل جميعا ؛ فالتجربة تقدم مادة المعرفة والعقل يقدم صورة المعرفة ، ويمثل هذا المذهب « كانت » . أما المذهب الروحى فيذهب إلى أن مصدر المعرفة هو الإلهام .

وعندما نرجع إلى ديكارت نراه يقيم الأدلة على وجود الله من أن فى

الذات فكرة واضحة متميزة لكائن لانهائى كامل ، ووجود هذه الفكرة فى العقل دليل على وجود مدلول لها فى الخارج هو الله ، وإثبات وجود الله كما يرى « ديكارت » وسيلة لإزالة الشك ولبلوغ اليقين فى المعرفة ، فالله الذى أثبتنا وجوده لا يضللنا ولا يخدعنا ، وإذن فحواسنا التى وهبها الله لنا لا بد أنها صادقة ـ غير خادعة ، والعالم الخارجى الذى خلقه الله لا بد أنه حقيقة وليس وهما ، وينتهى ديكارت إلى أن معرفتنا عن العالم الخارجى التى مصدرها الحواس ليست معرفة يقينية بعد أن اعتبر العقل وحده مصدر المعرفة اليقينية .

وهذه المذاهب المضطربة كلها تنتهى بالخطأ حينا ، وبالقصور حينا آخر ، وقد شك الغزالى فى مبادىء العقل ، ولم يطمئن إلى شهادة الحواس ، ولم يسلم بآراء الذين يبنون آراءهم فى الله على النصوص وحدها ، ولا بآراء الذين لا يؤمنون إلا بالمنطق وحده كطريق يوصل إلى الإيمان بوجود الله ، ورجع المعرفة إلى الإلهام ، فهو الطريق إلى معرفة الله والإيمان به ، وعن طريق الإلهام يعرف الإنسان ذاته معرفة مباشرة ، ومتى عرف ذاته عرف الله .

إن جميع الطرق الصحيحة الموصلة إلى المعرفة توصل أيضا إلى الله ، وأنا لا أؤمن إلا بما ذكره القرآن الكريم من طرق المعرفة ، وهى النظر العقلى ، والوحى السماوى ، والإلهام .. فهذه الطرق توصلنا إلى الله ، وتدفعنا إلى الإيمان ، وتحتم علينا الثقة بالله ووجوده ، وهى كلها تناهض المذاهب الماركسية والوجودية ، تناهض الإلحاد والملحدين والشك والشاكين ، والريب والمرتابين .

إنى أؤمن بالله لأن عقلى يقودنى إلى الإيمان به ، ولأن نصوص القرآن تحتم على الإيمان به ، ولأن عقلى الباطنى وإلهامى النفسى الخفى يدفعنى إلى الإيمان به ، بوجوده ، بعدله ، بقدرته ، بحكمته ، برحمته ..

آمنت بالله ، وكفرت بالإلحاد ودعاته والملحدين ودعواتهم ، آمنت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن دستورا كاملا للحياة والبشر والإنسانية .

# تفسير آيات الجـــزء السابع

## من كتاب الله الـكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من الجزء السابع

٨٢ — لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .

٨٣ — وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ .

٨٤ — وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ .

٨٥ — فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ .

٨٦ — وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ .

هذه الآيات الخمس هى مطلع الجزء السابع ، وهى تبين مدى عداوة اليهود والمشركين للإسلام والمسلمين، وتبين كذلك أن النصارى ولاسيما المنصفين منهم هم أقرب الناس مودة للمؤمنين ، ويعلل القرآن الكريم ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، أى بأنهم أصحاب رسالة سماوية سابقة آمنوا بها وعرفوا منها شرائع الله الطيبة فى الأرض ، فهم لا يمعنون فى خصومتهم للمسلمين كل الإمعان ،

وهم لايستكبرون عن الحق كما يستكبر اليهود والمشركون ، وهم كثيرو البكاء إذا سمعوا آيات القرآن المنزلة على محمد رسول الله . ويبين الله عز وجل ثوابهم عند الله ، ويعرج على اليهود والمشركين فيصفهم بالكفر ويبين جزاءهم عند الله ، والجحيم الذى أعده لهم فى الآخرة .

ولما أرسل النبي صلوات الله عليه كتب الدعوة الإسلامية إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى منهم أحسنهم ردا ؛ فهرقل ملك الروم فى الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام ، فلما لم يقبلوا لجمودهم على التقليد ، وعدم فقههم حقيقة الدين الجديد ، اكتفى بالرد الحسن .. والمقوقس عظيم القبط فى مصر كان أحسن منه ردا ، وإن لم يكن أكثر إلى الإسلام ميلا ، أرسل للنبي هدية حسنة ؛ ثم لما فتحت مصر والشام وعرف أهلهما مزية الإسلام ، دخلوا فى دين الله أفواجا . وكان القبط أسرع له قبولا . وقد كان حاطب ابن أبى بلتعة رسول النبى إلى المقوقس ، وكان مما قاله له بعد أن أعطاه الكتاب: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك غيرك ، فقال المقوقس : إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه ، فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فقد سواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى مابشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن ، إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل . وكل نبى أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به ـ إذ هو الإسلام عينه ـ فقال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء ، والإخبار بالنجوى . وسأنظر ... وقد أرسل الرسول عمرو بن العاص إلى ملك عمان جيفر بن الجلندى

وأخيه عبد بن الجلندى ، فعمد عمرو أولا إلى عبد لأنه أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا ، فبلغه دعوة الإسلام ، فقال له عبد : ياعمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ قال عمرو : قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت قريبا ، فسألنى أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشى . وأخبرته أن النجاشى قد أسلم . قال : فكيف صنع قومه بملكه فقلت : أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت نعم . قال : انظر ياعمرو ماتقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح من الكذب . قلت : ما كذبت ومانستحله فى ديننا . ثم قال : ماأرى هرقل علم بإسلام النجاشى . قلت بلى . قال بأى شىء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشى يخرج له خرجا فلما أسلم وصدق بمحمد قال : لا والله لو سألنى درهما واحداً ما أعطيته . فبلغ هرقل قوله ، فقال له أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ، ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل : رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ماأصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع . قال : أنظر ماتقول ياعمرو . قلت والله صدقتك، قال عبد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال : ماأحسن هذا الذى يدعو إليه : لوكان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخى يضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا ... ويقول الشيخ رشيد رضا : إن النصارى الذين كانوا مجاورين للحجاز كانوا فى زمن البعثة أقرب مودة للمؤمنين ، وأقرب قبولا للإسلام . وإن من توقف من ملوكهم عن الإسلام فماكان توقفه إلا ضنا بملكه . وأن النجاشى « أصحمة » ملك الحبشة قد أسلمت معه بطانته من رجال الدين والدنيا . ولكن يظهر أن الإسلام لم ينتشر فى الحبشة بعد موته . ولم يعن المسلمون بإقامة أحكامهم فى تلك البلاد كما فعلوا فى مصر والشام . ولكن ورد أن النبى قال: « دعوا الحبشة

ماودعوكم واتركوا الترك ماتركوكم » ، وقد رواه أبو داود بهذا اللفظ ، والنسائى بلفظه فى آخر حديث طويل ملخصه أن النبى قال مامعناه : إن الله تعالى أراه — وهو يحفر فى الخندق فى وقعة الأحزاب ـ بلاد كسرى، فسئل أن يدعو الله تعالى أن يفتحها لأمته فدعا، ثم ذكر أن الله أراه ملك قيصر وديار الشام ، فسئل أن يدعو الله تعالى أن يفتحها لهم فدعا، ثم ذكر أن الله أراه بلاد الحبشة وقال هـذا الحديث قبل أن يسألوه الدعاء بفتحها . « لتجدن » يامحمد ، أو أن الخطاب لكل من يوجه إليه الحديث « أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » من أهل مكة لتضاعف كفرهم وجهلهم وانهماكهم فى اتباع الهوى ، وفى جعل اليهود قرناء المشركين فى شدة العداوة للمؤمنين دلالة على شدة عداوتهم لهم ، بل نبه على تقدم قدمهم فيها على الذين أشركوا ، وكذلك فعل فى قوله تعالى « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا » ، وعنه صلى الله عليه وسلم : ما خلا يهوديان بمسلم إلا وهمَّا بقتله « ولتجدن أقربهم » أى الناس « مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » إنما أسند تسميتهم نصارى إليهم دون تسمية اليهود ، لأنهم الذين سموا أنفسهم نصارى حين قال لهم عيسى عليه السلام « من أنصارى إلى الله » الآية، ولأنهم كانوا يسكنون قرية يقال لها ناصرة ، وكلهم لم يكونوا ساكنين فيها ، وعلى التقديرين فتسميتهم نصارى ليست حقيقة بخلاف تسمية اليهود يهودا ، فإنها حقيقة ، سواء سموا بذلك لكونهم أولاد يهوذا بن يعقوب ، أو لكونهم تابوا عن عبادة العجل بقولهم « إنا هدنا إليك » ، أو لتحركهم فى دراستهم ، ثم علل سبحانه وتعالى سهولة النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين بقوله تعالى « ذلك بأن منهم قسيسين » أى علماء ، والقسيس فوق الشماس ودون الأسقف « ورهبانا » أى عبادا ، جمع راهب وهو المتبتل فى الدير المنقطع للعبادة ،مأخوذ من الرهبة بمعنى الخوف ، أو من رهب الإبل أى هزالها « وأنهم لايستكبرون » عن اتباع الحق ، كما يستكبر اليهود والمشركون من أهل مكة ـ نزلت هذه الآيات

فى وفد النجاشى القادمين من الحبشة ، لافى كل النصارى ، لأنهم فى عداوتهم للسلمين كاليهود فى قتلهم المسلمين وأسرهم وتخريب ديارهم وهدم مساجدهم وحرق مصاحفهم ، قال أهل التفسير : تحدت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذبونهم ، فافتتن من افتتن ، وعصم الله تعالى منهم من شاء . ومنع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بعمه أبى طالب ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد ، أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة وقال : إن بها ملكا صالحا لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمؤمنين فرجا ، وأراد به النجاشى واسمه أصحمة ، وهو بالعربية عطية ، والنجاشى لقب ملوك الحبشة كقولهم قيصر وكسرى ، فخرج إليهم سرا أحد عشر رجلا وأربع نسوة من جملتهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار ، وذلك فى شهر رجب فى السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهجرة الأولى ، ثم خرج جعفر بن عبد المطلب وتتابع المسلمون إليها ، فكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان ، فلما علمت قريش بذلك أرسلوا إلى النجاشى بالهدايا ليردهم إليهم ، فعصمهم الله تعالى وانصرفوا خائبين ، وأقام المسلمون هناك بحسن دار وخير جوار إلى أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلا دينه ، وفى سنة ست من الهجرة كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى على يد عمرو بن أمية الضمرى ليزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت قد هاجرت إليه مع زوجها ، فمات زوجها فأرسل النجاشى إلى أم حبيبة جارية تخبرها بخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستبشرت بذلك وأذنت لخالد بن سعيد أن يزوجها ، وكان الخاطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشى ، فأنفذ إليها أربعمائة دينار ، قالت أم حبيبة : فخرجنا إلى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فخرج

من إليه ، وأقمت بالمدينة حتى قدم ، ووافى جعفر بن أبي طالب وأصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف ، منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكوا وأسلموا وقالوا : ماأشبه هـذا بما كان ينزل على عيسى ، قال تعالى « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول » أى من القرآن « ترى أعينهم تفيض من الدمع » أى جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها « مما عرفوا من الحق » المعنى أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم ، فكيف إذا عرفوه كله ، وقال ابن عباس - يريد النجاشي - وأصحابه : بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه فقرأه ثم دعا بجعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين ، وأمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ عليهم كهيعص ، فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة قالوا آمنا ، كما قال تعالى « يقولون ربنا آمنا » أى صدقنا نبيك وكتابك ، « فاكتبنا مع الشاهدين » أى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة ، ودليله قوله تعالى : لتكونوا شهداء على الناس . وإذا نظرت مكاتبات النبي صلى الله عليه وسلم ازددت بصيرة فى صدق هذه الآية ، فإنه ما كان نصرانيا إلا آمن أو كان لينا ولو لم يسلم كهرقل والمقوقس وغيرهم . وغايتهم أنهم ضنوا بملكهم ، وأما غير النصارى فإنهم كانوا على غاية من الفظاظة ككسرى ، فإنه مزق كتابه صلى الله عليه وسلم ولم يجز رسوله بشىء ، قال البقاعي : السر فى ذلك أنه لما كان عيسى عليه السلام أقرب الأنبياء زمنا من زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان المنتمون إليه - ولو كانوا كفرة - أقرب الأمم مودة لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم » « قالوا فى جواب من عيرهم بالإسلام من اليهود « مالنا لا نؤمن بالله وماجاءنا من الحق » وهو القرآن ، لامانع لنا من الإيمان مع وجود مقتضيه ، وقوله تعالى « ونطمع » معطوف على نؤمن « أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » أى المؤمنين - الجنة « فأثابهم الله بما قالوا »

أى جعل ثوابهم على هذا القول المسند إلى خلوص النية الناشىء عن حسن الطوية « جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك » الجزاء العظيم « جزاء المحسنين » أى بالإيمان « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » أى الذين لاينفكون عنها لاغيرهم من عصاة المؤمنين وإن كثرت كبائرهم ، وعطف التكذيب بآيات الله على الكفر وهوضرب منه ، لأن القصد إلى بيان حال المكذبين وذكرهم فى معرض الصديقين بهما جمعا بين الترغيب والترهيب .

٨٧ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ .

٨٨ — وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ .

٨٩ — لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث نهى عن تحريم الطيبات التى أحلها الله لعباده ، ونهى عن الاعتداء على الدين وعلى الله بتحريم شىء منها ، وأمر بأكل الرزق الحلال الطيب وبتقوى الله ، ويبين الله تعالى أنه لا يعاقب المؤمنين باللغو فى الأيمان ، ولكن يؤاخذهم بالأيمان التى عقدوها عن نية وتصميم ، ويشرح الله عز وجل كفارة

اليمين إذا حنث فيها المسلم ، من إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة مؤمنة أو صيام ثلاثة أيام . وقد بدأ الله تعالى هذه السورة بآيات من أحكام الحلال والحرام والنسك ، ومنها حل طعام أهل الكتاب والتزوج منهم ، وأحكام الطهارة والعدل ، ولو فى الأعداء والمبغضين . ثم جاء بهذا السياق الطويل فى بيان أحوال أهل الكتاب ومحاجتهم ، فكان أوفى وأتم ما ورد فى القرآن من ذلك ، ولم يتخلله إلا قليل من آيات الأحكام والوعود والعظات بينا مناسبتها له فى مواضعها ، وهذه الآيات عود إلى أحكام الحلال والحرام والنسك التى بدئت بها السورة ، ويتلوها العود إلى محاجة أهل الكتاب كما علمت ، فمجموع آيات السورة فى هذين الموضوعين — كما يقول صاحب تفسير المنار — وإنما لم تجعل آيات الأحكام كلها فى أول السورة ، وتجعل الآيات فى أهل الكتاب متصلا بعضها ببعض فى باقيها ، لما بينهاه غير مرة من حكمة مزج المسائل والموضوعات فى القرآن من حيث هو مثانى تتلى دائما للاهتداء بها ، لا كتاباً فنيا ولا قانونا يتخذ لأجل مراجعة كل مسألة من كل طائفة من المعانى فى باب معين . على أن فى نظمه وترتيب آيه من المناسبة بين المسائل المختلفة ما يدهش أصحاب الأفهام الدقيقة بحسنه وتناسقه ، كما ترى فى مناسبة هذه الآيات لما قبلها مباشرة ؛ فقد ذكر الله تعالى أن النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا ، وذكر من سبب ذلك أن منهم قسيسين ورهبانا ، فكان من مقتضى هذا أن يرغب المؤمنون فى الرهبانية ويظن المائلون للتقشف والزهد أنها مرتبة كمال تقربهم إلى الله تعالى ، وهى إنما تتحقق بتحريم التمتع بالطيبات طبعا من اللحوم والأدهان والنساء ، إما دائما كامتناع الرهبان من الزواج البتة ، وإما فى أوقات معينة كأنواع الصيام التى ابتدعوها ، وقد أزال الله تعالى هذا الظن ، وقطع طريق تلك الرغبة ، وعن زيد بن أسلم : أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله وهو عند النبى ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارا له فقال لامرأته : حبست ضيفى من أجلى ؟ هو حرام على . فقالت امرأته : هو

على حرام ، قال الضيف : هو على حرام . فلما رأى ذلك وضع يده وقال : كلوا بسم الله ، ثم ذهب إلى النبي فأخبره ، فقال النبي : قد أصبت . فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » ؛ وعن أبي جحيفة قال « آخى النبي بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا . فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال : كل فإني صائم ، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل ؛ فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال نم ، فنام ؛ ثم ذهب يقوم فقال : نم . فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه . فأتى النبي فذكر ذلك له فقال : صدق سلمان » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال لى رسول الله « ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ . قلت : بلى يا رسول الله ، قال : فلا تفعل صم وافطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر كله — قلت : إني أجد قوة قال : فصم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه — قلت : وما كان صيام نبي الله داود ؟ قال : نصف الدهر » ، وعن قتادة في قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » قال ذكر لنا أن رجالا من أصحاب رسول الله رفضوا النساء واللحم ، وأرادوا أن يتخذوا الصوامع . فلما بلغ ذلك رسول الله قال : « ليس في ديني ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع » وأخبرنا أن ثلاثة نفر على عهد رسول الله اتفقوا ، فقال أحدهم : أما أنا فأقوم الليل لا أنام ، وقال أحدهم : أما أنا فأصوم النهار فلا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فلا آتى النساء ، فبعث رسول الله إليهم فقال : ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا ؟ قالوا : بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير ، قال : لكني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآتى النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني . وعن أبي عبد الرحمن

قال : قال النبي : « لا آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا » . وعن السدى قال « إن رسول الله جلس يوما فذكر الناس ثم قام ولم يزدهم على التخويف ، فقال ناس من أصحاب رسول الله كانوا عشرة ، منهم على بن أبى طالب وعثمان ابن مظعون : ما حقنا إن لم نحدث عملا ؟ فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم ، فحرم بعضهم أكل اللحم وأن يأكل بالنهار ، وحرم بعضهم النوم ، وحرم بعضهم النساء ، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء ، وكان لا يدنو من أهله ولا يدنون منه ، فأتت امرأته عائشة — وكان يقال لها الحولاء — فقالت لها عائشة ومن حولها من نساء النبي : ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين ؟ فقالت : وكيف أتطيب وأمتشط وما وقع على زوجى ولا رفع عنى ثوبا منذ كذا وكذا : فجعلن يضحكن من كلامها فدخل رسول الله وهن يضحكن فقال : ما يضحككن ؟ قالت يا رسول الله : الحولاء سألتها عن أمرها فقالت : ما رفع عنى زوجى ثوبا منذ كذا وكذا ، فأرسل إليه فدعاه فقال : ما بالك يا عثمان ؟ - قال : إنى تركته لله لكى أتخلى للعبادة ، وقص عليه أمره ، وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه ، فقال رسول الله : « أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك ؟ فقال : يا رسول الله إنى صائم ! قال : أفطر - قال : فأفطر وأتى أهله . فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد اكتحلت وامتشطت وتطيبت ، فضحكت عائشة وقالت : ما بالك يا حولاء ؟ فقالت : إنه أتاها أمس . فقال رسول الله : ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ؟ ألا إنى أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى . فنزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » يقول لعثمان : لا تجب نفسك فإن هذا هو الاعتداء . وأمرهم أن يكفروا أيمانهم فقال « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » ، وعن مجاهد قال : أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ، فنزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » ؛ وعن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى بن أبى طالب

وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبي حذيفة وقدامة تبتلوا ، فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل وهموا بالاختصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » ، فلما نزلت بعث إليهم رسول الله فقال : « إن لأنفسكم حقا وإن لأعينكم حقا وإن لأهلكم حقا ، فصلوا وناموا ، وصوموا وأفطروا ، فليس منا من ترك سنتنا ، فقالوا : اللهم صدقنا واتبعنا ما أنزلت مع الرسول » . وأخرج الترمذي عن ابن عباس أن رجلا أتى النبي فقال : يا رسول الله ، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء . وأخذتني شهوتي ، وإني حرمت عليّ اللحم فنزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » ، وعن ابن عباس في قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » قال : « نزلت هذه الآية في رهط من الصحابة قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان . فبلغ ذلك النبي فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا : نعم ، فقال النبي : لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني » . وعن أبي مالك في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » قال : نزلت في عثمان بن مظعون وأصحابه ، كانوا حرموا على أنفسهم كثيراً من الشهوات والنساء ، وهم بعضهم أن يقطع ذكره فنزلت هذه الآية . وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة « أن ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي عن عمله في السر ، فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ؟ لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » . وعن ابن مسعود قال : « كنا نغزو مع رسول الله وليس معنا نساء فقلنا :

ألا نستخصى ؟ فنهانا رسول الله عن ذلك ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ، ثم قرأ عبد الله « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » ، وعن أبي قلابة قال : أراد أناس من أصحاب رسول الله أن يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء ويترهبوا ، فقام رسول الله فغلظ فيهم المقالة ثم قال : « إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به ، وحجوا واعتمروا واستقيموا يستقم بكم » قال : ونزلت فيهم « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » .

فقوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا » أى لاتمنعوا أنفسكم بنذر أو يمين أو غير ذلك « طيبات » من الطيب ضد الخبيث ، والطيب الحلال ، أو الشيء اللذيذ الذى تستلذه النفس ، وترتاح إليه الروح ، «ماأحل الله لكم» كمنع التحريم، أى لاتقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا « ولا تعتدوا » حدود ماأحل الله لكم إلى ماحرم عليكم « إن الله لايحب المعتدين » أى لايفعل فعل المحب من الإكرام للمفرطين فى الورع بحيث يحرمون ماأحلت ، ولا للمفرطين فيه الذين يحللون ماحرمت ، فالآية ناهية عن تحريم ماأحل وتحليل ما حرم داعية إلى القصد بينهما ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف يوم القيامة لأصحابه فبالغ وأبشع فى الكلام فى الإنذار ، فرق الناس وبكوا ، واجتمع عشرة من الصحابة رضى الله عنهم فى بيت عثمان بن مظعون وهم أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وأبو ذر الغفارى ، وسالم مولى أبى حذيفة ، والمقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسى ، ومعقل بن مقرن ، وعثمان ابن مظعون رضى الله تعالى عنهم ، وتشاوروا ، واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويصوموا الدهر ، ويقوموا الليل ، ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء والطيب ويسيحوا فى الأرض ؛

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم رسول الله : ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ما أردنا إلا الخير ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى لم أؤمر بذلك ، ثم قال : إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا ، فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ، ثم رجع الناس وخطبهم ، وقال : مابال أقوام يحرمون النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا ؟ ، أما إنى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا ، فإنه ليس فى دينى ترك اللحم ولا النساء ولا اتخاذ الصوامع ، وإن سياحة أمتى الصوم، ورهبانيتهم الجهاد ، أعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا، وحجوا واعتمروا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا رمضان ، واستقيموا يستقم لكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم فى الديارات والصوامع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقالوا : يارسول الله فكيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها ؟ وكانوا حلفوا على ماعليه اتفقوا ، فأنزل الله تعالى « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » الآية ؛ وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رجلا قال له : إنى حرمت الفراش؛ فتلا هذه الآية ، وقال : نم على فراشك وكفر عن يمينك ؛ ، وعن الحسن أن الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم قال تعالى : لينفق ذو سعة من سعته ماعاب الله قوماوسع الله عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوه ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التبتل نهيا شديدا وقال : تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة « وكلوا مما رزقكم الله » ولما كان الرزق يقع على الحرام قيده بقوله « حلالا طيبا » أى لذيذا مستلذا ؛ وقوله تعالى « واتقوا الله » تأكيد للتوصية بما أمر الله به وزاده تأكيدا بقوله « الذى أنتم به مؤمنون » لأن الإيمان به يوجب التقوى فى الانتهاء إلى ماأمر به وعما نهى عنه «لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» وهو مايبدو من المرء بلاقصد كقول الإنسان : لاوالله وبلى والله ، وإليه ذهب الشافعى رحمه الله تعالى ،

وقيل : هو الحلف على مايظن أنه كذلك ولم يكن ، وذهب إليه أبو حنيفة رحمه الله تعالى « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم » أى وثقتم « الأيمان » عليه بأن حلفتم عن قصد ، والمعنى : ولكن يؤاخذكم بماعقدتم إذا حنثتم ، أو يؤاخذكم بنكث ماعقدتم «فكفارته» أى اليمين إذا حنثتم فيه،وهى التى تذهب إثمه وتزيل أثره بحيث تصيرون كأنكم ماحلفتم « إطعام عشرة مساكين من أوسط » أى أعدل « ماتطعمون » أهليكم من بر أو غيره لامن أعلاه ولا من أدناه « أو كسوتهم » بما يسمى كسوة كقميص وعمامة وإزار وسراويل ولا يكفى دفع ما ذكر لمسكين واحد وعليه الشافعى « أوتحرير رقبة » أى عتق عبد مؤمن أو أمة مؤمنة كما فى كفارة القتل حملا للمطلق على المقيد ، وجوز أبو حنيفة عتق الكافرة فى كل كفارة إلا القتل وخرج بالتخيير بين هذه الثلاثة أنه لا يجزىء أن يطعم خمسة ويكسو خمسة مثلا « فمن لم يجد » أى بأن عجز عن ذلك « فصيام ثلاثة أيام » أى فكفارته صيام ثلاثة أيام ولا يجب تتابعها ، فإن قيل : قد قرىء شاذا «متتابعات» ، والقراءة الشاذة كخبر الواحد فى وجوب العمل، كما أوجبنا قطع يد السارق اليمنى بالقراءة الشاذة فى قوله تعالى: « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » ولأن من عادة الشافعى رحمه الله تعالى حمل المطلق على المقيد من جنسه وهو الظهار والقتل ، فالجواب أن آية اليمين نسخت متتابعات تلاوة وحكما فلا يستدل بها، بخلاف آية السرقة فإنها نسخت تلاوة لا حكما ، وبأن المطلق هاهنا متردد بين أصلين يجب التتابع فى أحدهما ، وهو كفارة الظهار والقتل ولا يجب فى الآخر وهو قضاء رمضان ، فلم يكن أحد الأصلين فى التتابع بأولى من الآخر ، وليس تتابعهما خروجا من خلاف أبى حنيفة ، فإنه شرط تتابعها ، والمراد بالعجز أن لايقدر على المال الذى يصرفه فى الكفارة كمن يجد كفايته وكفاية من تلزمه مؤونته فقط ولا يجد ما يفضل عن ذلك ، والقاعدة أن من جاز له أن يأخذ سهم الفقراء والمساكين من الزكاة والكفارات ، له أن يكفر بالصوم لأنه فقير « ذلك » أى المذكور « كفارة أيمانكم إذا حلفتم » أى وحنثتم فى حلفكم « واحفظوا أيمانكم » أى من أن

تنكثوها ما لم تكن من فعل بر أو إصلاح بين الناس كما فى سورة البقرة «كذلك» أى مثل ما بين لكم ما ذكر «يبين الله لكم آياته» أى أعلام شريعته: «لعلكم تشكرون» أى لكى يحصل منكم شكر بامتثال أوامر الدين وفعل ما أمر به الله عز وجل وترك ما نهى عنه .

وعن ابن عباس قال لما نزلت : «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم» فى القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم قالوا : يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها ؟ فأنزل الله تعالى «لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» ، وعن يعلى بن مسلم قال : سألت سعيد ابن جبير عن هذه الآية . . قال : اقرأ ما قبلها فقرأت «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم» ، إلى قوله : «لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» قال : اللغو أن تحرم هذا الذى أحل الله لك وأشباهه ، تكفر عن يمينك ولا تحرمه ، فهذا اللغو الذى لا يؤاخذكم به ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فإن مت عليه أوخذت به، وعن سعيد بن جبير «لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» ، قال: هو الرجل يحلف على الحلال أن يحرمه فقال الله :«لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» أن تتركه وتكفر عن يمينك «ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان» ، قال : ما أقمت عليه . وعن مجاهد «لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» ، قال : هما الرجلان يتبايعان يقول أحدهما : والله لا أبيعك بكذا ، ويقول الآخر : والله لا أشتريه بكذا . وقيل : اللغو أن يصل الرجل كلامه بالحلف : والله لتجيئن والله لتأكلن ، والله لتشربن ، ونحو هذا ، لا يريد به يمينا ولا يتعمد به حلفا ، فهو لغو اليمين ليس له كفارة . وعن عائشة قالت : أنزلت هذه الآية «لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» فى قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، وكلا والله، وزاد ابن جرير : يصل بها كلامه . وفى رواية له ولغيره عنها : هو القوم يتدارءون فى الأمر يقول هذا : لا والله ، ويقول هذا : كلا والله ، يتدارءون فى الأمر لا تعقد عليه قلوبهم .

٩٠ — يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ

وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

٩١ — إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ .

٩٢ — وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ .

٩٣ — لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا إِذَا مَا ٱتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا وَّءَامَنُوا ثُمَّ ٱتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ .

فى هذه الآيات الكريمة نهى عن الخمر والميسر والأوثان وأقداح الاستقسام التى يطلبون بها معرفة الغيب ، ويذكر الله سر تحريمه للخمر والميسر فى بيان واضح . . ويأمر الله عز وجل بطاعته وبطاعة رسوله ، وبترك هذه الموبقات والذنوب الكبيرة ، ويعد عباده بالتجاوز عما فرط من المؤمنين فى شرب الخمر قبل تحريمها ، يقول الله عز وجل فى محكم كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر » أى المسكر الذى خامر العقل سواء فيه كثيره وقليله « والميسر » أى القمار « والأنصاب » أى الأصنام « والأزلام » أى القداح التى يطلبون بإجالتها معرفة ماقسمه الله للإنسان مما يغيب عن البشر علمه « رجس » أى خبيث مستقذر ، وأكده بقوله تعالى « من عمل الشيطان » أى تزيينه « فاجتنبوه » أى الرجس المعبر عنه عن هذه الأشياء أن تفعلوه « لعلكم تفلحون » أى تظفرون بجميع مطالبكم. واعلم أنه سبحانه وتعالى أكد

تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية تأكيدا قويا ، وقرنهما بالأنصاب والأزلام وسماها رجسا من عمل الشيطان تنبيها على أن الاشتغال بهما شر خالص، وأمر بترك هذه الأمور كلها ، وجعل تركها يرجى منه الفلاح ؛ ثم قرر ذلك بأن بين ما فى الخمر والميسر من المفاسد الدينية والدنيوية المقتضية للتحريم بقوله تعالى « إنما يريد الشيطان ، أى بتزيين الشرب والقمار لكم « أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، إذا أتيتموهما لما يحصل فيهما من الشر والفتن ، أما العداوة فى الخمر فإن الشارب إذا سكر عربد كما فعل الأنصارى الذى شج رأس سعد بن أبى وقاص ، وأما العداوة فى الميسر فقال قتادة : كان الرجل يقامر على الأهل والمال ثم يبقى حزينا مسلوب الأهل والمال « ويصدكم ، بالاشتغال بهما « عن ذكر الله وعن الصلاة ، وذلك لأن من اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن ذكر الله وفوت عليه صلاته. كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف، تقدم رجل منهم يصلى بهم صلاة المغرب بعد ما شربوا فقرأ :قل يا أيها الكافرون أعبد. بحذف ( لا ) وإنما خصهما بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال تنبيها على أنهما المقصودان بالبيان ، وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة والشر، لقوله صلى الله عليه وسلم « شارب الخمر كعابد الوثن ، رواه البزار ورواه ابن حبان بلفظ «مدمن الخمر كعابد الوثن ، وخص الصلاة بالذكر من بين سائر أنواع ذكر الله للتعظيم والإشعار بأن الصادر عنها كالصادر عن الإيمان، من حيث إنها عماده والفارق بينه وبين الكفر؛ ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ما تقدم من أنواع الصوارف بقوله تعالى «فهل أنتم منتهون ، إيذانا بأن الأمر فى المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت، والاستفهام معناه الأمر .كقوله تعالى « فهل أنتم شاكرون ، « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فيما أمركم به من اجتناب ما ذكر « واحذروا ، مخالفتهما «فإن توليتم ، أى عن الطاعة « فإنما على رسولنا البلاغ المبين ، أى فلا يضره توليكم ، فإنما عليه الإبلاغ المبين وقد أدى ما أمر به ، وإنما ضررتم أنفسكم . . ولما نزل تحريم الخمر قال الصحابة رضى الله عنهم : يارسول الله ، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم

يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فنزل قوله تعالى «ليس على الذين آمنوا وعملوا» تصديقا لإيمانهم «الصالحات جناح» أى حرج «فيما طعموا» أى من مال الميسر وشربوا من الخمر قبل التحريم «إذا ما اتقوا» أى المحرمات «وآمنوا وعملوا الصالحات» أى ثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة «ثم اتقوا» ماحرم عليهم بعد الخمر «وآمنوا» بتحريمه «ثم اتقوا» أى استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصى «وأحسنوا» أى وتحروا الأعمال الصالحة واشتغلوا بها أوأن التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة : الماضى والحال والاستقبال التى تقع فيها الأفعال المذكورة، أوباعتبار الحالات الثلاث : استعمال الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله عز وجل ، ولأجل استعمال الإنسان التقوى بينه وبين الله بدأ الإيمان بالإحسان فى المرة الثالثة ، إشارة إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام فى تفسير الإحسان من قوله : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، أو باعتبار المراتب الثلاثة : المبدأ والوسط والمنتهى ، أو باعتبار مايتقى، فإنه ينبغى أن يترك المحرمات توقيا من العذاب والشبهات ، تحرزا للنفس عن الوقوع فى الحرام وبعض المباحات صونا لها عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة «والله يحب المحسنين» أى يثيبهم . وروى فى سبب نزول هذه الآيات أن سعد بن أبى وقاص قال : «فىّ نزل تحريم الخمر - صنع رجل من الأنصار طعاما فدعانا فأتاه ناس فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر وذلك قبل تحريم الخمر ، فتفاخروا ، فقالت الأنصار : الأنصار خير . وقالت قريش : قريش خير، فأهوى رجل بلحى جزور[1] فضرب على أنفى ففزره ، قال : فأتيت النبى فذكرت له ذلك، فنزلت هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر» الآية ، وروى الطبرانى

---

(١) اللحى : هو بفتح فسكون ، وهو منبت الأسنان ، والجزور ما يجزر من النعم أى يذبح ويجزأ ، أى ضربه بفك رأس الجزور.

عنه « أنه نادم رجلا فعارضه فعربد عليه فشجه ، فنزلت الآيات فى ذلك » .

وعن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته . فيقول : صنع بى هذا أخى فلان ، وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن ، والله لو كان رءوفا رحيما ما صنع بى هـذا . حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم : فأنزل الله هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر - إلى قوله - فهل أنتم منتهون » ، فقال ناس من المتـكلفين . هى رجس وهى فى بطن فلان قتل يوم بدر ، وفى بطن فلان قتل يوم أحـد ؟ فأنزل الله « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا - الآية » وفى سنن أبى داود والنسائى أن عمر كان يدعو الله تعالى : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فلما نزلت آية البقرة قرأها عليه النبى فظل على دعائه ، وكذلك لما نزلت آية النساء ، فلما نزلت آية المائدة دعى فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى « فهل أنتم منتهون ؟ » قال : انتهينا انتهينا . . وعن سـعيد بن جبير قال : لما نزلت فى البقرة « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » شربها قوم لقوله « منافع للنـاس » وتركها قوم لقوله « إثم كبير » منهم عثمان بن مظعون ، حتى نزلت الآية التى فى النساء « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فتركها قوم وشربها قوم ، يتركونها بالنهار حين الصلاة ويشربونها بالليل ، حتى نزلت الآية التى فى المائدة « إنما الخمر والميسر » الآية قال عمر « أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً لك وسحقا ، فتركها الناس ، ووقع فى صدور أناس من الناس منها ، وقالوا : ما حرم علينا شىء أشد من الخمر ، حتى جعل الرجل يلقى صاحبه فيقول : إن فى نفسى شيئا، فيقول صاحبه: لعلك تذكر الخمر ! فيقول نعم ، فيقول : إن فى نفسى مثل ما فى نفسك حتى ذكر ذلك قوم واجتمعوا فيه ، فقالوا : كيف نتكلم ورسول الله شاهد ، وخافوا أن ينزل فيهم قرآن ، فأتوا رسول الله وقد أعدوا له حجة ، فقالوا : أرأيت حمزة بن عبد المطلب

ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش أليسوا فى الجنة ؟ قال : بلى قالوا : أليسوا قد مضوا وهم يشربون الخمر ؟ فحرم علينا شىء دخلوا الجنة وهم يشربونه ؟ فقال : قد سمع الله ما قلتم فإن شاء أجابكم ، فأنزل الله « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟ » فقالوا : انتهينا . ونزل فى الذين ذكروا : حمزة وأصحابه « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » الآية .

وروى البخارى فى صحيحه عن ابن عمر أنه قال « نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ، ما فيها من شراب العنب شىء » وروى أحمد والبخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أنس قال : « كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفراً من أصحابه عند أبى طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟ فقالوا حتى ننظر ونسأل ؛ فقالوا : يا أنس اسكب ما بقى فى إنائك ، فوالله ما عادوا فيها ، وما هى إلا التمر والبسر ، وهى خمرهم يومئذ » ، وفى رواية لمسلم عنه « كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر فى بيت أبى طلحة ، وماشرابهم إلا الفضيخ - والبسر والتمر - فإذا مناد ينادى ، فقال : اخرج فانظر ، فخرجت فإذا مناد ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت قال: فجرت فى سكك المدينة ، فقال: أبو طلحة : أخرجها فأهرقها ، فهرقتها » . وقد أهرقوا ما كان عندهم من الخمر عند الجزم بالنهى عنها . وقلما كان يوجد عندهم من خمر العنب شىء ، فلو كان مسمى الخمر فى لغتهم ما كان مسكراً من عصير العنب فقط لما بادروا إلى إهراق ما كان عندهم .

وقد روى النسائى عن ابن عباس مرفوعا : حرمت الخمر قليلها وكثيرها والمسكر من كل شراب .

وقال الكشاف : فى قوله تعالى «فهل أنتم منتهون» : هو من أبلغ ماينهى به كأنه قيل: قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع . فهل أنتم مع

هذه الصوارف منتهون ؟ أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا ؟
قال هذا بعد ما أكد الله تحريم الخمر والميسر فى هاتين الآيتين من سبعة وجوه ، وتبعه فى ذلك الرازى وغيره ، ومن هـذه الوجوه على ما يذكر صاحب تفسير المنار :

١ — أن الله تعالى جعل الخمر والميسر رجساً ، وكلمة الرجس تدل على منتهى القبح والخبث ؛ ولذلك أطلقت على الأوثان كما تقدم ، فهى أسوأ مفهوما من كلمة الخبيث ، وقد علم من عدة آيات أن الله أحل الطيبات وحرم الخبائث ، وقـد قال النبى : « الخمر أم الخبائث » وقال : « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر » .

٢ — أنه صدر الجملة بإنما الدالة على الحصر للمبالغة فى ذمهما ، كأنه قال : ليست الخمر وليس الميسر إلا رجساً فلا خير فيهما البتة .

٣ — أنه قرنهما بالأنصاب والأزلام التى هى من أعمال الوثنية والشرك ، وقد أورد المفسرون هنا حديث « مدمن الخمر كعابد وثن » .

٤ — أنه جعلهما من عمل الشيطان ، لما ينشأ عنهما من الشرور .

٥ — أنه جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب وهو أبلغ من الترك ، لأنه يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك .

٦ — أنه جعل اجتنابهما معداً للفلاح ومرجاة له ، فدل ذلك على أن ارتكابهما أس الخسران والخيبة فى الدنيا والآخرة .

٧ — أنه جعلهما مثاراً للعداوة والبغضاء وهما شر المفاسد الدنيوية .

٨ — أنه جعلهما صادين عن ذكر الله ، وعن الصلاة وهما روح الدين .

وروى البيهقى عن أبى هريرة قال : « قام رسول الله فقال : يا أهل المدينة ، إن الله يعرض عن الخمر تعريضاً لا أدرى لعله سينزل فيها أمره ، ثم قام فقال « يا أهل المدينة إن الله قـد أنزل إلى تحريم الخمر ، فمن كتب منكم هـذه الآية

وعنده منها شيء فلا يشربها » . وعن أبي سعيد الخدرى قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس ، إن الله قد عرض بالخمر ، فمن كان عنده منها شيء فليبعه ولينتفع به ، فلم نلبث إلا يسيراً حتى قال : إن الله قد حرم الخمر فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبع » قال فاستقبل الناس بما كان عندهم منها فسفكوها فى طرق المدينة . وعن الربيع قال : لما نزلت آية البقرة قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن ربكم يقدم فى تحريم الخمر، ثم نزلت آية النساء فقال النبى صلى الله عليه وسلم ،إن ربكم يقرب فى تحريم الخمر ، ثم نزلت آية المائدة فحرمت الخمر عند ذلك ، وعن عطاء قال : أول ما نزل من تحريم الخمر « يسألونك عن الخمر والميسر ؟ قل فيهما إثم كبير » الآية ، فقال بعض الناس : نشربها لمنافعها وقال آخرون : لاخير فى شيء فيه إثم، ثم نزلت « يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى » الآية . فقال بعض الناس : نشربها ونجلس فى بيوتنا ، وقال آخرون : لاخير فى شيء يحول بيننا وبين الصلاة مع المسلمين فنزلت « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر » الآية ، فنهاهم فانتهوا ، وأخرج أيضاً عن قتادة فى تفسير اية النساء أنه قال : ذكر لنا أن نبى الله قال حين نزلت هذه الآية : إن الله قد تقرب فى تحريم الخمر ، ثم حرمها بعد ذلك فى سورة المائدة بعد غزوة الأحزاب وعلم أنها تسفه الأحلام وتجهد الأموال وتشغل عن ذكر الله وعن الصلاة . وكانت غزوة الأحزاب سنة أربع كما قال موسى بن عقبة ومال إليه البخارى ، وقال ابن إسحق : في شوال من سنة خمس ، وعليه أهل المغازى أى بعد غزوة أحد بسنة كاملة . وذكر ابن إسحاق أن تحريم الخمر كان فى غزوة بنى النضير وكانت سنة أربع على الراجح . وقيل : كان تحريمها عام الحديبية أى سنة ست .

وروى أحمد عن أبى هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات ، ثم ذكر نزول الآيات الثلاث . وما كان من شأن الناس عند كل واحدة منهن ، وقال فى اية النساء : ثم أنزل الله آية أغلظ منها . أى من آية البقرة ، وقال مثل ذلك

فى آية المائدة . وبيان أن الأولى تحريم ظنى ، والثانية تحريم قطعى فى معظم الأوقات ، والثالثة قطعى مستغرق لكل زمن .

وعن أبى موسى الأشعرى : قلت يارسول الله ، أفتنا فى شرابين كنا نصنعهما باليمن : البتع ـ وهو من العسل ينبذ حتى يشتد، والمزر ـ وهو من الذرة والشعير ينبذ حتى يشتد ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوتى جوامع الكلم بخواتمه فقال : كل مسكر حرام . رواه أحمد والشيخان ، وفى حديث على كرم الله وجهه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم عن الجعة . رواه أبوداود والنسائى وغيرهما . والجعة ، بكسر ففتح : نبيذ الشعير .

هذا والخمر قد ورد النهى الشديد عنها فى الأديان كلها ، وفى القرآن والسنة نصوص كثيرة فى النهى عنها ، وهذه هى بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة الواردة فى تحريم الخمر :

١ ــ عن أنس رضى الله عنه قال : كنت أسقى أبا عبيدة وأبا طلحة وأبى ابن كعب من فضيخ زهو وتمر ، فجاءهم آت ، فقال : إن الخمر قد حرمت ، فقال أبو طلحة : قم يا أنس فأهرقها فأهرقتها ـ رواه الثلاثة .

٢ ــ وعن ابن عمر : أنه قد نزل تحريم الخمر وكانت تتخذ من خمسة أشياء : العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل . والخمر : كل ما خامر العقل ـ رواه الخمسة إلا الترمذى . وخامر : يعنى خالط العقل فغطاه وستره .

٣ ــ كل مسكر حرام ـ رواه مسلم والترمذى .

٤ ــ كل شراب أسكر فهو حرام ـ رواه الخمسة .

٥ ــ وسئل صلى الله عليه وسلم عن الخمر تصنع للدواء فقال : هى داء لا دواء ـ أعنى أن شربها ليس بدواء ولكنه داء ـ رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

٦ ــ وقال صلى الله عليه وسلم : ما أسكر كثيره فقليله حرام ـ رواه أصحاب السنن .

٧ ــ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو

مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر شاربها حين يشربها وهو مؤمن » ـ رواه البخارى .

٨ — وقال : كل مسكر حرام ، وما أسكر منه الفرق فملء الكف منه حرام ـ رواه أبو داود والترمذى ـ والفرق مكيال يسع ١٦ رطلا .

٩ — كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ـ رواه الخمسة .

١٠ — لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها ـ رواه أبو داود والترمذى .

١١ — من شرب مسكراً نجست صلاته أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال ـ أى صديد أهل النار ـ ومن سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال — رواه أصحاب السنن .

١٢ — وقال صلى الله عليه وسلم : ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ـ رواه أبو داود والنسائى .

١٣ — وقال : من شرب الخمر فاجلدوه ، ثم إن شرب فاجلدوه ، ثم إن شرب فاجلدوه ، ثم إن شرب فاقتلوه ـ رواه النسائى والترمذى .

١٤ — وقال : اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ـ رواه النسائى .

١٥ — وقال : فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع والإيمان أبداً إلا يوشك أحدهما أن يخرج صاحبه ـ رواه النسائى . وفى رواية : لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر ـ رواهما النسائى .

١٦ — عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم جلد فى الخمر بالجريدة والنعال ، ثم جلد أبو بكر أربعين ، فلما كان عمر ودنا الناس من الريف والقرى قال : ما ترون فى جلد الخمر ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : أرى أن تجعلها كأخف الحدود ، فجلد عمر ثمانين ـ رواه الأربعة . وفى رواية الترمذى ضرب النبى صلى الله عليه وسلم الحد ، أى فى الخمر ، بنعلين ، أربعين .

١٧ — وقال أبو هريرة رضى الله عنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم برجل

قد شرب الخمر فقال : اضربوه ، فما الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه ، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا تقولوا هكذا ، لا تعينوا على الشيطان . رواه البخاري وأبو داود .

١٨ — وروى البخاري : كان رجل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يسمى عبد الله وكان يلقب حمارا ، وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد جلده في الشراب فأتى به يوما فأمر به فجلد ، فقال بعض القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله .

١٩ — وعن ابن ساسان رضي الله عنه قال : شهدت عثمان رضي الله عنه وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال : أزيدكم ، فشهد عليه رجلان أحدهما حمران أنه شرب الخمر وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ، فقال: ما قاء إلا بعد ما شرب ، فقال يا على : قم فاجلده فقال : على قم يا حسن فاجلده فقال : ول حارها من تولى قارها ، فقال : يا ابن جعفر قم فاجلده فجلده وعلى يعد حتى بلغ أربعين ، فقال أمسك ، ثم قال : جلد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين وجلد أبو بكر أربعين وجلد عمر ثمانين ، وكل سنة ، وهذا أحب إلى ـ رواه مسلم وأبو داود .

٢٠ — وعن طارق الحنفي رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر وكان يصنعها ، فنهاه أن يصنعها ، فقال : إنما أصنعها للدواء ، فقال : إنه ليس بدواء ولكنه داء . رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

٢١ — عن ديلم الحميري رضي الله عنه قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم ، قلت : يا رسول الله : إنا بأرض باردة نعالج فيها عملا شديداً ، وإنا لنتخذ شرابا من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا ، قال : هل يسكر ؟ قلت : نعم ، قال : فاجتنبوه ، فقلت : إن الناس غير تاركيه ، قال : فإن لم يتركوه فقاتلوهم ـ رواه أبو داود في صحيح السنن .

٩٤ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٩٥ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ .

٩٦ — أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

افتتح الله عز وجل هذه السورة بآيات من أحكام الحلال والحرام فى الطعام وأحكام النسك ، ومنها الصيد فى أرض الحرام أو فى حال الإحرام ، وتلاها كلام طويل فى بيان أحوال أهل الكتاب ومحاجتهم ، ثم عاد الكلام إلى شيء من تفصيل تلك الأحكام ، فقد نهى الله عباده المؤمنين عن تحريم الطيبات وعن الاعتداء فيها وفى غيرها ، وأمرهم بأكل الحلال الطيب ، ولما كان بعض المبالغين فى النسك قد حلفوا على ترك بعض الطيبات ، بين لهم بهذه المناسبة كفارة الأيمان ؛ ثم بين لهم تحريم الخمر والميسر لأنهما من أخبث الخبائث ؛ فكان هذا وذاك متمما لما فى أول السورة من أحكام الطعام والشراب . وناسب أن يتمم أحكام الصيد فى الحرم والإحرام أيضاً ، فجاءت هذه الآيات فى ذلك ؛ ويقول الرازى فى تفسيره ، فى مناسبة هذا لما قبله مانصه :

ووجه النظم أنه تعالى كما قال « لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم » ثم استثنى الخمر والميسر عن ذلك ، فكذلك استثنى هذا النوع من الصيد عن المحللات وبين دخوله فى المحرمات ـ ا ﻫ . وقد نزلت هذه الآيات عام الحديبية وكانوا محرمين، ابتلاهم الله بالصيد وكانت الوحوش تغشى رحالهم فهموا بأخذها «ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله » أى ليختبرنكم « بشىء » يرسله لكم « من الصيد » وفائدة الابتلاء إظهار المطيع من العاصى ، « تناله أيديكم أى مالا يقدر أن يفر من الصيد كصقر أو غيره « ورماحكم » أى ما يقدر على الفرار لكبر أو غيره « ليعلم الله » أى علم ظهور ؛ فإنه تعالى يعلم ماتخفى الصدور « من يخافه بالغيب» أى ليختبركم ليتميز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر فى الآخرة فيجتنب ، « فمن اعتدى » فاصطاد« بعد ذلك » أى الابتلاء بالصيد « فله عذاب أليم » أى مؤلم وإن من لايملك نفسه فى مثل ذلك ولايراعى حكم الله فيه فكيف به فيما تكون فيه النفس أميل إليه وأحرص عليه « ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم » أى محرمون بنسك أو فى الحرم ، والنهى عما يؤكل لحمه لأنه الغالب فيه عرفا ؛ وأما غير المأكول فيحل قتله فإنه لا حظ للنفس فى قتله إلا الإراحة من أذاه، وإنما ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم، فإن مذبوح المحرم ميتة، « ومن قتله منكم متعمدا » أى قاصدا للصيد ذاكرا للإحرام إن كان محرما . وذكر العمد ليس لتقييد وجوب الجزاء ، فان إتلاف العامد والمخطىء واحد فى إيجاب الضمان لقوله تعالى : ومن عاد فينتقم الله منه ، ولأن الآية نزلت فيمن تعمد ، إذ روى أنه عنّ لهم فى عمرة الحديبية حمار وحش فطعنه أبو قتادة برمحه فقتله فنزلت ، وعن الزهرى نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ ، وعن سعيد بن جبير : لا أرى فى الخطأ شيئا ، فاشترط العمد كما فى الآية ، وعن الحسن روايتان .

وقوله تعالى « فجزاء » أى فعليه جزاء هو « مثل ما قتل من النعم » أى شبهه فى الخلقة لا التساوى فى القيمة « يحكم به » أى بالمثل رجلان « ذوا عدل

منكم ، أى لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء به فيحكمان به ، وذهب إلى إيجاب المثل جماعة من الصحابة حكموا فى بلدان مختلفة بالمثل من النعم، فحكم ابن عباس وعمر وعلى فى النعامة ببدنة وهى لا تساوى بدنة ، وابن عباس وأبو عبيدة فى بقر الوحش وحماره ببقرة ، وابن عمر وابن عوف فى الظبى بشاة ، وحكم بها ابن عباس وغيرهما فى الحمام ، فدل ذلك على أنهم يتطهرون إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة لا من حيث القيمة ، وقوله تعالى « هديا » حال من جزاء ، وقوله تعالى « بالغ الكعبة » أى يبلغ به الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه ، ولا يجوز أن يذبح حيث كان ، فإن لم يكن للصيد مثل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته « أو » عليه « كفارة طعام مساكين » فى الحرم من غالب قوت البلد ما يساوى قيمة الجزاء « أو » عليه « عدل » أى مثل « ذلك » أى الطعام « صياما » يصومه فى كل موضع يتيسر له ، فأو للتخيير لأنه الأصل فيها ، قال البقاعى : والقول بأنها للترتيب يحتاج إلى دليل ، وقوله تعالى « ليذوق وبال أمره » متعلق بمحذوف أى فعليه الجزاء أو الطعام والصوم ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ، والوبال المكروه « عفا الله عما سلف » أى من قتل الصيد قبل تحريمه فلا يؤاخذكم به « ومن عاد » إلى تعمد شىء من ذلك بعد النهى ، وقوله تعالى « فينتقم الله منه » أى فهو ينتقم الله منه ، ونحو ذلك قوله تعالى « فمن يؤمن بربه فلا يخاف» أى ينتقم الله تعالى منه فى الآخرة . وإذا تكرر من المحرم قتل الصيد تعددت عليه الكفارة عند جمهور العلماء ، وعن ابن عباس وشريح : لا كفارة عليه تعلقا بظاهر الآية ، قالا لأن الانتقام من العائد يمنع وجوب الكفارة « والله » الذى له صفات الكمال « عزيز » أى غالب على أمره « ذو انتقام » أى ممن أصر على عصيانه ، ولما كان هذا عاما فى كل صيد بين الله تعالى أنه خاص بصيد البر فقال « أحل لكم » أيها الناس حلالا كنتم أو محرمين « صيد البحر » أى ما صيد منه وهو مالا يعيش إلا فى الماء كالسمك ، بخلاف ما يعيش فيه وفى البر عند الشافعى رحمه الله تعالى ، وذهب قوم إلى أن جميع

مافى البحر حلال ، وظاهر الآية حجة له ، وعند أبى حنيفة رحمه الله تعالى لا يحل منه إلا السمك « وطعامه » عطف على صيد البحر ، أى وأحل لكم طعام البحر وهو ما يقذفه من السمك ميتاً ، قال صلى الله عليه وسلم فى البحر: هو الطهور ماؤه الحل ميتته ، وقيل الضمير للصيد وطعامه أكله وعلى هذا فالصيد بمعنى الاصطياد ، والمعنى أحل اصطياد الصيد وأكل الصيد من الأنهار والبرك وغيرهما من جميع المياه كالبحر ، وقوله تعالى « متاعا » أى أحل لكم تمتيعا لكم تأكلونه طريا « وللسيارة » أى المسافرين منكم يتزودونه « وحرم عليكم صيد البر » أى اصطياده وأكل ما صيد منه وهو مالا يعيش إلا فيه وما يعيش فيه وفى البحر ، فإن صيد للحلال حل للمحرم أكله لقوله صلى الله عليه وسلم: لحم الصيد حلال لكم مالم تصطادوه أو يصد لكم . « مادمتم حرما » أى محرمين ، وقد ذكر تعالى تحريم الصيد على المحرم فى ثلاث مواضع من هذه السورة قوله تعالى « غير محلى الصيد وأنتم حرم » إلى قوله « وإذا حللتم فاصطادوا » ، وقوله تعالى « ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » ، وقوله تعالى « وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما » تشديدا على المحرم لأنه لا يتعاطى ذلك ، وأكد ذلك بقوله تعالى « واتقوا الله » أى فى ذلك الاصطياد وغيره « الذى إليه تحشرون » فإنه يجازيكم بأعمالكم .

وبعد : فهذا هو الربع الأول من الجزء السابع من القرآن الكريم ، وهو الربع السابع من سورة المائدة الشريفة ، وقد تضمن كثيرا من الحقائق والأصول التى نستطيع إيجاز الحديث عنها فى هذا المقام ، وخلاصة ذلك :

١ — النعى على اليهود لموقفهم دائما من الإسلام والمسلمين ومن صاحب الرسالة الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين ، وموقف اليهود العدائى من الإسلام والمسلمين واضح تمام الوضوح طول عصور التاريخ حتى اليوم ، ولا نتحدث هنا عن الجانب المالى لليهود ومعاملتهم الاقتصادية مع المسلمين التى يتجلى فيها الغبن والفداحة والاحتكار والاستغلال وانتهاز

الفرص فى أوسع نطاق ، بما هو معروف للجميع ، وإنما نتحدث عن دسائسهم وعداوتهم الباطنة للإسلام والمسلمين ، ونتحدث عن تكتلاتهم السرية فى تاريخ الإسلام ومحاولاتهم للهدم والتخريب ، ولقد كان اليهود طول عصور التاريخ يكونون ( طابورا خامسا ) فى المجتمع الإسلامى ، ثم اتضح عداء اليهود الشديد للإسلام والعروبة فى تاريخنا الحديث اتضاحا كثيرا ، وقد قام اليهود عام ١٩٤٨ بأعظم جريمة إنسانية ، حيث هاجمت القوات المسلحة منهم ، والعصابات الصهيونية المدججة بالسلاح ، العرب المسالمين فى فلسطين واعتدوا عليهم وعلى نسائهم وأطفالهم ، وذبحوا عشرات الألوف منهم ، ونهبوا أموالهم وسلبوا أعراض نسائهم ، وأجلوهم عن أموالهم وأوطانهم وديارهم ومساكنهم ، ووضعوا أيديهم على القرى والمدن العامرة والبساتين والحدائق الناضرة ، والمزارع المنتشرة الخصبة ، واستحال سكان فلسطين المسالمين من العرب إلى لاجئين مشردين . ولم يكتفوا بذلك بل حاولوا دائما الاعتداء على الدول العربية المجاورة لإسرائيل ، وحاولوا خلق الفتنة بين الشعوب العربية ، وقاموا بكثير من الدسائس والمؤامرات والاعتداءات المنكرة ، وما اعتداؤهم على بور سعيد فى آخر أكتوبر عام ١٩٥٦ عنا ببعيد ، هذا الاعتداء الذى ساندهم فيه الاستعمار بكل ما يملك من قوة ومن عتاد ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب ، بل وضع اليهود خططا عسكرية لغزو العالم العربى وتكوين دولة يهودية ضخمة تمتد من الفرات إلى النيل ، وكذبوا فيما يزعمون ، وخاب فألهم فيما هم فيه يفكرون ، ولن يفلحوا إذن أبدا بإذن الله ومشيئته ، إن اليهود اليوم يحاربون الإسلام والمسلمين والقومية العربية أشد الحرب ، ويعملون على استعباد العالم العربى واستغلاله ، وليس هذا كله مما يحتاج منا إلى دليل وبرهان ، وهذا كله مصداق قول الله عز وجل : لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ... ، ويشارك اليهود فى هذه العداوة التقليدية للإسلام والمسلمين ـ الذين أشركوا بالله من الوثنيين ، ومن فى حكمهم ممن لادين لهم من أصحاب المذاهب والآراء والمعتقدات القديمة والحديثة على السواء .

وقد اتضح ذلك فى عصر النبوة اتضاحا كثيراً أيضاً ؛ فموقف المشركين فى مكة العدائى من الإسلام والرسول والرسالة كان موقفا غريبا جد الغرابة ، مما سجله التاريخ ، ووعاه الزمان . بعكس النصارى ، فقد كان موقفهم هادئا رزينا معقولا ، لايحمل طابع الحقد والكراهية والبغضاء الشديدة التى كانت تغلى بها صدور اليهود والمشركين وقلوبهم ، بل لقد كانوا أكثر من غيرهم من ذوى الديانات والمذاهب فهما للإسلام ، وإدراكا لمراميه ولرسالته ، وقد تجلى ذلك فى مظاهر عديدة فى عصر الرسول وفيما بعد عصر الرسول . . وطابع العداء للإسلام والمسلمين الذى تجلى فى موقف النصارى من الشعوب العربية الإسلامية فى خلال الحروب الصليبية لم يكن موقفا للنصارى بحكم نصرانيتهم ودينهم ، إنما كان موقفا لهم أملاه الجهل والتعصب وعدم الفهم للمسيحية والنصرانية ولكتابها المقدس ، وكذلك موقف الاستعمار المسيحى من المسلمين فى العصر الحديث ، إنما أملاه كذلك الرغبة فى السيادة وفى الثروة وفى السيطرة الاقتصادية على هذا الركن المهم من العالم ، وهو ركن الشرق الأوسط ، أما المسيحية نفسها ، المسيحية الحقيقية البيضاء ، فهى من ذلك كله براء ، بعكس المسيحية الملوثة بالحقد والكراهية والبغضاء وحب الدماء وبالنزوع إلى السيادة والسيطرة ، وقد وصف القرآن الكريم هؤلاء الجماعات الوديعة من النصارى فى عصر الرسالة ونزول القرآن الكريم وصفا بارعا ، وصفهم بأن منهم قسيسين ورهبانا تمتلىء قلوبهم وصدورهم بحب الدين ، وبحب السلام ، وبتمثل آداب المسيحية وأخلاقها ونهج شريعتها فى كل موقف وكل خطرة وكل عمل ، ووصفهم بأنهم لا يستكبرون ولا يتعالون على الحق ، أى بأنهم مبرأون من عنجهية الشرك والبداوة ، وبعيدون عن الحمق وعن أعمال الصعلكة والفتوة ، فهم متواضعون مسالمون ، لا يأنفون من الحق ، ولا يأبون قبوله ؛ بعكس اليهود والمشركين فى ذلك . ووصفهم بأنهم إذا سمعوا آيات القرآن الكريم بكوا ، وفاضت عيونهم دمعا ، ورقت جوانحهم ، مما عرفوا من الحق ، ومما استشعروه ، وأعلنوا إيمانهم وإخلاصهم لله عز وجل

ولدينه الحكيم ، وطلبوا من الله عز وجل أن يكتبهم من الشاهدين الذين شهدوا الحق وآمنوا به ، وشهدوا بالصدق للرسول ورسالته ، وشهدوا ببشارة المسيح بمحمد وكتابه ، وشهدوا بأن محمدا رسول أوحى إليه كما أوحى إلى عيسى والنبيين من قبل . . ثم بالغوا فى التعبير عن إيمانهم بالله وبدينه العظيم المنزل من السماء ، فقالوا امتثالا وخضوعا وتسليما : وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق - وأكدوا طمعهم فى رضاء الله ومثوبته فى الآخرة والأولى ؛ ويصف الله عز وجل ما أعده لهم فى الآخرة من النعيم المقيم ، والثواب الكريم ، وصفا جليلا نبيلا ؛ ويبين أن ذلك جزاؤهم لأنهم أحسنوا العمل والإيمان ، وذلك جزاء المحسنين ، ويندد القرآن الكريم بموقف الكافرين من اليهود والمشركين تنديدا شديداً .

٢ — وفى هذا الربع يتحدث القرآن الكريم عما أحل للمؤمنين من طيبات الحياة ، وينهاهم عن تحريم ما أحل الله منها ، وعن التقشف الكامل فيها ، وعن مخالفة سنة الحياة البشرية وطبيعتها ، ويبين أن عمل شىء من ذلك اعتداء لا يقره الإسلام ولا كتابه الحكيم ، ولا الله عز وجل ، وتبارك وتعالى ؛ ويأمرهم بأن يأكلوا مما رزقهم الله من الحلال الطيب ولا يحرموه على أنفسهم غلوا فى الدين ، وإسرافا فى فهم طبيعة الإسلام وروحه .

٣ — ويتحدث الله عز وجل عن الأيمان المعقودة بمناسبة أيمان حلف بها بعض المسلمين ليزهدن فى الحياة وطيباتها ، ويبين الأيمان التى لا تعد أيمانا والأيمان المعتبرة المعدودة ، ويشرح كفارة اليمين التى يحنث فيها الحالف بها ، ويبين الله عز وجل ذلك بيانا واضحا دون لبس أو خفاء .

٤ — وفى هذا الربع الكريم يحرم الله عز وجل على المؤمنين الخمر والميسر والأزلام التى يطلبون بها معرفة الغيب والتنبؤ به ، ويقرن هذه الأشياء بعبادة الأصنام مبالغة فى تحريمها وفى التحذير منها ، ويبين الله عز وجل مداخل الشيطان فى الخمر والميسر وأضرارهما ، وما يترتب عليهما من إيقاع العداوة والبغضاء بين المتحابين والأصدقاء ، ومن إلهاء المسلم عن عبادة

الله وعن الأعمال والطاعات والعبادات التى يطالبه بها الدين ؛ ويطلب منهم الانتهاء بشكل قاطع عن ذلك كله ، ولزوم طاعة الله والرسول ، لزوما كاملا ، وإلا عرضوا أنفسهم لعقاب الله وغضبه الشديد ، ويعلن الله عز وجل تجاوزه عما مضى للمسلمين قبل هذا التحريم ، من شرب للخمر ولعب للميسر ، ومن استقسام بالأزلام .

٥ — ويتحدث القرآن الكريم فى هذا الربع عن الصيد وحكمه فى الحل والحرم ، مطالبا وملزما بتقوى الله وامتثال حدود ما أمر به ، والوقوف عند ما أحل وحرم من ذلك .

وبذلك ينتهى الربع الأول من هذا الجزء الكريم ، ويبتدئ الربع الثانى :

الربع الثانى

٩٧ — جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

٩٨ — ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٩٩ — مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ .

١٠٠ — قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

هذا هو مطلع الربع الثانى من هذا الجزء الكريم ، أو الثامن من سورة المائدة .. وهذه الآيات الأربع الكريمة التى هى فاتحة هذا الربع تشتمل على تعظيم شأن الكعبة والبيت الحرام تعظيما كبيرا ، وعلى تمجيد شأنها ، وإعلاء

منزلتها ومكانتها فى قلوب المسلمين . لأنها هى قبلة المسلمين ومجمع أفئدتهم ، وهى التى يحج إليها المسلمون من كل مكان ، امتثالا لأوامر دينهم وكتابهم ، فهى سبب فى كمال دينهم ، كما أنها سبب فى تمام مصالحهم الدنيوية . . ويعظم الله كذلك من شأن الأشهر الحرم ومن شأن الهدى والقلائد ، لأن ذلك كله من شعائر الإسلام والحج إلى بيته الحرام . ويحذر الله عز وجل المسلمين من وسوسة الشيطان لهم ، ومما يخفونه فى أنفسهم من فعل الإثم ومن الاعتداء على هذه الشعائر المقدسة الكريمة ، فينبههم إلى أن علمه محيط بكل شىء ، وأن عقابه شديد قوى ، كما أن مغفرته ورحمته مبذولان لمن يستحقهما من عباد الله الصالحين التائبين العابدين .. وينبه الله عز وجل فى هذا المقام الكريم إلى أن وظيفة الرسول هى البلاغ ، وأنه ليس مسئولا عما يعمله الناس فيما بينهم وبين أنفسهم ، وأن الله عز وجل هو العالم المحيط بكل شىء ، بما ظهر وما خفى من أعمال الناس . . ويقرر الله عز وجل أن هناك فرقا كبيرا بين الصالحين والعاصين ، وبين أعمال الخير وأعمال الشر ، وبين الخبيث والطيب من العقائد والأقوال والأعمال ، مهما كان الخبيث محببا إلى النفس ، ومهما كان حسنا جميلا عند الفكر الطائش ، ومهما كان لذيذا على القلوب الظامئة إلى اللذائذ والشهوات ومتاع الحياة الدنيا وزخرفها الباطل ، ويأمر الله عز وجل أمرا مؤكدا بتقواه ، لأن التقوى هى سبب الفلاح فى كل شىء فى الدنيا والآخرة ، وهنا ينبه الله عز وجل إلى أنه إنما يخاطب ذوى العقول النيرة ، والبصائر الواعية ، والأفهام الذكية ، التى تفهم معنى أوامر الدين وشعائره وعباداته ، فهما قويا عميقا .

والآية الأولى من هذه الآيات تتمة للسياق السابق ، وقد ذكر الله تعالى فيه أن جزاء الصيد يكون هديا بالغ الكعبة . وأريد بالكعبة هنالك حرمها وجوارها الذى تؤدى فيه المناسك كما تقدم ، ثم ذكر الكعبة وأراد به عينها ولذلك بينها بالبيت الحرام ، وذكر الهدى أيضا . وقال الرازى : اعلم أن حكمة

اتصال هذه الآية بما قبلها هو أن الله تعالى حرم فى الآية المتقدمة الاصطياد على المحرم ، فبين أن الحرم كما أنه سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس من الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات فى الدنيا والآخرة .

ويقول الله عز وجل فى ذلك كله فى هـذه الآيات الأربع الكريمة : « جعل الله الكعبة » أى صيرها ، وسمى البيت كعبة لتكعبه أى تربعه ، وقال مجاهد : سميت كعبة لترفعها ، والعرب تسمى كل بيت مرتفع كعبة ، وقال مقاتل سميت كعبة لانفرادها من البناء ، وقوله تعالى « البيت الحرام » أى المحترم ، عطف بيان على جهة التوضيح كما تجىء الصفة كذلك « قياما للناس » أى يقوم به أمر دينهم بالحج أو العمرة إليه ، ودنياهم بأمن داخله وبعدم التعرض له ومجىء ثمرات كل شىء إليه ، قال الرازى : والمراد بعض الناس وهم العرب ، وإنما حسن المجاز لأن أهـل كل بلد إذا قالوا : الناس فعلوا كذا وصنعوا كذا ، فهم لايريدون إلا أهل بلدتهم ، فلهذا السبب خوطبوا بهذا الخطاب على وفق عاداتهم « والشهر الحرام » أى الأشهر الحرم ، وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، أى صير الأشهر الحرم قياما للناس يأمنون فيها من القتال « والهدى » أى الذى لم يقلد « والقلائد » أى الهدى يقلد فيذبح ويقسم على الفقراء ، ومر الكلام عليه فى أول السورة « ذلك » أى الجعل المذكور وهو خاص بالأربعة الأشياء التى جعلها قياما للناس « لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » فإن شرع الأحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها دليل على علمه بما فى الوجود وما هو كائن ، وقوله تعالى « وأن الله بكل شىء عليم » تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق. والمعنى هنا على أن الجعل تكوينى خلق : أن الله تعالى جعل الكعبة التى هى البيت الحرام قياما للناس الذين يقيمون بجوارها والذين يحجونها ، أى سبباً لقيام مصالحهم ومنافعهم بإيداع تعظيمها فى القلوب ، وجذب الأفئدة إليها ، وصرف الناس عن الاعتداء فيها وعلى مجاوريها وحجابها ، وتسخيرهم لجلب

الأرزاق إليها . وعلى أن الجعل أمر تكليفى للتشريع : أنه جعلها قياماً للناس فى أمر دينهم المهذب لأخلاقهم المزكى لأنفسهم ، بما فرض عليهم من الحج الذى هو من أعظم أركان الدين لأنه عبادة روحية بدنية مالية اجتماعية — وماشرع فى مناسك الحج من الصدقات والذبائح التى تطهر فاعلها من رذيلة البخل وتحببه إلى الفقراء والمساكين ، ويتسع بها رزق أهل الحرم ، وقوله تعالى « اعلموا أن الله شديد العقاب » فيه وعيد لكل عاص ممن انتهك محارم الله عز وجل ، وقوله تعالى « وأن الله غفور » فيه وعد للطائعين الصالحين المقيمين على الدين « رحيم » بهم ، وقوله تعالى « ما على الرسول إلا البلاغ » فيه تشديد على إيجاب القيام بما أمر به ، وان الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت على المسلمين الحجة ولزمتهم الطاعة فلا عذر لكم فى التفريط « والله يعلم ما تبدون » أى تظهرون من العمل « وما تكتمون » أى تخفون منه فيجازيكم به ؛ وقوله تعالى « قل لا يستوى الخبيث والطيب » حكم عام فى نفى المساواة عند الله تعالى بين الردىء من الأشخاص والأعمال والأقوال والأموال ، وجيدها ـ رغب به فى صالح العمل وحلال المال « ولو أعجبك كثرة الخبيث » إذ لا عبرة بالقلة والكثرة بل بالجودة والرداءة ، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير ، والخطاب لكل معتبر ، ولذلك قال تعالى « فاتقوا الله » أى فى ترك الخبيث وإن كثر فى الحس لنقصه فى المعنى والأثر ، والطيب وإن قل فى الحس لكثرته فى المعنى والأثر « يا أولى الألباب » أى أصحاب العقول السليمة « لعلكم تفلحون » أى لتكونوا على رجاء من أن تفوزوا بجميع المطالب .

١٠١ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

١٠٢ — قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ .

١٠٣ — مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

١٠٤ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ .

هذه الآيات الأربع الكريمة تحتوى على تحذير شديد للذين عاشوا فى عصر النبوة من مجادلة الرسول واقتراح الآيات ، وكثرة السؤال عن أشياء قد يكون ظهورها سببا لمحن كثيرة ؛ كما تنطوى هذه الآيات أيضاً على إبطال عادات جاهلية قديمة جعلها العرب فى جاهليتهم من شعائر الدين وماهى من الدين بشيء ، ففى الآية الثالثة يفند الله عز وجل ما زعمته الجاهلية من جعل البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى من شعائر الدين . ويقرر أن هذا من افتراء الكذب على الله . وفى الآية الرابعة يحذر الله عز وجل من التقليد الأعمى : تقليد الآباء والأجداد ، وخاصة إذا كان هذا التقليد فى الدين ، ويطالب الله بتحكيم العقل والقرآن وشريعة الإسلام ، فإن تقليد الآباء والأجداد لا يغنى من الله شيئا ، فهذه الآيات الأربع تشترك كلها فى غرض واحد ، هو نهى العرب الذين عاصروا عهد النبوة عن أعمال وعقائد وعادات فاسدة ، وفى مقدمتها كثرة مجادلة الرسول وطلب الآيات منه ، ومنها زعمهم الفاسد بأن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من شعائر الدين ، ومنها صدودهم عن القرآن وعما أنزل الله وحرصهم على تقليد الآباء والأجداد ، وما أروع ما قال الكتاب الحكيم : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » أى لا يعلمون شيئا من أمور دنياهم وآخرتهم ، ولا يهتدون فى أمور دينهم ، ويقول الله عز وجل فى هذه الآيات الأربع الشريفة الجامعة المانعة : « يا أيها

الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ». روى عن أنس رضى الله عنه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، قال : فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم خنين[1] فقال رجل : من أبى ؟ قال : فلان ، فنزلت هذه الآية . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان ناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل : من أبى ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتى ؟ فأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » حتى فرغ من الآية كلها . وعن قتادة فى قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله سألوه حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال : « لا تسألونى اليوم عن شىء إلا بينته لكم » ، فأشفق أصحاب رسول الله أن يكون بين يدى أمر قد حضر ، فجعلت لا ألتفت لا يمينا ولا شمالا إلا وجدت كل رجل لافاً رأسه فى ثوبه يبكى ، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه فقال : يا نبى الله من أبى ؟ قال : أبوك حذافة . قال : ثم قام عمر ـ أو قال : فأنشأ عمر ـ فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا عائذا بالله ـ أو قال : أعوذ بالله من شر الفتن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أر فى الخير والشر كاليوم قط ، صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط . أخرجه الشيخان . وعن أبى هريرة قال : خرج رسول الله وهو غضبان محمارّ وجهه حتى جلس على المنبر ، فقام إليه رجل فقال : أين أبى ؟ قال : فى النار ـ فقام آخر فقال : من أبى؟ قال : أبوك حذافة . فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وبالقرآن إماماً ، إنا يارسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك ، والله أعلم من آباؤنا قال : فسكن غضبه ونزلت هذه الآية « يا أيها الذين

---

(١) صوت مرتفع من الأنف بالبكاء من الصدر دون الانتحاب .

آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » الآية وعن على قال : لما نزلت هذه الآية « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » قالوا يا رسول الله ، أفى كل عام ؟ فسكت ، فقالوا : أفى كل عام ؟ فسكت ، قال : ثم قالوا : أفى كل عام ؟ فقال : لا ولو قلت نعم لو جبت ـ ولو وجبت لما استطعتم ، فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » الآية . وعن مجاهد عن ابن عباس « لا تسألوا عن أشياء » قال : هى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ، ألا ترى أنه يقول بعد ذلك : ما جعل الله من كذا ولا كذا . قال : وأما عكرمة فإنه قال : إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال : قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » ، قال : فقلت : قد حدثنى مجاهد بخلاف هذا عن ابن عباس ، فمالك تقول هذا ؟ فقال : هيه ، وغير مستنكر أن تكون المسألة عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى كانت فيما سألوا النبى عنه من المسائل التى كره الله لهم السؤال عنها .

وقوله تعالى : « إن تبد » أى تظهر « لكم تسؤكم » أى لما فيها من المشقة ، وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه المسألة ـ أى بالغوا فى السؤال ، فغضب فصعد المنبر وقال : لا تسألونى اليوم عن شىء إلا بينته لكم ، وشرع يكرر ذلك ، وإذا رجل كان إذا لاحى الرجال يدعى لغير أبيه فقال : يا رسول الله من أبى ؟ فقال : حذافة ، فقال : عمر رضى الله عنه: رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا نعوذ بالله من الفتن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت فى الخير والشر كاليوم قط ، انه قد صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط فى آخره ، فنزلت هذه الآية ، وروى أن عمر رضى الله عنه قال : يارسول الله إنا حديثو عهد بجاهلية ، اعف عنا يعف الله عنك فسكن غضبه ، وللبخارى عن أنس أيضا قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم خنين فقال رجل : من أبى ؟ قال : فلان فنزلت هذه الآية ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان قوم

يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته : اين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم هـذه الآية ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب ذات يوم وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه ما لا يعنيهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : لاأسأل عن شيء إلا وأجيب ، فقال رجل : أين أنا ؟ قال : في النار ، وقال آخر : من أبي ؟ فقال : حذافة : وكان يدعى لغيره فنزلت هذه الآية ، وقيل غير ذلك ، ولا تعارض بين هذه الأخبار ، ولو تعذر ردها إلى شيء واحد ، لما مر عند قوله تعالى « لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم » من أن الأمر الواحد قد تتعدد أسبابه، ولما كان ربما وقع في وهم متعنت أن هذا الزجر إنما هو لقصد راحة المسئول من السؤال عقب ذلك بماينفي هذا ، ويبين أن النهي عن السؤال إنما هو للخوف من عواقبه فقال تعالى «وإن تسألوا عنها» أي تلك الأشياء التي يتوقع مساءتكم عند إبدائها « حين ينزل القرآن تبدلكم » المعنى : إذا سألتم عن أشياء في زمنه صلى الله عليه وسلم يجبكم الرسول عنها ، وعن بعض الصحابة قال: إن الله تعالى قد فرض فرائض فلاتضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها ، ثم عفى عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها . وقوله تعالى « عفا الله عنها » استئناف أي عفا الله عما سلف في مسألتكم فلا تعودوا إلى مسألتها أو صفة أخرى ، أي عن أشياء عفا الله عنها ولا يكلف بها . روى أنه لما نزل « ولله على الناس حج البيت » قال سراقة بن مالك : الكل عام ؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد ثلاثا فقال : لا ولو قلت نعم لو جبت ولو وجبت ما استطعتم ، فاتركوني ما تركتم ، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه «والله غفور» يمحو الزلات ويعقبها بالإكرام «حليم» لايعجل على العاصي بالعقوبة ، وقوله تعالى « قد سألها قوم » الضمير للمسألة التي دل عليها «تسألوا» ، وقوله تعالى «من قبلكم » قال البيضاوي : متعلق بسألها وليس صفة لقوم ، وممن سألها قبلهم ثمود سألوا صالحا الناقة ، وسأل قوم عيسى المائدة « ثم أصبحوا » أي صاروا

« بها » أى بسببها « كافرين » حيث لم يأتمروا بها ، فهم إنما سألوا جحودا » وقوله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولاحام » رد وإنكار لما تبدعه أهل الجاهلية ، روى أن أهل الجاهلية كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وتركوا الحمل عليها وتركوا ركوبها ولم يجزوا وبرها ولم يمنعوها الماء ولاالكلأ، وقيل: إنهم كانوا ينظرون إلى خامس ولدها ، فإن كان ذكرا نحروه فأكله الرجال والنساء ، وإن كان أنثى بحروا إذنها أى شقوها وتركوها وحرم على النساء لبنها ومنافعها ، وكانت منافعها خاصة للرجال ، وإذا ماتت حلت للرجال والنساء ، وأما السائبة فكان الرجل منهم يقول : إن شفيت أورد غائبى فناقتى سائبة ، ثم يسيبها فلاتحبس عن مرعى ولاماء ولا تركب ، ويجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها، وقيل :كانت الناقة إذا تابعت اثنتى عشرة سنة إناثا تركت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلاضيف كما فعل بأمها ، فهى البحيرة بنت السائبة. وأما الوصيلة فمن الغنم، كانت إذا ولدت سبعة أبطن نظر. فإن كان السابع ذكرا ذبحوه فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تركوها فى الغنم ، وقيل: إذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، وكان ابن الأنثى حراما على النساء، فإن مات منها شىء أكله الرجال والنساء جميعا . وأما الحام فهو الفحل إذا ركب ولد ولده، ويقال: إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا (حمى ظهره) فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ، وإذا مات أكله الرجال والنساء ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأكثم الخزاعى : يا أكثم رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار ، فما رأينا من رجل أشبه برجل منك به ولا به منك ، وذلك أنه أول من غير دين إسماعيل ونصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى ، ولقد رأيته فى النار يؤذى أهل النار بريح قصبه، فقال أكثم : أيضرنى شبهه يا رسول الله ؟ قال : لا إنك مؤمن وهو كافر ، ومعنى : ما جعل الله أى ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير ولا التسييب ولا غير

ذلك ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، فى قولهم : الله أمرنا بها ، وأكثرهم لايعقلون ، إن ذلك افتراء لأنهم قلدوا فيه آباءهم، كما قال تعالى: « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ، أى كافينا « ما وجدنا عليه آباءنا ، إذ لا مستند لهم سوى ذلك قال الله تعالى : « أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ، إلى الحق ، والاستفهام للإنكار ، أى أيظنون أنه بحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين ؟

١٠٥ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

هذه الآيات الشريفة خوطب بها المؤمنون والرسول ، مصداقاً لقول الله تعالى « ما على الرسول إلا البلاغ » ، فالمخاطبون بها هم المؤمنون الأولون الذين جاهدوا مع الرسول أعظم الجهاد ، وأبلوا بلاء حسناً فى سبيل الدعوة إلى الإسلام ، ولكن المشركين استمروا على حمقهم وغيهم ومقاومتهم للإسلام وظلوا على شركهم وكفرهم القديم ، ولم يبالوا بدعوة الإسلام شيئاً ، فالله عز وجل يقول للمؤمنين الذين جاهدوا مع الرسول وأبلوا بلاء حسناً فى سبيل الدعوة إلى الإسلام : عليكم بعد اليوم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا آمنتم واهتديتم .

قال أبو بكر الصديق : « أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده . فأخبرهم أنهم يضعونها على غير مواضعها فى فهمهم منها خلاف ما أريد بها .. وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » أى احفظوها والزموا صلاحها « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » أى لا يضركم الضلال إذا كنتم مهتدين . ومن الاهتداء

أن ينكر المنكر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام : من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . ويروى عن أبي بكر الصديق : لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومنكم سوء العذاب ثم ليدعون الله خياركم فلا يستجاب لهم ، قال أبو عبيد : خاف الصديق رضى الله عنه أن يتأول الناس الآية غير متأولها ، فيدعوهم إلى ترك الأمر بالمعروف فأعلمهم أنها ليست كذلك ، وقال أبو ثعلبة الخشنى : سألت عن هذه الآية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك ودع أمر العامة ، وإن وراءكم أيام الصبر فمن صبر فيهن قبض على الجمر ، وإن وراءكم للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله ، قال ابن المبارك وزادنى غيره : قال يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآية قرئت عنده فقال : إن هذا ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة ، ولكن يوشك أن يأتى زمان تأمرون فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم ، فهى على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه ، وبسط لعذره ، وعنه : ليس هذا زمان تأويلها ، قيل : فمتى ؟ قال إذا حال دونها السيف والسوط والحبس ، وروى: المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من الضعيف وفى كل خير ، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، وقيل : كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سفهت أباك ولاموه ، فنزلت : « عليكم أنفسكم » (وعليكم) من أسماء الفعل بمعنى الزموا أنفسكم « إلى الله مرجعكم جميعاً » الضال والمهتدى « فينبئكم بما كنتم تعملون » فيجازيكم به، ففى ذلك وعد ووعيد للفريقين ، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره .

١٠٦ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ

ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ .

١٠٧ — فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

١٠٨ — ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ .

هذه الآيات تنظم للوصية حين الموت وطلب للشهادة عليها، حتى لايخون فيها أحد، ولا يستطيع أحد لها لا إنكارا ..

وقد روى فى أسباب نزول هذه الآيات لما ورد فى الدر المنثور للسيوطى روايات عديدة . فمن تميم الدارى فى هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت » قال : برئ الناس منها غيرى وغير عدى ابن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل بن أبى مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته ، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله ، قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدى بن بداء ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا

وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا : ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره . قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها . فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا ، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف ، فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم - إلى قوله - ان ترد أيمان بعد أيمانهم » ، فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا ، فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء .

وعن ابن عباس قال : خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى بن بداء ، فمات السهمى بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما ، فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا بالذهب ، فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله ما كتمتماها ولا اطلعتما ، ثم وجدوا الجام بمكة فقيل: اشتريناه من تميم وعدى ، فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفا بالله : لشهادتنا أحق من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم ، وأخذ الجام ، وفيه نزلت « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم » .

وعن عكرمة قال « كان تميم الدارى وعدى بن بداء رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة فى الجاهلية ويطيلان الإقامة بها ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم حولا متجرهما إلى المدينة، فخرج بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة فخرجوا جميعاً تجاراً إلى الشام ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل، فكتب وصيته بيده ثم دسها فى متاعه وأوصى إليهما ، فلما مات فتحا متاعه فأخذا منه شيئاً ثم حجراه كما كان وقدما المدينة على أهله فدفعا متاعه ، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه فقالوا: هذا الذى قبضنا له ودفع إلينا، فقالوا لهما: هذا كتابه بيده قالوا : ما كتمنا له شيئا ، فترافعوا إلى النبي فنزلت هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت - إلى قوله إنا إذا لمن الآثمين » فأمر رسول الله أن يستحلفوهما فى دبر صلاة العصر بالله الذى لا إله إلا هو ما قبضنا له غير هذا ولا كتمنا . فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ظهر معهما إناء

من فضة منقوش بموه بذهب ، فقال أهله : هذا من متاعه، قالا: نعم ولكنا اشتريناه منه ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا ، فترافعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية الأخرى « فإن عثر على أنهما استحقا إثما » فأمر النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغيبا ويستحقانه . ثم إن تميما الدارى أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم وكان يقول : صدق الله ورسوله ، أنا أخذت الإناء ، ثم قال يا رسول الله إن الله يظهرك على أهل الأرض كلها فهب لى قريتين من بيت لحم ، وهى القرية التى ولد فيها عيسى . فكتب له بها كتابا ، فلما قدم عمر الشام أتاه تميم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : أنا حاضر ذلك فدفعها إليه . وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ « شهادة بينكم » مضاف برفع « شهادة » بغير نون ويخفض « بينكم » ، وعن ابن عباس « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم » هذا لمن مات وعنده المسلمون أمره الله أن يشهد على وصيته عدلين من المسلمين ثم قال « أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض » فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين، أمره الله بشهادة رجلين من غير المسلمين ، فإن ارتيب بشهادتهما استحلفا بالله بعد الصلاة ما اشترينا بشهادتنا ثمنا قليلا . فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا فى شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، فذلك قوله تعالى « فإن عثر على أنهما استحقا إثما » يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبا قام الأولياء فحلفا أنهما كذبا « ذلك أدنى أن يأتى الكافران بالشهادة على وجهها » أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم » فتترك شهادة الكافرين ويحكم بشهادة الأولياء ، فليس على شهود المسلمين إقسام وإنما الإقسام إذا كانا كافرين ، وعن ابن عباس فى قوله « اثنان ذوا عدل منكم » قال : من أهل الإسلام « أو آخران من غيركم » قال : من غير أهل الإسلام وفى قوله « فيقسمان بالله » يقول : يحلفان بالله بعد الصلاة وفى قوله « فآخران يقومان مقامهما » قال : من أولياء الميت « فيحلفان بالله

لشهادتنا أحق من شهادتهما ، يقول: فيحلفان بالله ما كان صاحبنا ليوصى بهذا إنهما لكاذبان ، وفى قوله « ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ، يعنى أولياء الميت فيستحقون ماله بأيمانهم ثم يوضع ميراثه كما أمر الله وتبطل شهادة الكافرين وهى منسوخة . وعن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية « اثنان ذوا عدل منكم ، قال : ما من الكتاب شىء إلا قد جاء على أذلاله غير هذه الآية ، ولئن أنا لم أخبركم بها لأنا أجهل من الذى يترك الغسل يوم الجمعة ، هذا رجل خرج مسافراً ومعه مال فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين ، فإن لم يجد عدلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب فإن أدى فسبيل ما أدى ، وإن هو جحد استحلف بالله الذى لا إله إلا هو دبر الصلاة : إن هذا الذى دفع إلى وما غيبت شيئا ، فإذا حلف برىء فإذا أتى بعد ذلك صاحبا الكتاب فشهدا عليه ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم مالهم جعلت أيمان الورثة مع شهادتهم ثم اقتطعوا حقه ، فذلك حيث يقول الله عز وجل : « ذوا عدل منكم أو آخران » . « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ، أى فيما أمرتم شهادة بينكم فشهادة مبتدأ خبره محذوف ، قيل : هذه الآية وما بعدها من أشكل آى القرآن حكما وإعرابا وتفسيراً ، والمراد بالشهادة الإشهاد بالوصية ، وقيل : المراد بها اليمين ، بمعنى : يمين ما بينكم أن يحلف اثنان ، قال القرطبى : ورد لفظ الشهادة فى القرآن على أنواع مختلفة بمعنى الحضور ، قال تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، وبمعنى (قضى) قال تعالى « شهد الله أنه لا إله إلاهو » ، وبمعنى (أقر) قال تعالى « والملائكة يشهدون » ، وبمعنى (حكم) قال تعالى « وشهد شاهد من أهلها » ، وبمعنى (حلف) قال تعالى « فشهادة أحدهم أربع شهادات » ، وبمعنى (وصى) قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم » . « إذا حضر أحدكم الموت ، أى أسبابه « حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ، وهذا خبر بمعنى الأمر أى ليشهد ، واثنان فاعل شهادة أو خبر مبتدأ محذوف أى الشاهدان اثنان ، وقوله تعالى « وآخران من غيركم ، عطف على

(اثنان) ومن فسر الغير بأهل الذمة جعله منسوخا فإن شهادته على المسلم لاتسمع إجماعا ، وقد اتفق الأكثرون على أنه لانسخ فى سورة المائدة ، وعن مكحول نسخها قوله تعالى « وأشهدوا ذوى عدل منكم » وإنما جازت فى أول الإسلام لقلة المسلمين وتعذر وجودهم فى حال السفر « إن أنتم ضربتم » أى سافرتم « فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت » أى قاربتم الأجل ، وقوله تعالى « تحبسونهما » أى توقفونهما « من بعد الصلاة » أى صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس ، وقيل : أىّ صلاة كانت « فيقسمان » أى يحلفان « بالله » وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن اليمين إنما تكون إذا كانا من غيرنا فإن كانا مسلمين فلا يمين ، وعن غيره إن كان الشاهدان على حقيقتهما فقد نسخ تحليفهما وإن كانا الوصيين فلا . ثم شرط لهذا الحلف شرطا فقال - اعتراضا بين القسم والمقسم عليه - « إن ارتبتم » أى شككتم فيما أخبرا به عن الواقعة ، ثم ذكر المقسم « لا نشترى به ثمنا » أى بهذا الذى ذكرناه ثمنا أى لم نذكره ليحصل لنا به غرض دنيوى وإن كان فى نهاية الجلالة ، وليس قصدنا به إلا إقامة الحق « ولو كان » أى المقسم له « ذا قربى » أى لنا « ولا نكتم شهادة الله » أى التى أمرنا بإقامتها « إنا إذا » أى إذا كتمناها « لمن الآثمين » « فإن عثر » أى اطلع بعد حلفهما « على أنهما استحقا إثما » أى فعلا ما يوجبه من خيانة أو كذب فى الشهادة بأن وجد عندهما مثلا ما اتهما به وادعيا أنهما ابتاعاه من الميت أو رضى لهما به « فآخران » أى فشاهدان آخران « يقومان مقامهما » أى فى توجيه اليمين عليهم « من الذين استحق عليهم » الوصية وهم الورثة « الأوليان » بالميت أى الأقربان إليه ، وهو بدل من ( آخران ) محذوف أى هما الأوليان « فيقسمان » أى هذان الآخران « بالله » ويقولان « لشهادتنا » أى يميننا « أحق » أى أصدق « من شهادتهما » أى من يمينهما « وما اعتدينا » أى تجاوزنا الحق فى اليمين « إنا إذا » أى إذا وقع منا اعتداء « لمن الظالمين » أى الواضعين الشىء فى غير موضعه . . ومعنى الآيتين أن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغى أن يشهد عدلين من ذوى نسبه أو دينه على وصيته أو يوصى إليهما احتياطاً فإن لم يجدهما بأن

كان فى سفر فآخران من غيرهم ثم إن وقع نزاع وارتياب أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ فى الوقت ، فإن اطلع على أنهما كذبا بأمارة أو مظنة حلف آخران من أولياء الميت ، والحكم منسوخ إن كان الإثنان شاهدين. فإن الشاهد لا يحلف ولا يعارض يمينه بيمين الوارث ، وثابت إن كانا وصيين ورد اليمين إلى الورثة إما لظهور خيانة الوصيين . فإن تصديق الوصى باليمين لأمانته أو لتغيير الدعوى ، وتخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقارب الورثة لخصوص الواقعة التى نزلت لها ، وهى ما روى أن رجلا من بنى سهم خرج مع تميم الدارى وعدى بن بداء إلى الشام للتجارة وكانا نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما ، فلما قدموا الشام مرض بديل فدون ما معه فى صحيفة وطرحها فى متاعه ولم يخبرهما به ، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ومات ، ففتشاه وأخذا منه إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشا بالذهب ، ثم قضيا حاجتهما وانصرفا إلى المدينة ودفعا المتاع إلى أهل الميت ففتشوا فاصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه ، فجاءوا تميما وعديا فقالوا : هل باع صاحبنا شيئاً ؟ قالا : لا . قالوا : هل اتجر تجارة ؟ قالا : لا . قالوا : فهل طال مرضه فأنفق على نفسه ؟ قالا : لا . قالوا : فإنا وجدنا فى متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه ، وإنا فقدنا منها إناء من فضة مموها بالذهب ثلاثمائة مثقال من فضة . قالا : ماندرى إنما أوصى لنا بشىء وأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه، وما لنا علم بالإناء . فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجترآ على الإنكار وحلفا ، فأنزل الله « يأيها الذين آمنوا » الآية . فلما نزلت هذه الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا تميما وعديا ، فاستحلفهما عند المنبر بالله الذى لا إله إلا هو أنهما لم يختانا شيئا مما دفع إليهما فحلفا على ذلك وخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما . ثم وجد الإناء فى أيديهما فبلغ ذلك بنى سهم فأتوهما فى ذلك فقالا : إنا كنا قد اشتريناه منه فقالوا : ألم تقولا إن صاحبنا لم يبع شيئاً من متاعه ؟ قالا : لم يكن عندنا بينة وكرهنا أن نقر لكم فكتمنا لذلك . فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم فنزلت « فإن عثر » فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى رفاعة السهميان وحلفا. وتقدم أن تخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة التى نزلت لها « ذلك » أى الحكم المذكور من رد اليمين على الورثة « أدنى » أى أقرب « أن » أى إلى أن « يأتوا » أى الذين شهدوا أولا « بالشهادة » أى الواقعة فى نفس الأمر « على وجهها » أى الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة ، « أو » قرب إلى أن « يخافوا أن ترد إيمان بعد أيمانهم » أى على الورثة المدعين فيحلفون على خيانتهم وكذبهم فيفضحون ويغرمون فلا يكذبوا ، وإنما جمع الضمير لأنه حكم يعم الشهود كلهم « واتقوا الله » بترك الخيانة والكذب « واسمعوا » ما تؤمرون به سماع قبول « والله لا يهدى القوم الفاسقين » أى الخارجين عن طاعته ، لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة .

فى هذا الربع الكريم حقائق وأصول كثيرة ، ومعان جليلة ، منها :

١ — تعظيم الكعبة البيت الحرام وشعائر الحج والأشهر الحرم .

٢ — النهى عن الجدال مع الأنبياء وكثرة مسألتهم ، وبيان عاقبة ذلك وأثره على المجادلين .

٣ — إبطال بعض العادات الجاهلية القديمة التى زعم الجاهليون باسم الدين وافتراء على الله أنها من الشعائر ومن دين الله ، وما هى من الدين بشىء.

٤ — النهى عن التقليد والجمود والرجعية واتباع الآباء ، وتحكيم سلطان العقل ، ووجوب الرجوع إلى كتاب الله فى كل شىء من أصول الإسلام .

٥ — تقرير أنه ليس على الرسول إلا البلاغ ، وليس على أتباع الرسول شىء بعد جهادهم الشديد فى سبيل نشر الدين والإسلام ، والدعوة إلى شريعة الله ، وبعد استماتتهم فى حجاج المشركين وإقناعهم ، وبعد ما أبلوا بلاء حسنا فى سبيل الله ؛ أما المسئولية الكبرى فتقع على عاتق المشركين والكافرين والجاحدين والمقلدين والذين لا يحتكمون إلى كتاب الله ولا إلى العقل ، وإنما يحتكمون إلى أهوائهم وإلى شرائع آبائهم وأجدادهم الفاسدة .

٦ — تنظيم الإشهاد على الوصية فى السفر ، والاحتكام فيها عند الخلاف بين الموصى إليهم وبين ورثة الموصى .

وأهم ما فى هذا الربع هو النهى عن التقليد الأعمى فى الدين وعن اتباع شرائع الآباء والأجداد دون الاحتكام إلى العقل ولا إلى كتاب الله .

الربع الثالث

١٠٩ — يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ .

١١٠ — إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

١١١ — وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ .

١١٢ — إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

١١٣ — قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ .

١١٤ — قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ .

١١٥ — قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ .

١١٦ — وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ .

١١٧ — مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ .

١١٨ — إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

قيل : إن هذا الكلام متصل بما قبله ، فالآية الأولى منه معناها : والله لا يهدى

القوم الفاسقين إلى طريق النجاة يوم يجمع الله ويسألهم عن تبليغ الرسالة وما أجابتهم به أقوامهم ؛ أو أنها مرتبطة بقوله تعالى « واسمعوا » أو بقوله « واتقوا الله » ، أى واتقوا عقاب الله يوم جمعه الرسل ، أو واسمعوا يوم يجمع الله الرسل أى خبره ونبأه وما يكون فيه ؛ وقيل : إن الآية منقطعة عما قبلها ـ والمعنى : يوم يجمع الله الرسل ويسألهم، يكون من الاهوال مالا يفى ببيانه مقال ـ أو المعنى : واذكر أيها الرسول يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أجبتم ؟ وهذا التقدير أظهر ، وله فى التنزيل نظائر . والمراد من السؤال توبيخ أممهم ، وإقامة الحجة على الكافرين منهم ، والمعنى : أى إجابة أجبتم ؟ أإجابة إيمان وإقرار ، أم إجابة كفر واستكبار ، فهو سؤال عن نوع الإجابة لا عن الجواب ماذا كان ، وإلا لقرن بالباء . وقيل: الباء محذوفة ، والتقدير : بماذا أجبتم ، ولما كان تعالى يسأل كلا من الفريقين عما هو أعلم به منه ، وكان الرسل عليهم الصلاة والسلام على علم يقنى بذلك — يكون جوابهم فى أول العهد بالسؤال التبرؤ من العلم وتفويضه إلى الله تعالى — إما لنقصان علمهم بالنسبة إلى علمه تعالى كما نقل عن ابن عباس ، وإما لما يفاجئهم من فزع ذلك اليوم أو هوله أو ذهوله كما نقل عن الحسن ومجاهد والسدى .

هذه الآيات الكريمة فى قصة عيسى مع أمته ، وفيما سيحدث فى الآخرة من حوار الله عز وجل معه ، ومن طلب شهادته على أمته ، ومن تقريره بالنعم الجزيلة التى أنعم الله بها عليه وعلى قومه من ميلاده وحياته ونبوته ورسالته ، ومن المعجزات التى ظهرت على يديه . وقد صدرت هذه الآيات بآية كريمة جامعة ، فيها تقرير لاستشهاد الله عز وجل بالرسل يوم القيامة ، ليشهدوا على أممهم ، وهذا مصداق لقوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » والرسل يشهدون على أممهم بما قابلوهم به من كفر وطغيان ، وبما ووجهوا به من صد ومقاومة وعناد ، ويشهدون عليهم بنعم الله الجزيلة عليهم ، ويشهدون برسالة الله التى نزلت عليهم وبلغوها أممهم ، وقولهم « لا علم لنا إلا ما علمتنا » رد للعلم كله إلى الله ، وهذا

هو منتهى السمو والأدب مع الله عز وجل ، إذ هو الذى يسألهم ، وهو عليم بما يسألهم عنه وبما يجيبون به ، ومن ثم فقد فوضوا الأمر إليه ، وأحلوا الشهادة عليه عز وجل ، أو أن هذا الجواب يقال فى مقام الشدة والهول والروع والفزع ، وهو يوم البعث والنشور والحساب . وفى الآية الثانية يذكر الله عز وجل نعمه على عيسى عليه السلام ، هذه النعم التى فى مقدمتها نعمة الرسالة والنبوة ، ومنها نعمته عز وجل عليه بإظهار المعجزات على يديه .. وليس المقام مقام امتنان على عيسى بهذه النعم ، إنما هو مقام إحصاء للآيات البينات التى كان يجب أن تدفع قوم عيسى إلى الإيمان برسالة نبيهم ، ولكنهم مع ذلك قالوا أو قال الكافرون منهم : ما هذا إلا سحر مبين . . وفى الآية الثالثة حتى السابعة وصف للحوار الذى جرى بين عيسى والحواريين ، ولطلبه منهم الإيمان . ثم تعنتهم معه باقتراح الآيات وطلب نزول المائدة من السماء ، وفى الآية الثامنة بيان للشهادة التى سيسأل عنها عيسى عليه السلام أمام الله وفى مواجهة أمته يوم القيامة ، وهى : هل قال لأتباعه وأنصاره : « اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » ؟ والغرض من ذلك توبيخ أمته على تقديسهم وعبادتهم لعيسى عليه السلام ولأمه مريم البتول . ورد عيسى واضح قوى صريح : « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد » . وفى الآية التاسعة وضع عيسى عليه السلام مصير أمته فى الآخرة بين يدى الله عز وجل ، وتفويض الأمر إليه وحده ، فى عذابهم أو المغفرة لهم ، ومعنى « العزيز الحكيم » القوى القادر على كل شىء الذى لا يهرب منه أحد والذى يصنع كل شىء فى موضعه السليم ، فهو يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، لا حبطا ولا اتفاقا ، وإنما يخص بعذابه أقواما هم أهل للعذاب . ويخص برحمته آخرين هم أهل للرحمة . . آيات كريمة متلاحمة صريحة واضحة ، والمائدة التى ذكرت فيها ، والتى طلب نزولها قوم عيسى سميت هذه السورة بسورة المائدة ..

وقوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل » أى يوم القيامة « فيقول لهم » توبيخاً لقومهم كما إن سؤال الموءودة لتوبيخ الوائد «ماذا» أى الذى «أجبتم» به حين دعوتم إلى التوحيد « قالوا لا علم لنا » أى لا علم لنا بما لسنا نعلمه « إنك أنت علام الغيوب» فتعلم ما أجابونا وأظهروا لنا وما لم نعلم بما أضمروا فى قلوبهم، وقوله تعالى « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك » أى اشكرها ، وهو على طريقة « ونادى أصحاب الجنة » ، والمعنى أنه تعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وتعديد ما ظهر على أيديهم من الآيات ، فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة ، وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة ، وقوله تعالى « إذ أيدتك » أى قويتك « بروح القدس » أى جبريل عليه السلام ، وقوله تعالى « تكلم الناس فى المهد » أى طفلا « وكهلا » أى تكلمهم فى الطفولة بحال الكهولة فى كمال الفعل والتكلم به ؛ وبه استدل آخرون على أن عيسى ينزل قبل الساعة لأنه رفع قبل الكهولة كما سبق فى آل عمران « وإذ علمتك الكتاب » أى الخط والقراءة ، وهذا مبدأ العلم « والحكمة » أى الفهم لحقائق الأشياء والعمل بما يدعو إليه العلم « والتوراة » أى المنزلة على موسى صلى الله عليه وسلم « والإنجيل » أى المنزل عليك « وإذ تخلق من الطين كهيئة » أى كصورة « الطير » أى مثل صورته « بإذنى » أى بأمرى « فتنفخ فيها » أى فى الصورة المهيأة « فتكون طيرا بإذنى » أى بإرادتى « وتبرىء الأكمه » هو من ولد أعمى « والأبرص » هو من ظهر على جلده لون بياض شديد يخالف لون جلده الأصلى « بإذنى » أى أمرى وإرادتى « وإذ تخرج الموتى » أى من قبورهم أحياء ، وقيل: إن إحياء الميت هنا معناه هداية الضالين بإذنى « وإذ كففت بنى إسرائيل » أى اليهود « عنك » أى حين هموا بقتلك ، وقوله تعالى : « إذ جئتهم بالبينات » أى المعجزات « فقال الذين كفروا منهم إن » أى ما « هذا » الذى جئت به « إلا سحر مبين » أى بين ظاهر « وإذ أوحيت » أى بالإلهام باطنا وبإيصال الأوامر على لسانك ظاهرا « إلى الحواريين » أى الأنصار « أن » أى بأن « آمنوا بى وبرسولى » عيسى عليه السلام « قالوا آمنا » بهما

« واشهد بأنا مسلمون » أى منقادون أتم انقياد ؛ وقوله تعالى : « إذ قال الحواريون » هو على تقدير اذكر ، وقيل : ظرف لقالوا « يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك » قرأ الكسائى بالتاء على الخطاب أى هل تستطيع ربك أى سؤال ربك ، والمعنى هل تسأل ذلك من غير صارف ، وقرأ الباقون بالياء على الغيبة أى هل يجيبك ربك إذا سألته ؟ « أن ينزل علينا مائدة » وهى الطعام ، ويقال أيضاً للخوان إذا كان عليه الطعام ، والخوان شىء يوضع عليه الطعام للأكل ، وقال أهل الكوفة : سميت مائدة لأنها تميد بالآكلين أى تميل ، وقال أهل البصرة : فاعلة بمعنى مفعولة أى تميد بالآكلين إليها كقولهم « عيشة راضية » أى مرضية « من السماء » أى لاصنع للآدميين فيها لنختص بها عمن تقدمنا من الأمم « قال » عيسى عليه السلام مجيبا لهم « اتقوا الله » أن تسألوه شيئاً لم تسأله الأمم من قبلكم « إن كنتم مؤمنين » بكمال قدرته تعالى وصحة نبوتى أو صدقكم فى ادعائكم الإيمان ، فنها هم عن اقتراح الآيات بعد الإيمان « قالوا نريد » أى بسؤالنا « أن نأكل منها » تبركا لا أكل حاجة ، وقولهم « وتطمئن » أى تسكن « قلوبنا » إلى الإيمان بكمال قدرته ـ بيان لما أدعاهم إلى السؤال وتمهيد عذر؛ وقولهم «ونعلم» أى نزداد علما «أن» أى أنك «قدصدقتنا» أى فى ادعاء النبوة وأن الله يجيب دعوتنا ، وقيل: إن عيسى عليه السلام أمرهم أن يصوموا ثلاثين يوما فإذا فعلوا لايسألون الله شيئاً إلا أعطاهم ففعلوا وسألوا المائدة ، وقالوا : ونعلم أن قد صدقتنا فى قولك : إنا إذا صمنا ثلاثين يوما لا نسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطانا «ونكون عليها من الشاهدين » أى إن استشهدتنا ، أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر «قال عيسى بن مريم» لما رأى أن لهم غرضا صحيحا فى ذلك وأنهم لايقلعون عنه فأراد إلزامهم الحجة بكمالها « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون » هى أو يوم نزولها « لنا عيدا » نعظمه ونشرفه ، وقال سفيان: نصلى فيه ، وقيل : العيد السرور العائد ، ولذلك يسمى يوم العيد عيدا ، وقوله « لأولنا وآخرنا » بدل من (لنا) بإعادة العامل أى عيدا لأهل زماننا ولمن جاء بعدنا ، وقال ابن عباس : يأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم ، وقوله :

« وآية منك » أى آية منك كائنة دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى « وارزقنا » المائدة والشكر عليها « وأنت خير الرازقين » أى من يرزق ، لأنه تعالى خالق الرزق ومعطيه بلا غرض « قال الله » تبارك وتعالى مجيبا لعيسى عليه السلام « إنى منزلها عليكم » أى المائدة « فمن يكفر بعد » أى بعد نزولها « منكم فإنى أعذبه عذابا » أى تعذيبا « لا أعذبه » أى لا أعذب بهذا العذاب « أحدا من العالمين » أى عالمى زمانهم أو العالمين مطلقا ، واختلف العلماء : هل نزلت المائدة أولا ، فقال مجاهد والحسن : لم تنزل ، فإن الله تعالى لما أوعدهم على كفرهم بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستغفروا ، وقالوا : لا نريدها فلم تنزل ، وقيل : إنها نزلت بدليل قوله تعالى « إنى منزلها عليكم » ، ولتواتر الأخبار فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد أفاضت الروايات فى وصف المائدة وبيان هيئتها وطعامها ، وقال وهب بن منبه : أنزل الله تعالى أقراصا من شعير وحيتانا ، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجىء آخرون فيأكلون حتى أكلوا جميعهم ، وقال الكلبى : كان عليها خبز أرز وبقل ، وقال قتادة : كان عليها ثمر من ثمار الجنة ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس. أنزل الله على المائدة كل شىء إلا الخبز واللحم ، وقال كعب الأحبار : نزلت منكسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل الطعام ، وقيل : لما نزلت قالوا يا رسول الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال : يا سمكة أحيى بإذن الله ، فاضطربت ثم قال لها : عودى كما كنت ، فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا بعدها فمسخوا .

وقصة المائدة وخلق الطير لم ترد فى الأناجيل المعروفة ، وهى الأناجيل الرسمية ، التى قد أقرتها الكنيسة . أما ما رفضته الكنيسة ولم تعتمده ، فقد جاء فيها ذلك ومنه إنجيل برنابا الذى صرح فيه بالتوحيد الخالص والبشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنجيل الطفولية الذى ذكر فيه مسألة جعله هيئة من الطين كهيئة الطير نفخ فيها فطارت ، فيجوز أن يكون خبر هذه القصة فى بعض الأناجيل التى رفضتها الكنيسة وفقدت بعد ذلك . وقد صرح يوحنا

فى إنجيله بأن الآيات التى عملها المسيح كثيرة لو كتبت كلها لا تسع الكتب المكتوبة لذكرها - وإننا نرى بعض أصحاب الأناجيل الأربعة المعتمدة كتب منها ما لم يكتبه الآخرون ، وقد جاء فى هذه الأناجيل رموز كثيرة ، ومما فى هذه الأناجيل بمعنى قصة المائدة ما جاء فى أول الفصل السادس من إنجيل يوحنا من أن المسيح عليه السلام ذهب إلى بحر الجليل -وهى بحيرة طبرية - وتبعه خلق كثير لأنهم رأوا آياته ، فصعد إلى جبل وجلس هناك مع تلاميذه - وهم الحواريون - قال يوحنا - وكان الفصح عيد اليهود قريباً - فرفع يسوع عينيه ونظر أن جمعاً كثيراً مقبل إليه فقال لفيلبس : من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء ؟ وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه علم ما هو مزمع أن يفعل ، أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز بمائتى دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً ، قال له واحد من تلاميذه وهو اندراوس أخو سمعان بطرس : هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ولكن ما هذا لمثل هؤلاء ، فقال يسوع : اجعلوا الناس يتكئون وكان فى المكان عشب كثير فاتكأ الرجال وعددهم خمسة آلاف ، وأخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزع على التلاميذ المتكئين ، وكذلك كل من السمكتين بقدر ما شاءوا ؛ ثم بين أن المسيح عاتب التلاميذ على الشبع من ذلك الخبز وقال : اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقى ، للحياة الأبدية التى يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد ختمه ، فقالوا له : ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ؟ أجاب يسوع وقال لهم : هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذى هو أرسله . فقالوا له : فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ماذا تعمل ؟ آباؤنا أكلوا المن فى البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا ، فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبى يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء ، لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم ، فقالوا : أعطنا فى كل حين هذا الخبز ، فقال لهم يسوع : أنا هو خبز الحياة من يقبل إلى فلا يجوع ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً ، ولكننى قلت لكم إنكم قد رأيتمونى ولستم تؤمنون إلى آخر القصة .

«و» أى واذكر « إذ قال الله » أى يقول لعيسى يوم القيامة توبيخا لقومه ، وعبر بالماضى لتحقق وقوعه كقوله تعالى أتى أمر الله «ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » أى غيره ، وقال السدى : قال الله هذا لعيسى حين رفعه الله إلى السماء ، لأن (إذ) تكون للماضى وسائر المفسرين على الأول ، ووجه هذا السؤال مع علم الله عز وجل أن عيسى عليه السلام لم يقله أنه ذكر لتوبيخ قومه كما مر ، ولتعظيم أمر هذه المقالة كما يقول القائل لآخر : فعلت كذا وكذا فيما يعلم أنه لم يفعله إعلاما واستعظاما لااستخبارا واستفهاما ، وأيضاً أراد الله عز وجل أن يقر عيسى على نفسه بالعبودية فيسمع قومه ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك ، ثم « قال » وهو يرتعد مجيبا لله «سبحانك » أى أنزهك من أن يكون لك شريك « مايكون» أى ما ينبغى «لى أن أقول ماليس لى بحق » خبر (ليس) و(لى) للتبيين « إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » أى ما أخفيته عنى من الأشياء ، وقوله (فى نفسك) من باب المشاكلة ، وقيل: المراد بالنفس الذات ، وقوله «إنك أنت علام الغيوب » تقرير لما سبق قبله فيكون تقريرا لقوله تعالى « ولا أعلم ما فى نفسك . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ، وهو أن اعبدوا الله ربى وربكم » أى فأنا وإياهم فى العبودية سواء « وكنت عليهم شهيدا » أى رقيبا أمنعهم مما يقولون « مادمت فيهم . فلما توفيتنى » أى بالرفع إلى السماء لقوله تعالى ( إنى متوفيك ورافعك إلى» ، والتوفى أخذ الشىء وافيا ، والموت نوع منه ، قال الله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها » ، « كنت أنت الرقيب » أى الحفيظ « عليهم » أى لأعمالهم « وأنت على كل شىء » من قولى وقولهم وغير ذلك « شهيد » أى مطلع عالم به « إن تعذبهم » أى من قام على الكفر منهم « فإنهم عبادك » وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك « وإن تغفر لهم » أى لمن آمن منهم « فإنك أنت العزيز » أى الغالب على أمره « الحكيم » فى صنعه ، فإن عذبت فعدل وإن عفوت ففضل .

١١٩ — قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ

تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

١٢٠ — لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

هاتان الآيتان ختمت بهما قصة المسيح بن مريم التى ساقها الله عز وجل فى آخر سورة المائدة ، وختمت بها هذه السورة كذلك ، وفى الآية الأولى منهما تقرير أن العمل الصالح ينفع صاحبه فى الآخرة ، وأن للذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه النعيم والفوز المبين فى الآخرة ، وفى الآية الثانية إثبات الملك كله لله عز وجل ، وملك السموات والأرض وما فيهن من حيوان وجماد ونبات ، وبيان أن التصرف فى كل شىء فى الكون كله هو لله عز وجل مالك الملك ، ورب الأرض والسموات العلى . . والقول الذى فى الآية الأولى ليس على حقيقته ، وإنما هو بمعنى أكد أو قرر أو فصل أو قضى ، والمعنى : وحكم الله عز وجل بأن يوم القيامة يوم ينفع الصادقين .

« قال الله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » أى فى الدنيا كعيسى ، فإن النافع ما كان حال التكليف لا صدقهم فى الآخرة ، وقرىء بنصب يوم وخبر هذا محذوف ، والمعنى : هذا الذى من كلام عيسى عليه السلام واقع يوم ينفع ، والباقون بالرفع على الخبر ، وقيل : أراد بالصادقين النبيين ، وقال الكلبى : ينفع المؤمنين إيمانهم ، ثم بين تعالى ثوابهم فقال « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » وأكد معنى ذلك بقوله تعالى « أبدا » ولما كان ذلك لا يتم إلا برضى الله تعالى قال « رضى الله عنهم » بطاعته « ورضوا عنه » بثوابه « ذلك » أى هـذا الأمر العلى لا غيره « الفوز العظيم » وأما الكاذبون فى الدنيا فلا ينفعهم صدقهم فى ذلك اليوم « لله ملك السموات والأرض » أى خزائن المطر والنبات والرزق وغيرها « وما فيهن » من إنس وجن وملك وغيرهم

ملكا وخلقا وأتى بـ(ما) دون (من) تغليبا لغير العاقل « وهو على كل شىء قدير » ومنه إثابة الصادق وتعذيب الكاذب .

* * *

وبعد ؛ فهذا هو آخر الحديث عن سورة المائدة، هذه السورة الكريمة التى اشتملت على كثير من أصول الإسلام وقواعده . مما تناولناه فى هذا الجزء وفى الجزء السابق فى أكثر من موضع ، ولا داعى إلى إعادة ذكره هنا مرة أخرى. ويقول الشيخ رشيد رضا عن سورة المائدة : انفردت هذه السورة بعدة مسائل فى أصول الدين وفروعه ، وبتفصيل عدة أحكام أجملت فى غيرها إجمالا ، وأكثرها فى بيان شئون أهل الكتاب ومحاجتهم ، فما هو من قبيل الأصول والقواعد الاعتقادية أو العملية مما ورد فى هذه السورة الكريمة :

١ — بيان إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم بالقرآن ، وإتمام نعمته عليهم بالإسلام ، « اليوم أكملت لكم دينكم » .

٢ — النهى عن سؤال النبى عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف مثلا ، « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » .

٣ — بيان أن هذا الدين الكامل مبنى على العلم اليقينى فى الاعتقاد والهداية فى الأخلاق والأعمال ، وأن التقليد باطل لا يقبله الله تعالى ، كما هو صريح الآية « وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله » الخ .

٤ — وحدة الدين واختلاف شرائع الأنبياء ومناهجهم فيه .

٥ — هيمنة القرآن على الكتب الإلهية .

٦ — بيان عموم بعثة النبى وأمره بالتبليغ العام ، وكونه لا يكلف من حيث كونه رسولا إلا التبليغ . وإن من حجج رسالته أنه بين لأهل الكتاب كثيراً مما كانوا يخفون من كتبهم .

٧ — عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من الناس أن يضروه أو يقدروا

على صده عن تبليغ رسالة ربه ، وهذا من دلائل نبوته أيضاً ، فكم حاولوا قتله فأعياهم وأعجزهم .

٨ — بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفرادا وجماعات. وأنه لا يضرهم من ضل من الناس إذا هم استقاموا على صراط الهداية ، أى لا يضرهم ضلاله فى دنياهم لأن الله تعالى لا يجعل له سبيلا عليهم ، ولا يضرهم فى أمردينهم وآخرتهم لأن الله تعالى لم يكلفهم إكراه الناس على الهدى والحق.

٩ — تأكيد وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما بينه الله تعالى من لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم وتعليله ذلك بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

١٠ — نفى الحرج من دين الإسلام .

١١ — تحريم الغلو فى الدين والتشدد فيه ولو بتحريم الطيبات وترك التمتع بها ، وتحريم الخبائث والاعتداء والإسراف فى الطيبات .

١٢ — قاعدة إباحة الاضطرار للمحرم لذاته فيما يضطر إليه كالطعام ومنه أخذ الفقهاء قولهم : الضرورات تبيح المحظورات .

١٣ — قاعدة التفاوت بين الخبيث والطيب وكونهما لا يستويان فى الحكم كما أنهما لا يستويان فى أنفسهما وفيما يترتب عليهما .

١٤ — تحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم ، لأنه يجب على المؤمنين أن يلتزموا الحق والعدل .

١٥ — وجوب الشهادة بالقسط والحكم بالعدل والمساواة فيهما بين غير المسلمين كالمسلمين ولو للأعداء على الأصدقاء ؛ وتأكيد وجوب العدل فى سائر الأحكام والأعمال .

١٦ — الأمر المطلق العام فى أول السورة بالوفاء بالعقود التى يتعاقد الناس عليها فى جميع معاملاتهم الدنيوية من شخصية ومدنية .

١٧ — إيجاب التعاون على البر والتقوى ، ومنه تأليف الجماعات الخيرية والعلمية وتحريم التعاون على الإثم والعدوان .

١٨ — بيان أن الله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس فى أمر دينهم ودنياهم ، فهو جعل تكوينى باعتبار وشرعى باعتبار آخر ، وهو يدل على علمه الواسع المحيط بالأشياء والحكم والمصالح والمنافع .

١٩ — النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين وبيان أن من آيات النفاق ومرض القلب المسارعة فى موالاتهم من دون المؤمنين ، خوفاً أن تدور الدائرة على المؤمنين فتكون لهم يد عند أعدائهم يستفيدون بها منهم .

٢٠ — تفصيل أحكام الوضوء والغسل والتيمم مع بيان أن الله تعالى يريد أن يطهر الناس ويزكيهم بما شرعه لهم من أحكام الطهارة وغيرها . وشمول الطهارة فى آية الوضوء لطهارة الظاهر والباطن .

٢١ — تفصيل أحكام حلال الطعام وحرامه وبيان ما حرم منه لكونه خبيثا فى ذاته كالميتة وما فى معناها والخنزير ، وما حرم لسبب دينى كالذى يذبح للأصنام .

٢٢ — تحريم الخمر وهو كل مسكر ، والميسر وهو القمار ، ومنه ما يسمى فى عرف الناس اليوم بالمضاربات .

٢٣ — بيان أحكام محرمات الإحرام .

٢٤ — تفصيل أحكام الصيد للحرم وغيرهم فى أوائل السورة وأواخرها .

٢٥ — حدود المحاربين الذين يفسدون فى الأرض ، ويخرجون على أئمة العدل ، وحد السرقة وما يتعلق بالحد كسقوطه بالتوبة بشرطه .

٢٦ — أحكام الأيمان وكفارتها وأيمان الأمناء والشهود .

٢٧ — تأكيد أمر الوصية قبل الموت وأحكام الشهادة على الوصية وفى قضاياها وشهادة غير المسلم على المسلم ، والفرق بين الشهادة والإشهاد .

٢٨ — الأمر بالتقوى فى عدة آيات من هذه السورة تدخل فى جمع الكثرة . لأن صلاح أمور الدنيا والدين يتوقف على التزامها ، وإنما يرجى بتكرار الأمر بها فى كل سياق بحسبه .

٢٩ — بيان تفويض أمر الجزاء فى الآخرة إلى الله تعالى وحده كما حكاه سبحانه من قول المسيح فى ذلك اليوم مقرونا بتعليله ودليله .

وأما ما ورد من الأخبار والحجاج والأحكام فى شأن أهل الكتاب فى هذه السورة : فمنه ما نزل فى شأن أهل الكتاب عامة ومنه ما هو فى أحد الفريقين خاصة ؛ فمن العام : وصفهم بالغلو فى دينهم المستلزم للتعصب الضار ، وباتباعهم أهواء من ضل قبلهم من الوثنيين وغيرهم ، وبالغرور فى دينهم وزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وبأنهم مع ذلك نقضوا ميثاق ربهم ونسوا حظا عظيما مما ذكرهم الله به على ألسنة أنبيائهم ، ولم يقيموا التوراة والإنجيل كما أوجب الله عليهم وقد فند دعواهم أنهم أبناؤه وأحباؤه تفنيدا ، وبين الله لهم حقيقة الأمر وهى أنهم بشر ممن خلق الله ، لا مزية لهم على سائر البشر فى أنفسهم وذواتهم ، لأن البشر إنما يمتاز بعضهم على بعض بالعلوم الصحيحة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ، لا بالنسب والانتماء إلى الأنبياء والصالحين وإن كانوا مخالفين لهم فى هدايتهم ؛ وذكر من جزائهم على سوء أعمالهم فى الدنيا إلقاء العداوة والبغضاء بينهم ، وأنه يعذبهم فى الدنيا بذنوبهم الشخصية والقومية كغيرهم ، وأن ذلك يدحض دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ودعاهم كافة إلى الإسلام ، والإيمان بخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، الذى بين لهم حقيقة دينهم الذى كان عليه سلفهم ، وبين بعض ما كانوا يخفون ويجهلون منه حسن بيان ، ووصف التوراة والإنجيل بأحسن وصف ، وذكر من أخبار التوراة قصة بنى آدم بالحق ، ومن أحكامها عقوبات القتل وإتلاف الأعضاء والجروح ، ومن أخبار الإنجيل والمسيح الكثير ، وبين أنهم لو كانوا أقاموا التوراة والإنجيل لكانوا فى أحسن حال ، ولسارعوا إلى الإيمان بما أنزله الله على خاتم رسله مصدقا لهما ، ومبيناً لما طرأ عليهما ،

ومكملا لدين الأنبياء جميعا ، على سنة الله فى النشوء والارتقاء ، التى هى أظهر فى البشر منها فى سائر الأشياء ، ولكنهم اتخذوا الإسلام هزؤاً ولعباً فى جملته ، وولوا عليه المناصبين له من أعدائه ، فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم .

ومما جاء فى اليهود خاصة نعياً عليهم وبيانا لسوء حالهم : أنهم نقضوا ميثاق الله الذى أخذه عليهم فى كتابهم ، ونسوا حظا عظيما مما ذكروا به ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وتركوا الحكم بالتوراة ، وأخفوا بعض أحكامها ، وحكموا الرسول ولم يرضوا بحكمه الموافق لها ؛ وإن من صفاتهم الغالبة عليهم قساوة القلب ، والخيانة والمكر . والكذب وقول الإثم ، والمبالغة فى سماع الكذب وأكل السحت ، والسعى بالفساد فى الأرض ، وفى إيقاد نار الفتن والحرب . وأنهم كانوا يقتلون الأنبياء والرسل بغير حق وتمردوا على موسى إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة وقتال الجبارين ، فعاقبهم الله بالتيه فى الأرض ، وأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين ، حتى إنهم يوالون عليهم المشركين ، بسبب ماورثوه من تلك الصفات عن الغابرين . وذكر أنه عاقبهم على ذلك كله باللعن على ألسنة الرسل ، وبالغضب والمسخ وهذه الصفات التى غلبت عليهم فى زمن البعثة وقبله تثبتها تواريخهم وتواريخ غيرهم ، ومن المعلوم أنها لم تكن عامة فيهم ولا شاملة لجميع أفرادهم ، فقد أنصفهم الحكم العدل فى هذه السورة وغيرها بالحكم على الكثير منهم أو على أكثرهم . ومنه قوله فى هذه السورة « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون » ، وقد بينا فى هذا الموضوع ما كان بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، من مساعدة اليهود للمسلمين فى الشام والأندلس لعدلهم معهم على النصارى الظالمين لهم . . .

ومما جاء فى النصارى خاصة أنهم نسوا ـ كاليهود ـ حظا مما ذكروا به ، وأنهم قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، ورد عليهم هذه العقيدة بالأدلة العقلية ، وببراءة المسيح منها ومن منتحليها يوم القيامة ، وبين لهم حقيقة المسيح وأنه عبد الله ورسوله وروح منه ، وما أيده به من الآيات ، وحال حوارييه وتلاميذه فى الإيمان ، وبين أنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين ،

وجملة الآيات الواردة فى أهل الكتاب تشهد لنفسها أنها من عند الله تعالى لا من عند محمد بن عبد الله العربى الأمى الذى لم يقرأ شيئاً من تلك الكتب، على أن تلك الآيات ليست موافقة لها ولهم موافقة الناقل للمنقول عنه، وإنما هى فوق ذلك حكم لهم وعليهم وفيهم وفى كتبهم حكم المهيمن السميع العليم.

إن سورة المائدة بأحكامها وآدابها وأخلاقها وبحجاجها لأهل الكتاب من يهود ونصارى، وبما اشتملت عليه من قواعد الإسلام وأصوله، لتعد من أروع السور القرآنية وأجمعها وأحكمها وأشملها لأسس السعادة والخير والهدى للمسلمين عامة..

## (٦)

## ســـورة الأنعام

# تمهيد

هذه السورة الكريمة مكية، وآياتها مائة وخمس وستون آية، وقد نزلت بعد سورة الحجر.. وسورة الحجر التي أوحيت إلى الرسول قبل هذه السورة قد نزلت بعد ثلاث سور من سورة الإسراء، وكان الإسراء قبل الهجرة إلى المدينة بعام، فتكون سورة الأنعام من السور التي نزلت بين الإسراء والهجرة، وسميت بهذا الإسم لأنه فصل فيها حكم الأنعام من الإبل والبقر والضأن والمعز. وتمتاز هذه السورة بطولها على كل السور المكية ماعدا الأعراف. وقد نزلت دفعة واحدة، فدعا رسول الله الكتاب فكتبوها من ليلتهم، والاتجاه العام لهذه السورة هو إثبات التوحيد والنبوة، ودحض مذاهب الجاحدين والمبطلين، وإبطال ماابتدعوه من تحليل الحرام وتحريم الحلال من الطيبات تقربا لأصنامهم، وقد ابتدئت بإثبات التوحيد والنبوة تمهيدا لمناظرة المشركين فيهما. وذكرت هذه السورة بعد سورة المائدة لأنها مثلها في الطول، فهما من الطوال، ولأنه ذكر فيها مثل سورة المائدة كثير من أحكام الحلال والحرام..

وهذه السورة مكية ـ قيل: إلا آية واحدة هي قوله تعالى «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة» فإنها مدنية رواه ابن المنذر عن أبي جحيفة؛ وقيل: إلا آيتين نزلتا في المدينة في رجل من اليهود قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فنزل: «وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» الآيتين ـ وقيل هما «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم» الخ الآيتين، وما قبله أقوى من جهة معنى الآيتين، فإنه في محاجة اليهود الذين كانوا في المدينة، وأما «قل تعالوا» الآيتين، فمعناهما من موضوعات السور المكية، وهما متصلتان بما بعدهما، وقيل: إن الآية الثالثة بعدهما مدنية أيضا، كما رواه ابن النحاس عن ابن عباس رضي الله عنه ـ وقيل إلا ست آيات «وما قدروا الله حق قدره»

إلى آخر الآيتين بعدها و « قل تعالوا » إلى آخر الآيتين بعدها : وهذا جمع بين الأقوال السابقة كلها  وقال السيوطى فى الإتقان : قال ابن الحصار : استثنى منها تسع آيات ولا يصح به نقل ، خصوصا مع ما قد ورد أنها نزلت جملة ، وبعض الآيات كانت تصدق على وقائع تحدث بعد نزولها أو قبله فتذكر للاستشهاد أو الاحتجاج بها فى الواقعة منها . فيظن من سمعها حينئذ من الصحابة ولم يكن سمعها من قبل أنها نزلت فى تلك الواقعة  وكثيرا ما كان يقول الصحابى : إن آية كذا نزلت فى كذا ـ وهو يريد أنها نزلت فى إثبات هذا الأمر أو حكمه أو دالة عليه ، فيظن الراوى عنه أنها نزلت عند حدوث ذلك الأمر . والصحابى لا يريد ذلك . وقد نقل السيوطى هذا المعنى عن ابن تيمية والزركشى ، والتحقيق أن مثل هذا يعد من التفسير لا من الحديث المسند ، وأما ما روى فى نزول الأنعام جملة واحدة فقد أخرجه غير واحد من المحدثين عن غير واحد من الصحابة والتابعين ، روى أنها نزلت جملة واحدة ليلا بمكة ونزلت معها الملائكة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان ربى العظيم ، وخر ساجدا . وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت سورة الأنعام بمكة إلا قوله تعالى « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » إلى قوله تعالى « لعلكم تتقون » فهذه الست آيات مدنيات ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم دعا بالكتاب فكتبوها من ليلتهم إلا الست آيات ، قال بعض العلماء : واختصت هذه السورة بأنها نزلت دفعة واحدة ، والسبب فيها أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين وهى مائة وخمسة وستون آية ..

وقد مال الآلوسى فى روح المعانى إلى القول بضعف ما ورد فى نزول الأنعام جملة واحدة ، ونقل حكاية الاتفاق على القول بنزولها جملة ، وأنه استشكل ذلك بأنه : كيف يمكن أن يقال حينئذ فى كل واحدة من آياتها إن سبب نزولها هو الأمر الفلانى ، مع أنهم يقولونه ؟ . ولما كان أمر العقائد هو الأهم المقدم فى الدين ، وكان شأن أهل الكتاب فيه أعظم من شأن

المشركين ، قدمت السور المشتملة على محاجتهم بالتفصيل ، وناسب أن يجيء بعدها ما فيه محاجة المشركين بالتفصيل وتلك سورة الأنعام التى لم تستوف ذلك سورة مثلها ، فهى لشرح مافى سورة البقرة مما يتعلق بالعقائد ، وجاءت سورة الأعراف بعدها متممة لما فيها ومبينة لسنن الله تعالى فى الأنبياء المرسلين وشؤون أممهم معهم ، وهى حجة على المشركين وأهل الكتاب جميعا ، ولكن سورة الأنعام فصلت الكلام فى إبراهيم الذى ينتمى إليه العرب وأهل الكتاب فى النسب والدين ، وسورة الأعراف فصلت الكلام فى موسى الذى ينتمى إليه أهل الكتاب .

ويقول صاحب المنار : من نظر ترتيب السور كلها فى المصحف يرى أنه قد روعى فى ترتيبها الطول والتوسط والقصر فى الجملة ، ومن حكمته أن فى ذلك عونا على تلاوته وحفظه . والمناسبة بين سورتى المائدة والأنعام أن المائدة معظمها فى محاجة أهل الكتاب ، والأنعام معظمها بل كلها فى محاجة المشركين ، ومن التناسب بينهما فى الأحكام أن سورة الأنعام قد ذكرت أحكام الأطعمة المحرمة فى دين الله والذبائح بالإجمال ، وسورة المائدة ذكرت ذلك بالتفصيل ، وهى قد أنزلت أخيرا كما هو معلوم ـ ومن التفصيل فى هذه المسألة ما فى سورة الأنعام من الكلام على محرمات الطعام عند المشركين ، ومافى المائدة من الكلام عن طعام أهل الكتاب ..

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

٢ — هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ .

٣ — وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

افتتحت هذه السورة الكريمة بالحمد ، وجعل الحمد كله موجها إلى الله جل جلاله ، لنعمه الكثيرة على خلقه ، هذه النعم التى لا يستطيع الناس فهمها ، فضلا عن شكرها ، وهنا فى هذه الآيات الثلاث ذكر الله عز وجل من بين نعمه تعالى الكثيرة : نعمة الخلق للكون ، ونعمة خلق الظلمات والنور ، ثم عاد القرآن الكريم إلى تفصيل أمر الخلق للإنسان فذكر كيف خلق الإنسان من طين ، وذكر كذلك القرآن الكريم عظمة الله تعالى وأنه ملء السموات والأرض ، فآثار قدرته فى كل شىء ، وأنه هو الله جل جلاله الذى لا يستطيع إنكاره أحد ، لأنه فى كل شىء ، وملء كل شىء ، وعلمه يحيط بكل شىء ، فكيف يمترى فيه الممترون أو يشك فيه الشاكون ..

« الحمد » هو الوصف بالجميل « لله » المراد الإعلام بذلك للإيمان به أو الثناء به أوهما ؟ احتمالات ، قال الجلال المحلى فى سورة الكهف : أفيدها الثلاث .

ويقول صاحب المنار : افتتح الله كتابه بالحمد ، ثم افتتح به أربع سور مكيات أخرى مشتملة كل منها على دعوة الإسلام ومحاجة المشركين فيها :

الأولى الأنعام وهى آخر سورة كاملة فى الربع الأول من القرآن ، والثانية الكهف وهى مشتركة بين آخر الربع الثانى وأول الربع الثالث ، والثالثة ، والرابعة : سبأ وفاطر ، وهما آخر الربع الثالث ، وليس فى الربع الرابع سورة مفتتحة بالحمد . وقد قرن الحمد فى الأولى بخلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، وفى الثانية بإنزال القرآن على عبده الكامل وكل منهما سمى نوراً بل هما أعظم أنوار الهداية . وفى الثالثة بخلق السموات والأرض وبحمده تعالى فى الآخرة وبصفات الحكمة والخبرة والعلم بما ينزل من السماء وما يعرج فيها - والرابعة بخلق السموات والأرض وجعل الملائكة رسلا أولى أجنحة ، ووصفه بسعة القدرة ، والملائكة من الأنوار الإلهية التى تنزل من السماء والتى تعرج فيها . فظهر بها أن السور الثلاثة مفصلة لما أجمل فى الأولى « الأنعام » بما حمد الله عليه كما أنها مؤيدة لما فيها من إثبات التوحيد والرسالة والبعث . الحمد هو الثناء الحسن والذكر بالجميل - وإسناد الحمد إلى الله تعالى خبر منه تعالى على المختار ، والعبد يحكيه بالتلاوة مؤمناً به فيكون حامداً لمولاه ، ويذكره فى غير التلاوة إنشاءا للحمد وتذكرا له ، ويجوز أن يكون الحمد هنا إنشاءا منه تعالى ، وأن إنشاء الحمد بالجملة الخبرية جمع بين الخبر والإنشاء ، أثنى سبحانه على نفسه بما علم به عبادة الثناء عليه ، فأثبت أن كل ثناء حسن فهو ثابت له بالاستحقاق وبما هو متصف به من الخلق والإيجاد والإعداد والإمداد . فذاته تعالى متصفة بجميع صفات الكمال وجوبا ، فالكمال الأعلى داخل فى مفهوم حقيقتها أو لازم بين من لوازمه . وقد وصف تعالى نفسه فى مقام هذا الحمد بصفتين من صفاته الفعلية التى هى من موجبات الحمد له ، وهما خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور أما خلق السموات والأرض فمعناه إيجاد هذه العوالم العلوية التى نرى كثيراً منها فوقنا ، وهذا العالم الذى نعيش فيه إيجاداً مرتبا منظما . وأما جعل الظلمات والنور فهو فى الحسيات بمعنى إيجادهما ؛ لأن هذا هو معنى الجعل المتعدى إلى مفعول واحد ، وسيأتى بيان معناه فى المعنويات . قال الزمخشرى فى الكشاف : جعل يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله « وجعل الظلمات والنور »

وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير كقوله « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا » والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير وفي الجعل معنى التضمين ، كإنشاء شيء من شيء ، أو تصيير شيء شيئا ، أو نقله من مكان إلى مكان ، ومن ذلك « وجعل منها زوجها » ، والظلمة الحالة التي يكون عليها كل مكان ليس فيه نور ، لا عدم النور — أي فقده — كما يوهمه كلام كثير من العلماء من قولهم : إن الظلمة هي الأصل كما سيأتي . قال الراغب : الظلمة عدم النور ، وقال : النور الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار ، وقال : الضوء ما انتشر من الأجسام النيرة ، ويقال : ضاءت النار وأضاءها غيرها . اهـ - ولا يوجد شيء في العالم أظهر ولا أغنى عن التعريف من النور والضوء ، وحسبك أنه هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره من المبصرات ، فهو أعظم المظاهر الحسية للرب تبارك وتعالى . على أن بيان حقيقته العلمية من أعسر الأمور ، وكثيرا ما كان الخفاء من شدة الظهور ، وأقرب ما نعرفه به للجمهور أن نقول : هو اشتعال يحدث في أجسام لطيفة منبثة في الهواء وفي الأجسام الكثيفة التي تستوقد بها النار . والنور قسمان : حسي صوري وهو مايدرك بالبصر . ومعنوي عقلي أو روحي وهو مايدرك بالبصيرة ، وقد أطلقت كلمة النور في التنزيل على القرآن ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم في سورتي النساء والمائدة .

وقد اختلف مفسرو السلف في المراد من الظلمات والنور هنا ، فأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس « وجعل الظلمات والنور » قال: الكفر والإيمان . وأخرج هو وغيره عن قتادة أنه قال في الآية « خلق الله السموات قبل الأرض والظلمة قبل النور والجنة قبل النار » الخ ؛ وعن السدي قال : الظلمات ظلمة الليل ، والنور نور النهار . وعن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في الزنادقة ، قالوا : إن الله لم يخلق الظلمة ولا الخنافس ولا العقارب ولا شيئا قبيحا ، وإنما خلق النور وكل شيء حسن ، فأنزل الله فيهم هذه الآية ، وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا أن قوله تعالى « خلق السموات والأرض » رد على الزنادقة

المنكرين لوجود الله تعالى، وقوله «وجعل الظلمات والنور» رد على المجوس الذين زعموا أن الظلمة والنور هما المدبران ـ وقوله «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» رد على مشركى العرب ومن دعا دون الله إلها . فالمراد بالظلمات هنا الظلمات الحسية وبالنور النور الحسى ، وبعضهم قال بما يقابل ذلك ، وفى القول الأول رد على المجوس أو الثنوية الذين زعموا أن للعالم ربين أحدهما النور وهو الخالق للخير والثانى الظلمة ، وهو خالق الشر . ويجوز الجمع بين إرادة الحسى والمعنوى من كل من اللفظين . وقال الواحدى : الأولى حمل اللفظين عليهما ، واستشكله الرازى لأنه مبنى على القول بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، والمختار عندنا جوازه وجواز استعمال المشترك فى معنييه أو معانيه إذا احتمل المقام ذلك بلا التباس كما هنا ، والتعبير بالجعل دون الخلق يلائم هذا، فان الجعل يشمل الخلق والأمر ـ أى الشرع ـ كما تقدم، فيفسر جعل كل نور بما يليق به ، فجعل الدين شرعه والقرآن إنزاله والرسول إرساله والعلم والهدى تهيئة أسبابهما ، وقدم ذكر خلق السموات على خلق الأرض لأنه أعظم وأشرف، وقيل: لأنها خلقت قبل الأرض كما ذكر عن قتادة آنفا، والأول أظهر وفى الثانى خلاف معروف .

وقد افتتح الله الخلق بالحمد ، وختم بالحمد ، فقال تعالى «وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين» ، وقال أهل المعانى : لفظ الحمد لله خبر ومعناه الأمر، أى احمدوا الله، وإنما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر لأنه أبلغ فى البيان من حيث أنه جمع الأمرين ، ولو قيل «احمدوا الله» لم يجمع الأمرين ، فكان قوله «الحمد لله» أبلغ ، وإنما خص السموات والأرض بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات، لأن السماء بغير عمد ترونها فيها العبر والمنافع ، والأرض مسكن الخلائق ، وفيها أيضا العبر والمنافع . وجمع السموات دون الأرض وهى مثلهن، لأن طبقاتها مختلفة الذات متفاوتة الآثار والحركات بالكواكب فى سيرها وحركاتها فى السرعة والبطء ، واستتار بعضها ببعض عند الخسوف وغيره وغير ذلك ، وقدمها لشرفها قدرا وعظما ، وإن كانت الأرض أشرف من حيث أنها مسكن الأنبياء. «وجعل» أى خلق «الظلمات والنور» أى كل ظلمة ونور ، وجمعها دونه لكثرة

أسبابها ولكثرة الأجرام النيرة الحاملة لها ، إذ ما من جرم إلا وله ظل وظلمة بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار ، وقيل : المراد بالظلمة الضلال وبالنور الهدى، والهدى واحد ، وقوله تعالى « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» عطف على قوله (خلق) أى أنه تعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم الذين كفروا يعدلون بربهم الأوثان أى يسوونها به فى العبادة ، وعلى هـذا فيعدلون من العدل وهو التسوية ، أو الجملة معطوفة على قوله « الحمد لله » على معنى : إن الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيكفرون نعمته؛ وعلى هذا فيعدلون من العدول ؛ ومعنى (ثم) استبعاد عدولهم بعد وضوح آيات قدرته « هو الذى خلقكم من طين » أى ابتدأ خلقكم منه ، فإنه المادة الأولى ، وإن آدم الذى هو أصل البشر خلق منه . . أو خلق أباكم ؛ لحذف المضاف .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه : خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، من تراب وجعله طينا ، ثم تركه حتى كان حمأ مسنوناً ، ثم خلقه وصوره وتركه حتى كان صلصالا كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه « ثم قضى أجلا » أى أجلا لكم تموتون عند انتهائه « وأجل مسمى » أى مضروب « عنده » أى وهو أجل القيامة ، وقال الحسن : الأول بين وقت الولادة إلى وقت الموت ، والثانى من وقت الموت إلى البعث؛ فإن كان الرجل براً تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر، وذلك قوله تعالى « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب » وقيل: الأول لمن مضى والثانى لمن بقى ولمن يأتى « ثم أنتم » أيها الكفار « تمترون » أى تشكون فى البعث بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم ، ومن قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر ، ومعنى (ثم) استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه يحييهم ويميتهم ، وأنه باعثهم يوم الدين « وهو الله » الضمير لله والله خبر « فى السموت وفى الأرض » متعلق بمعنى اسم الله كأنه قيل : هو مستحق العبادة فيهما ، ومنه قوله تعالى : وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله . وهو المعروف بالألوهية فيهما وهو الله « يعلم سركم » أى ما تسرون

« وجهركم » أى ما تجهرون به بينكم فى السموات والأرض ، وقيل معناه : وهو إله السموات والأرض، كقوله « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » ، « ويعلم ما تكسبون » أى ما تعملون من خير أو شر فيثيب عليه ويعاقب، والمراد بالسر ما يخفى، وبالجهر ما يظهر من أحوال الأنفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح، أو أن المراد المكتسب ، فهو كما يقال : هذا المال كسب فلان أى مكتسبه ، فلا يحمل على نفس الكسب .

٤ — وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ .

٥ — فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

٦ — أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ .

٧ — وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

٨ — وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ .

٩ — وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ .

١٠ — وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

١١– قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

١٢– قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

فى هذه الآيات التسع يتحدث القرآن الكريم عن المشركين وصنيعهم مع الرسول الأعظم ، وكيف يقابلون آيات الله بالإعراض والصدود ، ويأتيهم الحق فيكذبونه ، ويتوعدهم الله بأنهم سوف يأتيهم أنباء تكذيبهم وعاقبة استهزائهم ، ولو كانوا قد تفكروا فى مصائر الأمم الماضية لاعتبروا وأنابوا ورجعوا إلى الله ، على أن هؤلاء المشركين لو كان ينزل على محمد رسالة من الله فى صحيفة تطالبهم بالإيمان لقال الكافرون : ما هذا إلا سحر ، وما ذلك إلا ساحر مبين ، ويقترحون آيات أخرى فيقولون : لولا أنزل عليهم ملك ، ويرد عليهم القرآن فى ذلك ردا قويا مقنعا . ويذكر الله عز وجل كيف استهزأت الأمم السابقة بالرسل فأهلكهم الله بعذاب شديد . ويطلب الله إليهم أن يسيروا فى الأرض ليروا مصارع هذه الأمم وبقايا ديارهم ؛ إن الكون كله ملك لله ، والله عز وجل هو الذى سيجمع الناس إلى الحساب فى الآخرة ، وسيرى الكافرون ما كانوا به يستهزئون .

« وما تأتيهم » أى الكفار « من آية من آيات ربهم » (من) الأولى زائدة للاستغراق والثانية للتبعيض ، أى ما يظهر لكم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن « إلا كانوا عنها معرضين » أى تاركين لها وبها مكذبين « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم » أى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أتى به من المعجزات « فسوف يأتيهم أنباء » أى عواقب « ما كانوا به يستهزءون » بنزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة أو عند ظهور الإسلام وارتفاع أمره .

وقال الرازى فى تفسير الآية : اعلم أن الله تعالى رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب : فالمرتبة الأولى كونهم معرضين عن التأمل فى الدلائل والتفكر فى البينات ، والمرتبة الثانية : كونهم مكذبين بها . وهذه المرتبة أزيد مما قبلها لأن المعرض عن الشىء قد لايكون مكذبا به ، بل يكون غافلا عنه غير متعرض له ، فإذا صار مكذبا به فقد زاد على الإعراض ، والمرتبة الثالثة : كونهم مستهزئين بها ، لأن المكذب بالشىء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء ، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى فى الإنكار ، فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب.

« ألم يروا » أى فى أسفارهم إلى الشام وغيرها « كم » خبرية بمعنى كثيراً « أهلكنا من قبلهم من قرن » أى أمة من الأمم الماضية ، وعلى هذا : القرن الجماعة من الناس وجمعه قرون . وقيل : القرن مدة من الزمان قيل إنها عشرة أعوام ، وقيل عشرون ، وقيل ثلاثون ، وقيل أربعون ، وقيل خمسون ، وقيل ستون ، وقيل سبعون ، وقيل ثمانون ، وقيل تسعون ، وقيل مائة ، لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بشر المازنى : تعيش قرناً ، فعاش مائة سنة ، وقيل : مائة وعشرون فيكون معناه على هذه الأقاويل من أهل قرن «مكناهم فى الأرض» أى جعلنا لهم فيها مكانا بالقوة والسعة وقررناهم فيها « مالم نمكن لكم » أى مالم نجعل لكم من السعة والقوة ، وفيه التفات عن الغيبة ، والمعنى : لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عادا وثمود وغيرهم من البسطة فى الأجسام والسعة فى الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا « وأرسلنا السماء » هى المطر «عليهم مدرارا » أى متتابعا « وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم » أى تحت مساكنهم « فأهلكناهم بذنوبهم » أى بسبب ذنوبهم بتكذيب الأنبياء ، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً « وأنشأنا » أى أحدثنا « من بعدهم قرنا آخرين » بدلا عنهم ، وفائدة ذكر : أنشأنا قرنا آخرين بعدهم - أنه ذكر للدلالة على أنه تعالى لا يتعاظمه شىء أن يهلك قرنا ويخرب بلادهم ، فإذا كان قادرا على أن ينشىء مكانهم آخرين يعمر بهم الأرض ؛ فهو قادر على أن يفعل ذلك بكم ، ونزل لما قال النضر بن الحارث وعبد بن أبى أمية ونوفل

ابن خويلد : يا محمد ، لن نؤمن بك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله «ولو نزلنا عليك كتابا» أى مكتوبا «فى قرطاس» ، أى صحيفة كما اقترحوه «فلمسوه بأيديهم» ، أبلغ من حيث عاينوه لأنه أنفى للشك «لقال الذين كفروا إن» ، أى ما «هذا إلا سحر مبين» ، أى تعنتا وعنادا كما قالوا فى انشقاق القمر «وقالوا لولا» ، أى هلا «أنزل عليه» ، أى محمد صلى الله عليه وسلم «ملك» ، يكلمنا أنه نبى ، كقوله تعالى «لو لا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً» ، «ولو أنزلنا ملكا» ، بحيث عاينوه كما اقترحوا فلم يؤمنوا «لقضى الأمر» ، أى لحق إهلاكهم ؛ فإن سنة الله تعالى جرت فيمن قبلهم أنهم إذا جاءهم مقترحهم فلم يؤمنوا يهلكهم «ثم لا ينظرون» ، أى لا يمهلون لتوبة أو معذرة «ولو جعلناه» ، أى المنزل إليهم «ملكا لجعلناه» ، أى الملك «رجلا» ، أى على صورته ليتمكنوا من رؤيته ، إذ لا قوة للبشر على رؤية الملك فى صورته ، وإنما أراه كذلك لأفراد من الأنبياء لقوتهم القدسية ، وقوله تعالى : «وللبسنا عليهم ما يلبسون» ، جواب محذوف ، أى ولو أنزلناه وجعلناه رجلا للبسنا أى لخلطنا عليهم بجعلنا إياه رجلا .

والمعنى : لو جعل الرسول ملـكا لجعل الملك متمثلا فى صورة بشر ، لتمـكينهم من رؤيته وسماع كلامه الذى يبلغه عن الله تعالى، ولو جعله ملكا فى صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر ، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى تمثل بها ، وحينئذ يقعون فى نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً ، ولا ينفكون يقترحون جعله ملـكا ، وقد كانوا فى غنى عن هذا ، وإنما شأنهم فيه شأن أكثر الناس حتى العلماء منهم فيما يوقعون فيه أنفسهم من المشكلات بسوء اختيارهم ، وما يخترعونه من الشبهات بسوء فهمهم ، ثم يحارون فى أمر المخرج منها . ومادة (ل ب س) تدل على الستر والتغطية : يقال: لبس الثوب يلبسه ، وهو من الستر الحسى . ويقال : لبس الحق بالباطل يلبسه بمعنى ستره به ، أى جعله مكانه ليظن أنه الحق ، ولبست عليه أمره أى جعلته بحيث يلتبس عليه فلا يعرفه ـ وهذا كله من

الستر المعنوى . وقد علل جمهور المفسرين جعل الملك بصورة البشر فى هذه الحالة بأن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة فى صورتهم الأصلية ، وتقدم فى تفسير الآية السابقة قول من علل بذلك قضاء الأمر بهلاكهم بمجرد نزول الملك ، واستدلوا على ذلك بتمثل الملائكة لإبراهيم ولوط بصورة الناس وتمثل جبريل لمريم بشرا سويا ، وظهوره للنبى بصورة دحية الكلبى غالباً وبصورة غيره أحيانا ، كما فى حديث الإيمان والإسلام وغيره ، وذكر بعضهم من خصائص النبى أنه رآه فى صورته الأصلية مرتين فقط . وقد نازع آخرون فى عد هذا خصوصية له، إذ لا يثبت ذلك إلا بنص ، ولا نص فى المسألة وإنما ورد من حديث ابن مسعود عند الإمام أحمد ، وحديث عائشة عند الترمذى « أنه لم يره فى صورته التى خلقه الله عليها إلا مرتين » ، وقد ورد أن من رأى الملائكة فى غير صورة البشر كرؤية أسيد بن حضير لهم فى مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، كما رواه الشيخان عنه ، ولكن هذا تمثيل أيضاً .

وقد بين تعالى هنا شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحى وبعثة الرسول ، وروى عن ابن المنذر وابن حاتم عن محمد بن إسحاق ما قد يعد سبباً لنزول هذه الآية ، قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلدة وعبدة بن عبد يغوث وأبى بن خلف بن وهب والعاص بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويُرى معك — فأنزل الله فى ذلك من قولهم « وقالوا لولا أنزل عليه ملك » ، وقد جاء ذلك فى سورة هود والبقرة والإسراء ، وهى كلها نزلت قبل الأنعام ، والأنعام نزلت جملة واحدة . فما فيها من الرد عليهم فى هذه المسألة إنما هو رد على شبهة سبقت لهم وحكيت عنهم ، وكذلك اقتراح إنزال كتاب من السماء وإنزال القرآن جملة واحدة فهو فى الفرقان .

وقوله تعالى « ولقد استهزىء برسل من قبلك » فيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم على ما يرى من قومه « فحاق » ، قال الربيع بن أنس : فنزل وقال

عطاء : لحل ، وقال الضحاك : فأحاط « بالذين سخروا منهم » أى من أولئك الرسل « ما كانوا به يستهزئون » وهو العذاب ، فكذا يحيق بمن استهزأ بك « قل » لهم « سيروا فى الأرض » أى للاعتبار فيها ولا تغتروا بإمهالكم وتمكنكم « ثم انظروا كيف كان عاقبة » أى آخر أمر « المكذبين » الرسل من هلاكهم بالعذاب ، فإنكم إذا شاهدتم تلك الآثار كمل لكم الاعتبار « قل » لهم « لمن مافى السموات والأرض » خلقا وملكا وهو سؤال تبكيت « قل لله » إن لم يقولوه لأنه المتعين للجواب بالاتفاق ، إذ لا يمكنهم أن يذكروا غيره « كتب » أى قضى « على نفسه الرحمة » تفضلا منه وإحسانا ، فالرحمة تعم الدارين . ومن ذلك الهداية إلى معرفته والعلم بتوحيده بنصب الأدلة وإنزال الكتب والإمهال على الكفرة والعصاة والمذنبين . ولو شاء سلط عليهم المحن والشدائد . روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده فوق عرشه : ألا إن رحمتى غلبت غضبى ، وفى رواية : سبقت غضبى ، وفى رواية : إن لله مائة رحمة . واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام ، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : قدم على سبى فإذا امرأة من السبى قد غلب ثديها إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته وألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على أن لا تطرحه . فقلنا : لا والله يا رسول الله . فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها . وقوله تعالى « ليجمعنكم » أى والله ليجمعنكم « إلى يوم القيامة » أى فى يوم القيامة . و(إلى) بمعنى (فى) أو ليجمعنكم فى القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم وقيل : بدل من الرحمة بدل البعض . فإن من رحمته بعثه إياكم وإنعامه عليكم « لا ريب » أى لا شك « فيه » اليوم أو الجمع « الذين خسروا أنفسهم » فى موضع نصب على الذم أو رفع على الخبر ، أى وأنتم الذين خسروا أنفسهم بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الإنسانية « فهم لا يؤمنون » وذكر الفاء تدل على أن عدم إيمانهم مسبب عن خسرانهم مع

أن الأمر على العكس ، والجواب أن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك فى التقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان

° ° °

وهذه هى نهاية الربع الثالث من هذا الجزء ، هذا الربع الذى يشمل جزءا من سورة المائدة ، وجزءا آخر من أول سورة الأنعام ؛ والجزء الذى ختمت به سورة المائدة كان حديثا عن عيسى والآيات التى ظهرت على يديه ، وطلب الحواريين منه نزول مائدة عليه من السماء ، وشهادة عيسى على أمته يوم القيامة، وتفويضه الأمر فيهم إلى الله عز وجل وإلى حكمته وقدرته فى الآخرة حيث لا ينفع الناس إلا صدقهم وعملهم الصالح .

أما الجزء الواقع فى مطلع سورة الأنعام فأفكاره العامة هى :

١ — تمجيد الله الذى خلق السموات والأرض ، والذى خلق الظلمات والنور ، ومع هاتين الآيتين العظيمتين فإن الكافرين يعدلون عن عبادة الله إلى عبادة غيره من الرسل كعيسى أو إلى عبادة الأوثان أو سواها .

٢ — التنويه بعظمة خلق الله للبشر من طين ، وبآجال البشر فى الدنيا ، والأجل الذى حدده الله للبعث والنشور .

٣ — التنويه بعظمة الله الذى هو ملء السموات والأرض ، وآثار قدرته فيهما ، والذى يعلم السر والجهر ، ويعلم ما يعمل الناس من عمل ويحاسبهم عليه .

٤ — التحدث عن تعنت المشركين مع الرسول واقتراحهم عليه الآيات ، ومن جدلهم للرسول واستهزائهم بدعوته ، وتركهم التفكير فى مصائر الأمم السابقة .

٥ — تقرير أن ملك السموات والأرض لله ، وأنه القادر على أن يجمعهم يوم القيامة الذى لا شك فيه ، ولكن الدين خسروا أنفسهم لا يؤمنون به ولا يؤمنون بقدرة الله عليه ، ولا يؤمنون بالله خالق كل شىء .. إن قضية

الإيمان هي قضية الإنسانية المهذبة ، والذين لا يؤمنون قد خسروا أنفسهم ، وضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

الربع الرابع

١٣ — وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

١٤ — قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .

١٥ — قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

١٦ — مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ .

هذه الآيات الأربع هي أول الربع الرابع من سورة الأنعام ، هذه السورة التي نزلت في مكة ، وخوطب بها المشركون ، حيث دعاهم الله عز وجل فيها إلى التوحيد والدخول في الإسلام والإيمان بالبعث ، وطلب منهم ترك اقتراح الآيات ، والانصراف عن الجدل والعناد ..

وفي هذه الآيات الأربع رد على المشركين الذين دعوا الرسول إلى الرجوع إلى الشرك وإلى دين قومه ، وفي الآية الأولى تصوير جليل لقدرة الله عز وجل ، وفي الآية الثانية رد على المشركين الذين دعو الرسول إلى دينهم ، وإنكار عليهم وتقرير أن الله خالق السموات والأرض ، فكيف يترك عبادته إلى عبادة الأوثان والأصنام ، وأن الله غني عن خلقه ، والخلق محتاجون إليه ، وتقرير أن الرسول هو أول المسلمين وهو حامل لواء الدعوة إلى الإسلام فكيف يترك الدعوة إليه وينحرف إلى دين قومه ، وفي الآية الثانية تقرير لخوف الرسول من عذاب الله إن عصاه ، فكيف به إن أشرك به ، والذي ينجو من عذاب الله في الآخرة ، فقد فاز فوزا مبينا .

قوله تعالى « وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم » قيل : إن

هذا عطف على ما قبله ، أى لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار ؛ واستظهر أبو حيان أنه استئناف إخبار غير مندرج تحت السؤال والجواب .

وقوله تعالى « وله ما سكن » أى حل « فى الليل والنهار » ، عطف على (لله) أى له كل شىء من حيوان وغيره لأنه خالقه ومالكه ، وقيل: له ما سكن فيهما أو تحرك ، واكتفى بأحد الضدين عن الآخر « وهو السميع » أى لكل ما يقال « العليم » أى بكل ما يفعل فلا يخفى عليه شىء : سبحانه وتعالى ، ونزل لما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دين آبائه « قل » لهم « أغير الله أتخذ وليا » ربا معبودا وناصرا ومعينا ، وهو استفهام ومعناه الإنكار . أى لا أتخذ غير الله وليا « فاطر السموات والأرض » أى خالقهما ابتداعا من غير سبق ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ماعرفت معنى الفاطر حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : إنى فطرتها أى ابتدأتها « وهو يطعم » أى يرزق « ولا يطعم » أى ولا يرزق ، وصف سبحانه وتعالى ذاته بالغنى عن الخلق باحتياجهم إليه ، لأن من كان من صفته أن يطعم الخلق لاحتياجهم إليه وهو لا يطعم لاستغنائه عنهم وجب أن يتخذ ربا وناصرا ووليا « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم » لله من هذه الأمة ، لأن النبى سابق أمته فى الدين ، والدين وضع إلهى سابق لذوى العقول بسبب اختيارهم المحمود إلى ماهو خير بالذات « ولا تكونن من المشركين » أى وقيل لى يا محمد لا تكونن من المشركين . أى فى عدادهم باتباعهم فى شىء من أغراضهم ، وهذا التأكيد لقطع أطماعهم عنه صلى الله عليه وسلم فى سؤالهم : أن يكون على دين آبائه وقوله تعالى « قل إنى أخاف إن عصيت ربى » بعبادة غيره « عذاب يوم عظيم » مبالغة أخرى فى قطع أطماعهم وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب ، وقوله تعالى « من يصرف عنه يومئذ » أى يوم القيامة « فقد رحمه » ربه تعالى ؛ أى أراد به الخير ، « وذلك » أى الصرف أو الرحمة « الفوز المبين » أى النجاة الظاهرة .

١٧ — وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

١٨ — وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ .

١٩ — قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ .

٢٠ — ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

٢١ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ .

٢٢ — وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .

٢٣ — ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

٢٤ — ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ .

هـذه الآيات الثمان الكريمة تتمم معنى الآيات السابقة الأربع ، وهى فى معناها وموضوعها ، والخطاب فى الآية الأولى للرسول العظيم . صلوات الله

وسلامه عليه ، ومعنى الآية الأولى أن الله عز وجل إذا أصاب عبده بسوء فلا يكشفه أحد إلاهو ، وإذا أصاب عبده بخير فهو القادر على كل شيء ،والخطاب هنا وإن كان للرسول إلا أنه فى المعنى عام يشمل كل مخلوق وإنسان ، والآية الثانية ترشد إلى قوة الله وقدرته البالغة ، وأنه قادر على تنفيذ مشيئته ولو بالقهر والغلبة ، ومع ذلك فهو الحكيم فى كل شيء ، الخبير بكل شيء . والآية الثالثة إرشاد للرسول فى محاجة المشركين ، وتعليم له أن يطلب شهادة الله بينه وبين قومه ، وشهادة الله عز وجل ، واضحة فى الكتاب الكريم والذكر الحكيم ، الذى أوحى إلى رسول الله لينذر قومه به ولينذر الناس عامة ، وفى هذه الآية تسجيل على قومه بالشرك ، وتبرؤ من الرسول وإباء منه للشرك ودعوته ، وبلاغ للمشركين بأن دين محمد هو دين التوحيد الخالص ، والحنيفية البيضاء . . ومعنى الآية الرابعة أن هناك شهادة أخرى تضاف إلى شهادة الله عز وجل للرسول بالصدق والرسالة ، وهى شهادة أهل الكتاب ، الذين يعرفون فى قرارة أنفسهم أن محمدا رسول من عند الله ، جهروا بذلك أو أخفوه ؛ ولكن المشركين لايؤمنون بما شهد الله عز وجل به وبما شهد أهل الكتاب به أيضا ، لأنهم خسروا أنفسهم وضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . .
ومعنى الآية الخامسة أن المشركين قد افتروا على الله الكذب بنسبة الشريك إليه ، وأنه ليس هناك أحد أكثر ظلما وافتراء على الحقيقة والحق ممن يفترى على الله الكذب ، أو يكذب بآياته ، ويعارض رسالاته ورسله ، والظالمون لايفلحون أبدا ، ولا يفوزون برضاء الله أبدا . وهم الخاسرون فى الدنيا والآخرة . . أما الآية السادسة ، فهى بيان لفضيحة المشركين وخزيهم وذلهم فى الآخرة حينما يصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ثم يقول الله عز وجل : هاتوا آلهتكم وشركاءكم الذين زعمتموهم آلهة لكم من دون الله لينقذوكم من هذا العذاب ، فلا يحيرون جوابا ، ولا يستطيعون نداء ، ولا يجدون لهؤلاء الشركاء المزعومين أثرا . والآية السابقة ترشد إلى أن المشركين عندما يسقط فى أيديهم فى الآخرة ينفون عن أنفسهم الشرك ، ويحلفون

بالله : ما كنا مشركين . . والآية الثامنة تسجل عليهم هذا الكذب ، كذبهم على الله وعلى أنفسهم ، وعلى الحقيقة ، وغاب عنهم افتراؤهم على الله ، وكذبهم عليه بنسبة الشريك إليه ، أو غاب عنهم مفترياتهم من الشريك والشرك .

وقوله تعالى « وإن يمسسك الله بضر » أى ببلاء كمرض وفقر ، والضر : اسم جامع لما ينال الإنسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو فى معناه « فلا كاشف » أى لارافع « له إلا هو » أى لا غيره « وإن يمسسك بخير » أى بصحة وغنى ، والخير : اسم جامع لكل ما ينال الإنسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك ، « فهو على كل شىء قدير » من الخير والضر .

وهذه الآية وإن كانت خطابا للرسول صلوات الله عليه فهى عامة لكل أحد ، فالمعنى : إن يمسسك الله بضر أيها الإنسان فلا كاشف لذلك الضر إلا هو ، وإن يمسسك بخير أيها الإنسان فهو على كل شىء قدير من رفع الضر وإيصال الخير ، وعن ابن عباس قال : أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له عامل كسرى فركبها ثم أردفنى خلفه فسار بى ميلا ، ثم التفت إلى فقال لى : يا غلام ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ، ولن يغلب عسر يسرين ؛ وفى رواية : فقد مضى القلم بما هو كائن ، فلو جهد الخلق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه « وهو القاهر » أى القادر الذى لا يعجزه شىء « فوق عباده » فهم مقهورون تحت قدرته ، وكل من قهر شيئا فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة « وهو الحكيم » فى خلقه « الخبير » ببواطنهم كظواهرهم ، وفسر ابن جرير الآية بقوله :

والله الغالب عباده المذللهم العالى عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم ؛ فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه ، وهو الحكيم فى علوه على عباده وقهره إياهم ، بقدرته وسائر تدبيره ، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها ، الذى لا تخفى عليه عواقب الأمور وبواديها ، ولا يقع فى تدبيره خلل ، ولا يدخل حكمته دخل .

وذهبت المعتزلة والأشاعرة إلى أن قوله تعالى « فوق عباده » تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقهر ، صرح بذلك الزمخشرى وتبعه بعض الأشاعرة ، كالبيضاوى بنقل عبارته بنصها ، وبعضهم كالرازى ، بنقلها وإطالة الدلائل النظرية بإثبات مضمونها ، ومنع إرادة فوقية الذات وإطلاق صفة العلو على الله ، إذ جعل ذلك قولا بتحيز البارى فى جهة معينة وأطال فى سر الدلائل النظرية على استحالة ذلك ، ولفظ الآية لا يأبى مافسره به الزمخشرى وأمثاله ، لأن له نظيراً ذكروه فى تفسيرها ، وهو قوله تعالى حكاية عن فرعون « وإنا فوقهم قاهرون » ، والمراد بالفوقية المعنوية لا المكانية ، فسلف الأمة يمرون بهذه الآيات من غير تأويل ، ويقولون : إن الله مستو على عرشه فوق السموات وفوق العالم كله لا فوق كل شخص وحده ، وهو بهذا بائن من خلقه ، وإنه مع ذلك ليس كمثله شىء ، فليس بمحدود ولا محصور ولا متحيز ؛ فهذه اللوازم التى يبنى عليها الجهمية وتلاميذهم تأويل صفة العلو مبنية كلها على قياس الخالق على المخلوق ، ومن المعلوم أن جميع ما أطلق على الله تعالى من الصفات حتى العلم والقدرة والإرادة ، فإنما وضع فى أصل اللغة لصفات البشر وهى مباينة لصفات الله تعالى ، فلماذا يخصون بعضها بالتأويل دون بعض ؟ فالحق الذى مضى عليه سلف الأمة أن الله تعالى وصف بكل ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن جميع تلك الصفات تطلق عليه مع تنزيه عن مشابهة من تطلق عليهم ألفاظها من الخلق ؛ فعلم الله وقدرته وكلامه وعلوه وسائر صفاته شؤون تليق به لا تشبه علم المخلوقين وقدرتهم وكلامهم وعلو بعضهم على بعض .

ونزل لما قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : يا محمد لقد سألنا عنك اليهود

والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا ما يشهد لك «قل» يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك «أى شيء» بيني وبينكم «أكبر شهادة قل الله» أكبر شهادة إن لم يقولوه إذ لا جواب غيره ، ثم ابتدأ الكلام فقال : «شهيد بيني وبينكم» أى هو شهيد بيني وبينكم ، ويحتمل أن يكون (الله شهيد) هو الجواب لأنه تعالى إذا كان هو الشهيد كان أكبر شيء شهادة «وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم» يا أهل مكة «به» أى بالقرآن واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة ، وقوله تعالى «ومن بلغ» عطف على ضمير المخاطبين وهو الكاف ، أى لأنذركم به يا أهل مكة ومن بلغه من الإنس والجن إلى يوم القيامة ، وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم وأنه لا يؤخذ بها من لم يبلغه ، قال محمد بن كعب القرظى : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم . وقال أنس بن مالك : لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله تعالى ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، وفى رواية : نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، وفى رواية : رب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، وقال مقاتل : من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له .

وقوله تعالى «أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى» استفهام إنكارى أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيرى : إنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى وهى الأصنام التى كانوا يعبدونها «قل» لهم «لا أشهد» بما يشهدون به أن مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره «قل إنما هو إله واحد» لاشريك له وبذلك أشهد «وإنني برىء مما تشركون» معه من الأصنام - وفى الآية دليل على إثبات التوحيد ونفى التشريك لأن كلمة (إنما) تفيد الحصر ؛ فثبت بذلك إيجاب التوحيد والتبرى

من كل معبود سوى الله تعالى «الذين آتيناهم الكتاب» أى التوراة والإنجيل وهم علماء اليهود والنصارى «يعرفونه» أى محمداً صلى الله عليه وسلم بنعته «كما يعرفون أبناءهم» أى الذين هم من أصلابهم؛ روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال عمر رضى الله تعالى عنه: إن الله تعالى أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمكة هذه الآية فكيف هذا؟ فقال عبد الله بن سلام: قد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى، ولأنا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم من ابنى، فقال عمر: كيف ذلك؟ فقال: أشهد أنه رسول الله حقا ولا ندرى ماتصنع النساء «الذين خسروا أنفسهم» من أهل الكتاب والمشركين «فهم لا يؤمنون» لما سبق لهم من القضاء بالشقاء «ومن» أى لا أحد «أظلم ممن افترى على الله كذبا» كقولهم الملائكة بنات الله واتخذ الله ولدا «أو كذب بآياته» الآتى بها الرسل كالقرآن من المعجزات «إنه» أى الشأن «لا يفلح الظالمون» أى لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون عليه الباطل «و» اذكر «يوم نحشرهم جميعا» أى أهل الكتاب والمشركين وغيرهم ومعبوداتهم وهو يوم القيامة «ثم نقول» توبيخا «للذين أشركوا» أى سموا شيئا من دوننا إلها وعبدوه من الأصنام، أو عزيرا أو المسيح، أو الظلمة أو النور، أو غير ذلك «أين شركاؤكم» أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله، وأضافها إلى ضميرهم لتسميتهم لها بذلك، وقوله تعالى «الذين كنتم تزعمون» معناه كنتم تزعمونهم شركاء وأنها تشفع لكم عند الله «ثم لم تكن فتنتهم» أى معذرتهم «إلا أن قالوا» أى قولهم «والله ربنا ما كنا مشركين» فيختم على أفواههم وتشهد جوارحهم عليهم بالشرك «أنظر» يامحمد «كيف كذبوا على أنفسهم» باعتذارهم الباطل، أو بتبريهم من الأصنام والشرك الذى كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه فى دار الدنيا، وذلك لا ينفعهم «وضل» أى غاب «عنهم ما كانوا يفترون» أى يكذبون وهو قولهم: إن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم، فبطل ذلك كله فى ذلك اليوم، وصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور، وعلى أن التكذيب والجحود لا وجه للمنفعة

فيهما ، لأن الممتحن ينطق بما ينفعه ، وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشة ، ألا ترى أنهم يقولون : ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، وقد أيقنوا الخلود ولم يشكوا فيه ، وقالوا : ليقض علينا ربك وقد علموا أنه لا يقضى عليهم .

٢٥ — وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

٢٦ — وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .

٢٧ — وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

٢٨ — بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ .

٢٩ — وَقَالُوٓا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

٣٠ — وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

٣١ — قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ

أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ .

٣٢ — وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

ثمان آيات كريمة جليلة ، تتمم معنى الآيات السابقة ، والحديث فيها عن المشركين أيضاً وصدودهم عن الهدى ، وعدم استجابتهم لداعى الله عز وجل وهو القرآن الكريم وكأن على قلوبهم غطاء ، وفى آذانهم وقرا ، فهم يشاهدون الآيات تترى ولا يؤمنون بها ، ويقولون عن القرآن الكريم : أساطير الأولين . والآية الثانية تبين نهى المشركين بعضهم لبعض أن يتبعوا الرسول أو يستمعوا للقرآن ، وهم بذلك يتسببون فى حرمان أنفسهم من هدى الله ، وفى هلاكها بسبب بعدهم عن الحق الذى جاء به محمد صلوات الله عليه . . والآية الثالثة تصور حسرتهم فى الآخرة بسبب عنادهم وإبائهم قبول الحق الذى نزل على محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وكيف يتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا من جديد بالرسول ورسالته : والآية الرابعة تكذب المشركين فيما زعموه وتسجل عليهم عنادهم ، وتبين أن نفوسهم مطبوعة على الشرك فلو ردوا إلى الدنيا من جديد لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون حقا ، والآية الخامسة تصور آراءهم فى إنكار البعث والنشور ، والآية السادسة تقرر أنهم فى الآخرة سيعترفون مرغمين بما أنكروه فى الدنيا ، والآية السابعة تقرر خسران الذين يكذبون بلقاء الله وبالبعث ، وندمهم حين تأتيهم الساعة بغتة على ما فرطوا فى حق هذا اليوم المشهود وكيف يحملون أوزارهم على ظهورهم أى يحملون مسئولية شركهم كاملة فى الآخرة . . والآية الثامنة تصور الحياة الدنيا وما فيها من فتن وملاه ومتع ، وإن كانت الآخرة خير للمتقين .

قوله تعالى فى هذه الآيات الكريمة :

« ومنهم من يستمع إليك » حين تتلو القرآن ، روى أنه اجتمع أبو سفيان

والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأحزابهم يستمعون القرآن فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال: والذى جعلها بيته - يعنى الكعبة - ما أدرى ما يقول إلا أنه يحرك لسانه فيقول أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها، فقال أبو سفيان: إنى لأرى بعض ما يقول حقاً، فقال أبو جهل: كلا لا تقر بشىء من هذا، فأنزل الله تعالى: ومنهم من يستمع إليك «وجعلنا على قلوبهم أكنة» أى أغطية «أن» أى كراهة أن «يفقهوه» أى يفهموا القرآن «و» جعلنا «فى آذانهم وقرا» أى صمما فلا يسمعونه سماع قبول، ووجه إسناد الفعل إلى ذاته تعالى، وهو قوله تعالى: «وجعلنا» للدلالة على أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه، أوهى حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم: «وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب»، «وإن يروا كل آية» أى معجزة من المعجزات الدالة على صدقك «لا يؤمنوا بها» لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم «حتى إذا جاءوا يجادلونك» أى بلغ تكذيبهم الآيات أنهم إذا جاءوك يجادلونك ويناكرونك «يقول الذين كفروا إن» أى ما «هذا إلا أساطير» أى أكاذيب «الأولين» أى أحاديثهم من الأمم الماضية وأخبارهم وأقاصيصهم وما سطروا بمعنى كتبوا، والأساطير جمع أسطورة بالضم، قال البخارى عن ابن عباس: هى الترهات «وهم ينهون» الناس «عنه» أى عن اتباع النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن «وينأون» أى يتباعدون «عنه» فلا يؤمنون به، قال محمد بن الحنفية والسدى والضحاك: نزلت فى كفار مكة؛ وقال ابن عباس ومقاتل فى أبى طالب: كان ينهى الناس عن أذى النبى صلى الله عليه وسلم ويمنعهم وينأى عن الإيمان به أى يتعدى، حتى روى أنه اجتمع له رءوس المشركين وقالوا: خذ شابا من أحسن أصحابنا وجها وادفع إلينا محمداً فقال أبو طالب: ما أنصفتمونى، أدفع إليكم ولدى لتقتلوه وأربى ولدكم؟ وروى أنه صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإيمان فقال: لولا أن تعيرنى قريش لأقررت بها عينك، ولكن أذب عنك ما حييت، «وإن» أى ما «يهلكون

إلا أنفسهم ، لأن ضرره عليهم ، وما يشعرون ، أن ضرره لا يتعداهم إلى غيرهم ، وقوله تعالى ، ولو ترى ، يا محمد ، إذ وقفوا ، أى عرضوا ، على النار ، جوابه محذوف ، أى لو تراهم حين يقفون على النار فيعرفون مقدار عذابها لرأيت أمراً شنيعاً ، فقالوا ، أى الكفار ، يا ، للتنبيه ، ليتنا نرد ، أى إلى الدنيا ، ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، تمنوا أن يردوا إلى الدنيا ولا يكذبوا بآيات ربهم ، وقوله تعالى : ، بل بدا لهم ، أى ظهر لهم ، ما كانوا يخفون من قبل ، المعنى : أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم وقبائح أعمالهم فتمنوا ذلك ضجراً لا عزماً ، على أنهم لو ردوا لما آمنوا ، كما قال تعالى ، ولو ردوا ، إلى الدنيا أى لو فرض ذلك بعد الوقوف والظهور ، لعادوا لما نهوا عنه ، من الكفر والمعاصى ، وإنهم لكاذبون ، فى قولهم : لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين. ، وقالوا إن ، أى ما ، هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، كما كانوا يقولون قبل معاينة يوم القيامة ، ويجوز أن يعطف على قوله : ، وإنهم لكاذبون ، على معنى : وإنهم لقوم كاذبون فى كل شىء ، وهم الذين قالوا : إن هى إلا حياتنا ، وكفى به دليلا على كذبهم ، ولو ترى ، يا محمد ، إذ وقفوا ، أى عرضوا ، على ربهم ، لرأيت أمراً عظيما ، قال ، لهم على لسان الملائكة توبيخاً ، أليس هذا ، البعث والحساب ، بالحق ، وقوله تعالى ، قالوا بلى وربنا ، إقرار مؤكد باليمين لظهور الأمر غاية الظهور ، قال فذوقوا العذاب ، أى الذى كنتم به توعدون ، بما كنتم تكفرون ، أى بسبب كفركم وجحودكم البعث ، قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، أى بالبعث واستمر تكذيبهم ، حتى إذا جاءتهم الساعة ، أى القيامة ، بغتة ، أى فجأة ، وسميت القيامة ساعة لأنها تفجأ الناس بغتة فى ساعة لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى ، وقيل : لسرعة الحساب فيها ، لأن حساب الخلائق يوم القيامة يكون فى ساعة واحدة وأقل من ذلك ، قالوا يا حسرتنا ، أى يا ندامتنا ، والحسرة التلهف على الشىء الغائب وشدة التألم ، ونداؤها مجاز ، أى هـذا أوانك فاحضرى ، على ما فرطنا ، أى قصرنا ، فيها ، أى الحياة الدنيا ، وجىء بضميرها وإن لم يجر له

ذكر لكونها معلومة لأنها موضع التفريط فى الأعمال الصالحة ، ويجوز أن يكون للساعة على معنى:قصرنا فى شأنها والإيمان بها ،كما تقول: فرطت فى فلان ومنه فرطت فى جنب الله . وقوله تعالى « وهم يحملون أوزارهم » أى أثقالهم وآثامهم «على ظهورهم» تمثيل لاستحقاقهم عقاب الآثام ، وقال السدى وغيره: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شىء صورة وأطيبه ريحاً فيقول: هل تعرفنى ؟ فيقول : لا ، فيقول : أنا عملك الصالح فاركبنى فقد طال ماركبتك فى الدنيا ؛ فذلك قوله تعالى : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا » أى ركبانا وأما الكافر فيستقبله أقبح شىء صورة وأنتنه ريحاً ، فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : لا ، فيقول : أنا عملك الخبيث طال ماركبتنى فى الدنيا واليوم أركبك فهو معنى قوله تعالى : وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم « ألا ساء » أى بئس « مايزرون » أى ما يحملون حملهم ذلك ، وقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » جواب لقولهم : إن هى إلا حياتنا الدنيا ، أى وما أعمالها إلا لعب ولهو ما يلهى الناس ويشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية ، وقيل : معناه أن أمر الدنيا والعمل فيها لعب ولهو ، فأما فعل الخير والعمل الصالح ، فهو من فعل الآخرة « وللدار الآخرة » أى الجنة ، واللام فيه لام القسم « خير » أى من الدنيا وأفضل ؛ لأن الدنيا سريعة الزوال والانقطاع « للذين يتقون » أى الشرك وقيل : اللهو واللعب « أفلا يعقلون » أى إن الآخرة خير من الدنيا فتعملون لها .

والمعنى : إن هذه الحياة الدنيا التى قال الكفار : إنه لا حياة غيرها ـ وهى ما يتمتعون به من اللذات المقصود عندهم لذاتها ، أو الملهية لهم عن همومها وأكدارها ـ ليست إلا لعباً ولهواً أو كاللعب واللهو فى عدم استتباعها لشىء من الفوائد والمنافع يكون فى حياة بعدها ، أوهى دائرة بين عمل لا يفيد فى العاقبة فهو كلعب الأطفال ، وبين عمل له فائدة عاجلة سلبية ، كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام ، ويوضح هذا قول بعض الحكماء : إن جميع لذات الدنيا سلبية إذ هى إزالة الآلام ـ فلذة الطعام مزيلة لألم الجوع وبقدر هـذا الألم

تعظم اللذة فى إزالته ، ولذة شرب الماء مزيلة لألم العطش كذلك ؛ وفى الآية وجه آخر يصح جمعه مع الأول ، وهو أن متاع هذه الحياة الدنيا الخاص بها متاع قليل ، أجله قصير ، لا يصح أن يغتر به العاقل الراشد ، فهو ليس إلا كلعب الأطفال فى قصر مدته من حيث إن الطفل يسرع إليه الملل من كل لعبة ، أومن حيث إن زمن الطفولة قصير كله غفلة ، أو كلهو المهموم فى قصر مدته ، على كونه غير مطلوب لذاته .

٣٣ — قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ .

٣٤ — وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ .

٣٥ — وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ .

هـذه الآيات الثلاثة فيها تسلية للرسول الكريم ، وعزاء له ، وبعث للطمأنينة فى قلبه ، فى الآية الأولى يقول الله عز وجل لرسوله : إذا ساءك ما يقوله المشركون فى حق الله فاصبر ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن يجحدون آيات الله ويكذبون بها ، وهم الظالمون لا فترائهم على الله وعلى الحقيقة وعلى الإنسانية كافة ..

وفى الآية الثانية يقول الله عز وجل لرسوله صلوات الله عليه : إن الرسل من قبلك قد كذبتهم أممهم فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى جاءهم نصر الله ، وحاقت بهم الهزيمة ، ولا مبدل لإرادة الله . وفى الآية الثالثة . يقول الله عز وجل لرسوله الكريم : إن كان قد كبر عليك إعراضهم

وصدودهم ، فإن أمكنك أن تطلب نفقاً فى الأرض فتهرب فيه ، أو سلما فى السماء فتصعد إليها ، فتأتيهم بآية مما اقترحوا عليك فافعل ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى والإيمان والتوحيد فلا تكونن من الجاهلين .

ويقول ابن كثير فى تفسير الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث ، وهى « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون » أى قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : « لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين - فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ، وقوله «فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » أى لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، أى ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدودهم كما قال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن ناجية بن كعب عن على قال : قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ، وعن أبى يزيد المدنى أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى أبا جهل فصافحه فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابىء ؟ فقال : والله إنى لأعلم إنه لنبى ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعاً ؟ وتلا أبو يزيد « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » وقال قتادة : يعلمون أنك رسول الله ويجحدون ، وذكر محمد بن إسحاق عن الزهرى فى قصة أبى جهل حين جاء يستمع قراءة النبى صلى الله عليه وسلم من الليل هو وأبو سفيان بن حرب والأخنس بن شريق ولا يشعر أحد منهم بالآخر ؛ فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق . فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شبان قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظنا أن صاحبيه لا يجيآن لما سبق من العهود ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا ، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا ؛ فلما أصبح

الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، وأطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه . وعن السدى فى قوله « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ولما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبنى زهرة: يا بنى زهرة إن محمداً ابن أختكم فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته فإنه إن كان نبيا لم تقاتلونه اليوم ؟ وإن كان كاذبا فأنتم أحق من كف عن ابن أخته ، قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم فإن غلب محمد رجعتم سالمين ، وإن غلب محمد فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئا ، فيومئذ سمى الأخنس وكان اسمه أبى" ، فالتقى الأخنس وأبو جهل فخلا الأخنس بأبى جهل فقال : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس ههنا من قريش غيرى وغيرك يستمع كلامنا ؟ فقال أبو جهل : ويحك والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط . ولكن إذا ذهبت بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » فآيات الله محمد و « قد » للتحقيق « نعلم إنه » أى الشأن « ليحزنك الذى يقولون » من التكذيب « فإنهم لا يكذبونك » أى بقلوبهم ولكن يجحدون بألسنتهم ، أو إنهم لايكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » أى يكذبون ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين فعرفوا أنه

لا يكذب فى شيء ولكنهم كانوا يجحدون ، قال السدى : التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام ، فقال الأخنس لأبى جهل : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيرى ، فقال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق، ما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ولكنا نكذب الذى جئت به ، فنزلت . ووضع (الظالمين) موضع الضمير للدلالة على أنهم ظلموا فى جحودهم ، والباء لتضمن الجحود معنى التكذيب .

وقوله تعالى «ولقد كذبت رسل من قبلك» تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا دليل على أن قوله : فإنهم لا يكذبونك ليس نفيا لتكذيبه مطلقا وإنما هو من قولك لغلامك: ما أهانوك ولكنهم أهانونى «فصبروا على ما كذبوا» أى على تكذيبهم لهم «وأوذوا» أى وصبروا على إيذائهم لهم «حتى أتاهم نصرنا» بإهلاك من كذبهم فتأس بهم واصبر حتى يأتيك النصر بإهلاك من كذبك ، وفى ذلك إيماء بوعد النصر للصابرين «ولا مبدل لكلمات الله» أى لمواعيده من قوله تعالى «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين» الآيات «ولقد جاءك من نبأ المرسلين» أى من قصصهم وما كابدوا من قومهم مما يسكن به قلبك «وإن كان كبر» أى عظم وشق «عليك إعراضهم» عنك وعن الإيمان بما جئت به «فإن استطعت أن تبتغى» أى تطلب بجهدك وغاية طاقتك «نفقا» أى منفذا «فى الأرض» تنفذ فيه إلى ما عساك تقدر إلى الانتهاء إليه «أو سلما فى السماء» أى جهة العلو لترتقى فيه إلى ما تقدر عليه «فتأتيهم بآية» أى مما اقترحوه عليك فافعل لتشاهد أنهم لا يزدادون عند إتيانك بها إلا إعراضاً كما أخبرناك ، لأن الله تعالى شاء ضلال بعضهم ، والمقصود بهذا بيان شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم ، وأنه لو قدر أن يتكلف النزول إلى تحت الأرض أو فوق السماء فيأتيهم بما يؤمنون به لفعل «ولو شاء الله» هدايتهم

« لجمعهم على الهدى » أى لوفقهم له ولكن لم يشأ ذلك فلم يؤمنوا والمعتزلة يؤولون « لو شاء الله » بأنه لو شاء لجمعهم على الهدى بأن يأتيهم بآية ملجئة ولكن لم يفعل ، وجرى على هذا الزمخشرى فى كشافه ، والمعنى أن إسناد مشيئة الجمع إلى الله ظاهر فى أنه هو المهدى والمضل ، والمعتزلة لما قالوا إنه لم يفعل هذا بل العبد ، احتاجوا إلى التأويل « فلا تكونن من الجاهلين » أى لا يشتد تحسرك على تكذيبهم ولا تجزع من إعراضهم عنك ، فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم ، وإنما نهاه عن هذه الحالة وغلظ له الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة .

وبذلك ينتهى الربع الرابع من هذا الجزء ، وقد اشتمل على تمجيد الله وبيان قدرته ، وعلى حجاج المشركين الذين يتخذون الأصنام وغيرها آلهة لهم من دون الله ، وعلى تقرير عقيدة التوحيد وتثبيتها فى النفوس ورفع الشك فيها ، وخلاصة ما اشتمل عليه هذا الربع هو :

١ — لله كل ما اشتمل عليه الليل والنهار من موجودات ومخلوقات ، وهو السميع العليم بكل ما كان وما يكون .

٢ — استنكار أن يتخذ العبد المخلوق إلها له غير الله فاطر السموات والأرض ، والرازق الوهاب .

٣ — رد الرسول على المشركين الذين يدعونه إلى الشرك وإلى دين قومه بأن الله عز وجل أمره أن يكون أول من أسلم ولا يكونن من المشركين ، وبأنه يخاف - إن عصى الله - العذاب الشديد فى الآخرة ، هذا العذاب الذى يعد فائزا من أبعد عنه ، وكيف يعبد غير الله ، والله إذا شاء مسه بالضر فلا يستطيع أحد أن يكشف الضر عنه ، وإذا شاء مسه بالخير لأنه هو القادر على كل شىء ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير .

٤ — تقرير شهادة الله والقرآن للرسول بالصدق وبالرسالة ، وأنه مبعوث لإبلاغ الإنسانية كلها لكتاب الله ودعوته وشريعته وعقيدة التوحيد وتنزيه الرسول عن الشرك وعقائد المشركين ..

٥ — الاستشهاد بأهل الكتاب وبما جاء فى كتبهم على صدق الرسول ورسالته ، وعلى أن القرآن منزل من عند الله عز وجل .

٦ — المشركون لايعلمون شيئا عن الحقيقة ، وهم فى الآخرة أشد ضلالا وتنصلا من الشرك .

٧ — كان المشركون يستمعون إلى الرسول وهو يتلو القرآن ومع ذلك لم يزدهم هذا إلا ضلالا وبهتاناً وإثماً وصدودا عن الحق ، وجهلا بآيات الله الدالة على صدق الرسول وعلى رسالته .

٨ — إثبات حيرة المشركين فى الآخرة أمام الله عند البعث والحساب .

٩ — بيان ضلال المشركين بإنكارهم البعث والحساب والرد عليهم فى ذلك .

١٠ — تسلية الرسول على ثبات قومه على عقائدهم الفاسدة ودفاعهم عنها ، وتشبثهم بها جهلا وضلالا ، وحمله على الصبر على تكذيب قومه له ، ومصائر الذين كذبوا رسلهم من الأمم القديمة معروفة لا تخفى على الناس .

١١ — قطع الباب على المشركين فيما اقترحوا على الرسول من آيات ، وبيان أن الله عز وجل فى غنى عن إيمانهم ، وأنه لا يبالى بهم ولن يجيبهم إلى ما اقترحوه من الآيات .

إن هذا الربع الكريم مثل بليغ فى الدفاع عن عقيدة التوحيد ، وفى تفنيد عقائد الشرك والمشركين والرد عليهم ، وفى تقرير البعث والنشور والحساب ، وتجهيل المشركين الذين زعموا أن ليس هناك قيامة ولا بعث ولا حساب . .

وهذا الربع بل السورة كلها تجرى على نمط رفيع فى البيان ، ومذهب جليل فى الحجة ، وهى حافلة بتصوير عقائد المشركين والرد عليهم ، بعكس السور المدنية التى كان الكلام فيها فى حجاج أهل الكتاب ونقاشهم وفى الجدل معهم . . وقوة الحجة وبلاغة الأسلوب ووضوحه وسموه وتدفقه من أخص خصائص السورة المكية ، وصدق الله العظيم . .

الربع الخامس

٣٦ — إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

٣٧ — وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

٣٨ — وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

٣٩ — وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

٤٠ — قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

٤١ — بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ .

ست آيات كريمة هى مطلع الربع الخامس من هذا الجزء الكريم ، وفى صدر هذه الآيات بين الله عز وجل أن التقليد والجمود والشرك قد أحال المشركين إلى حيوانات صماء لا تحب أن تسمع الحق والخير ولا أن تؤمن بهما، وفى الآية الثانية يذكر الله عز وجل طلب المشركين من الرسول أن ينزل عليه آية من ربه ، كأن القرآن فى رأيهم ليس بآية ، أو كأنهم يطلبون الآيات الحسية التى تشبه السحر لا الآيات العقلية التى يخر لها العقل ساجدا لله شاكرا أنعمه على الإنسان . ويرد الله عز وجل على المشركين فى ذلك ردا بليغا ، وقد

لفت الله عز وجل عقول المشركين إلى عظمة آية الخلق فى الإنسان والحيوان، وإلى أن مثل هذه الآية جدير بالتأمل والاعتبار، وجدير بالوعى والاستذكار، وذلك فى الآية الثالثة من هذه الآيات الشريفة .. ثم يتحدث الله عز وجل فى الآية الرابعة عن المكذبين بآيات الله، وأنهم مثل الصم البكم لأنهم فقدوا العقل الذى به يفكرون، وفقدوا نعمة التفكر؛ وفى الآية الخامسة والسادسة يسجل الله عز وجل على المشركين أنهم ومثلهم كل البشر يعرفون الله فى الشدائد ويذكرونه فى المحن، فهم فى إنكارهم لله كاذبون مفترون .

وقد بين لنا تعالى فى الآية السابقة أنه لو شاء لجمع الناس على الهدى ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفطورين على ذلك، ولا أن يلجئهم إليه إلجاء بالآيات القاسرة، بل اقتضت حكمته ومضت سنته فى البشر بأن يكونوا متفاوتين فى الاستعداد، عاملين بالاختيار، فنهم من يختار الهدى على الضلال ومنهم من يستحب العمى على الهدى، ثم بين فى مطلع هذه الآيات أن الأولين هم الذين ينظرون فى الآيات، ويعقلون ما يسمعون من البينات، وأن الآخرين لا يسمعون ولا ينظرون حتى كأنهم من الأموات .

وقوله تعالى : « إنما يستجيب » أى دعاءك إلى الإيمان « الذين يسمعون » سماع تفهم واعتبار كقوله تعالى « أو ألقى السمع وهو شهيد »، وهم المؤمنين الذين فتح الله لهم سماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويتبعونه دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله « والموتى » أى الكفار شبههم بهم فى عدم السماع « يبعثهم الله » فى الآخرة « ثم إليه يرجعون » أى يردون فيجازيهم بأعمالهم « وقالوا » أى رؤساء قريش « لولا » أى هلا « نزل عليه آية » أى مما اقترحوها « من ربه » المحسن إليه كالناقة والعصا والمائدة، أو آية تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل، أو آية إن جحدوها هلكوا « قل » لهم « إن الله قادر على أن ينزل آية » مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى الإيمان، أو آية إن جحدوها هلكوا لا يعجزه شىء « ولكن أكثرهم لا يعلمون » أى ماذا عليهم فى إنزالها من العذاب إن لم يؤمنوا بها ولهم فيما أنزل مندوحة عن غيره »

والآيتان : وما من دابة وما بعدها مؤيدتان لما قبلهما ومتممتان له ، فإنه بين فى الآيات قبلهما أن الظالمين من مشركى مكة جحدوا بآيات الله جحود عناد لاتكذيب ، وضرب لهم مثل الذين كذبوا الرسل من قبل ولم يهتدوا بما أوتوا من الآيات المقترحة لا غيرها - بعد هذا بين فى هاتين الآيتين أنواعاً من آياته تعالى فى أنواع الحيوان، وأن المكذبين بآيات الله لم يهتدوا بها ، بل ظلوا فى ظلمات جهلهم حتى كأنهم لم يروها ولم يسمعوا بها ؛ وذكر الرازى فى وجه النظم ومناسبة الآية الأولى لما قبلها وجهين :

١ - أنه تعالى بين فى الآية الأولى أنه لو كان إنزال سائر المعجزات مصلحة لفعلها ولأظهرها إلا أنه لما يكن إظهارها مصلحة للمكلفين لاجرم ما أظهرها، وهذا الجواب إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى يراعى مصالح المكلفين ، ويتفضل عليهم بذلك ، فبين أن الأمر كذلك وقرره بأن قال : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » فى وصول فضل الله وعنايته ورحمته وإحسانه إليهم ، وذلك كالأمر المشاهد المحسوس، فإذا كانت آثار عنايته واصلة إلى جميع الحيوانات فلو كان فى إظهار هذه المعجزات القاهرة مصلحة للمكلفين لفعلها ولأظهرها ، ولا امتنع أن يبخل بها ، مع ما ظهر أنه لم يبخل على شىء من الحيوانات بمصالحها ومنافعها ، وذلك يدل على أنه تعالى إنما لم يظهر تلك المعجزات لأن إظهارها يخل بمصالح المكلفين ، فهذا هو وجه النظم والمناسبة بين هذه الآية وبين ماقبلها والله أعلم .

٢ - أنه تعالى لما قدم ذكر الكفار وبين أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون، بين أيضاً بعده بقوله « وما من دابة » فى أنهم يحشرون ، والمقصود بيان أن الحشر والبعث كما هو حاصل فى حق الناس فهو أيضاً حاصل فى حق البهائم .

« وما من دابة فى الأرض» أى تدب على وجهها «ولا طائر يطير بجناحيه» فى الهواء وهو بالمد ما بين السماء والأرض وهو المراد هنا ، وإنما قال بجناحيه مع أن الطيران لايكون إلا بهما قطعا لمجاز السرعة ونحوها كما تقول : كتبت بيدى ونظرت بعينى « إلا أمم أمثالكم » أى محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها

وآجالها ، قال العلماء : جميع ماخلق الله لايخرج عن هاتين الحالتين حتى مافى البحر ، لأن سيرها فى الماء إما أن يكون دبيبا أو طيرانا مجازا ، وإنما خص مافى الأرض بالذكر دون مافى السماء وإن كان ما فى السماء مخلوقا له لأن الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لايشاهد ، واختلف العلماء فى وجه هذه المماثلة : فقال مجاهد : أصناف مصنفة تعرف بأسمائها مثل بنى آدم يعرفون بأسمائهم يريد أن كل جنس من الحيوان أمة ، فالطير أمة ، والسباع أمة ، وقال ابن قتيبة : أمم أمثالكم أى فى الغذاء وابتغاء الرزق وتوقى المهالك . . وقال عطاء : أمثالكم فى التوحيد والمعرفة ، وقيل غير ذلك ، والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية « مافرطنا » أى ما تركنا أو ما أغفلنا « فى الكتاب » أى اللوح المحفوظ « من شىء » فلم نكتبه فإنه مشتمل على مايجرى فى العالم من الجليل والدقيق ولم يهمل فيه أمر حيوان . وقيل : المراد بالكتاب القرآن فإنه قد دون فيه مايحتاج إليه من أمر الدين مفصلا ومجملا ، و (من) مزيدة و(شىء) فى موضع المصدر لا المفعول به فإن فرط لايتعدى بنفسه وقد عدى بفى إلى الكتاب « ثم إلى ربهم يحشرون » قال ابن عباس والضحاك : حشرها موتها ، وقال أبو هريرة : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة الدواب والطير وكل شىء ، ثم يقول كونى ترابا ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة .

وقد روى عن ابن عباس فى قوله « ثم إلى ربهم يحشرون » قال : موت البهائم حشرها . وفى لفظ : قال يعنى بالحشر الموت . قال الألوسى : ومراده رضى الله تعالى عنه ـ على ماقيل ـ إن قوله سبحانه « ثم إلى ربهم يحشرون » بجموعه مستعار على سبيل التمثيل للموت كما ورد فى الحديث « من مات فقد قامت قيامته » فلا يرد عليه أن الحشر بعث من مكان إلى آخر ، وتعديته بإلى تنصيص على أنه لم يرد به الموت مع أن الموت أيضا نقلا من الدنيا إلى الآخرة ، وصوب ابن جرير أن المراد الحشران جميعا : حشر الموت وحشر البعث ،

وعلله بأن الحشر فى كلام العرب الجمع وهو يشملهما ولا مرجع لأحدهما من كتاب ولا سنة . هذا محصل قوله ، والصواب أن الحشر جمع وبعث أو كما قال الراغب : إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم إلى الحرب ونحوها ، ففيه معنى الجمع لأنه لا يطلق على الواحد . ومعنى الحشر بالموت سوق الأحياء إليه حتى يكون هو غايتهم ؛ ويقول ابن جرير فى تفسير الآية وبيان وجه العبرة والموعظة فيها : يقول الله تعالى لنبيه محمد : قل لهؤلاء المعرضين عنك المكذبين بآيات الله : أيها القوم لا تحسبن الله غافلا عما تعملون ، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون ، وكيف يغفل عن أعمالكم . أو يترك مجازاتكم ، وهو غير غافل عن عمل شىء دب على الأرض صغيراً أو كبيراً ، ولا عمل طائر طار بجناحيه فى الهواء ، بل جعل ذلك كله أجناسا مجنسة ، وأصنافا مصنفة ، تعرف كما تعرفون ، وتتصرف فيما سخرت كما تتصرفون ، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها ، ومثبت كل ذلك من أعمالها فى أم الكتاب ثم أنه تعالى ذكر أنه مميتها ثم منشرها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها . يقول: فالرب الذى لم يضيع حفظ البهائم والدواب فى الأرض والطير فى الهواء حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها ، وأثبت ذلك منها فى أم الكتاب ، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها فى دار البلاء ، أحرى أن لا يضيع أعمالكم ولا يفرط فى حفظ أفعالكم التى تجترحونها أيها الناس ، حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، إذ كان قد خصكم من نعمه وبسط عليكم من فضله ما لا يعم غيركم فى الدنيا ، وكنتم بشكره أحق وبمعرفة واجبه عليكم أولى ، لما أعطاكم من العقل الذى به بين الأشياء تميزون ، والفهم الذى لم يعطه البهائم والطير الذى به بين مصالحكم ومضاركم تفرقون .

« والذين كذبوا بآياتنا » أى القرآن «صم» عن سماعها سماع قبول «وبكم» عن النطق بالحق « فى الظلمات » أى فى ضلالات الكفر « من يشأ الله » أى إضلاله « يضلله ومن يشأ » هدايته « يجعله على صراط مستقيم » هو دين الإسلام، وهذا دليل واضح لأهل السنة على المعتزلة فى قولهم إنهما من العبد، كما

مر «قل» يامحمد لأهل مكة «أرأيتكم» استفهام تعجب والكاف حرف خطاب أى أخبرونى «إن أتاكم عذاب الله» أى فى الدنيا كما أتى من قبلكم من الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من ذلك العذاب «أو أتتكم الساعة» أى القيامة المشتملة على العذاب «أغير الله تدعون» فى كشف العذاب عنكم «إن كنتم صادقين» فى قولكم إن الأصنام آلهة، وجواب الاستفهام محذوف أى فادعوه وهو تبكيت لهم «بل إياه تدعون» أى تخصونه بالدعاء كما حكى الله ذلك عنهم فى مواضع، كما فى قوله تعالى «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه» «فيكشف ماتدعون» أى ما تدعون إلى كشفه «إن شاء» كشف فى الدنيا تفضلا عليكم، كما هو عادته معكم فى وقت شدائدكم، ولكنه لا يشاء كشفه فى الآخرة لأنه لا يبدل القول لديه وإن كان له أن يفعل ما يشاء «وتنسون» أى تتركون فى تلك الأوقات دائما «ما تشركون» معه من الأصنام، فلا تدعونها لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع.

٤٢ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ.

٤٣ — فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ.

٤٤ — فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ.

٤٥ — فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ.

أربع آيات كريمات تشير إلى صنع الله مع الأمم الماضية، وكيف يبعث فيهم الرسالات الهادية فيكذبون رسلهم وأنبياءهم، فيأخذهم الله عز وجل

بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، وما كان أقرب إلى المنطق أن يقفوا صامدين أقوياء لا يذلون ولا يتضرعون ، ولكن سرعان ما جاءهم البأس الشديد فتضرعوا وذلوا ، ثم أنجاهم الله ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى قست قلوبهم عن ذكر الله وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، ونسوا ما ذكروا به ، فأغدق الله عليهم الخيرات حتى بطروا وأشروا ؛ فأخذهم الله بعذابه واستأصلهم ، وأخذهم بغتة ؛ فقطع داء القوم الظالمين والحمد لله رب العالمين . وقوله تعالى فى هذه الآيات : « ولقد أرسلنا » رسلا « إلى أمم من قبلك » أى قبلك و ( من ) مزيدة فكذبوهم « فأخذناهم بالبأساء » أى شدة الفقر « والضراء » أى الأمراض والأوجاع « لعلهم يتضرعون » أى يتذللون ويتوبون عن ذنوبهم فيؤمنون « فلولا » أى فهلا « إذ جاءهم بأسنا » أى عذابنا « تضرعوا » أى لم يقولوا ذلك مع قيام المقتضى له « ولكن قست قلوبهم » فلم تلن للإيمان « وزين لهم الشيطان » أى بما دخل عليهم من باب الشهوات « ما كانوا يعملون » من المعاصى فأصروا عليها « فلما نسوا » أى تركوا « ما ذكروا » أى وعظوا وخوفوا « به » وإنما كان النسيان بمعنى الترك ، لأن التارك للشىء معرضاً عنه كأنه صيره بمنزلة ما قد نسى « فتحنا عليهم أبواب كل شىء » أى من الخيرات والأرزاق ، فنقلناهم من الشدة إلى الرخاء استدراجاً لهم « حتى إذا فرحوا بما أوتوا » أى فرح بطر « أخذناهم » بالعذاب « بغتة » أى فجأة « فإذا هم مبلسون » أى متحسرون آيسون من كل خير « فقطع دابر القوم الذين ظلموا » بالكفر بالله وبالأنبياء والرسل وبالكتب السماوية المقدسة « والحمد لله رب العالمين » أى على نصر الرسل وإهلاك الكافرين والعصاة ، فإن إهلاكهم من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم لهو نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها .

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به » . قال الحسن البصرى : من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له ، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له ، ثم قرأ « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم

أبواب كل شيء » الآية ، قال الحسن : مكر بالقوم ورب الكعبة : أعطوا حاجتهم ثم أخذوا ، رواه ابن أبي حاتم . وقال : قتادة بغت القومَ أمرُ الله وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم نعمتهم ، فلاتغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ، رواه ابن أبي حاتم أيضاً . وقال مالك عن الزهري : « فتحنا عليهم أبواب كل شيء » قال : رخاء الدنيا وسترها . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلوات الله عليه قال : « إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » ثم تلا رسول الله « فلما نسوا ما ذكروا به » الآية . وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله كان يقول : إذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة . « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » وكما قال : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

٤٦ — قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ .

٤٧ — قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّٰلِمُونَ .

٤٨ — وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

٤٩ — وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

٥٠ — قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ .

٥١ — وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

ست آيات كريمة هن من تتمة الحديث عن الشرك والمشركين وعن الرسالات والرسل وعن تقدير عقيدة التوحيد والبعث واليوم الآخر . والآية الأولى إثبات لوجود الله عز وجل بأبلغ بيان وأقوى برهان ، وإثبات لوجود الله بالأدلة المادية ، لأنه عز وجل هو الذى يهب السمع والأبصار ويهب الروح والحياة والعقل .. والآية الثانية تهديد ووعيد وإنذار من الله عز وجل بالعذاب الشديد للمشركين الظالمين الضالين ، والآيتان الثالثة والرابعة ، بيان لوظيفة الرسل والمرسلين والنبيين ، وأنهم يبعثون إلى أممهم مبشرين ومنذرين ، فأما المؤمنون برسالاتهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأما المكذبون فلهم العذاب والوعيد الشديد . والآية الخامسة رد شديد بليغ على مقترحى الآيات ، وعلى المشركين الذين يكلفون الرسل ما لا يطيقون ، ويريدون منهم أن يخلقوا لهم المعجزات كل يوم بل كل ساعة ، والآية السادسة أمر من الله عز وجل لرسوله الكريم بأن يبلغ القرآن وينذر للناس ويبشر به الطائعين والصالحين ، لعل هؤلاء وهؤلاء يتقون الله ويؤمنون برسله ورسالاته . .
وقوله تعالى فى هذه الآيات الكريمة الجليلة الحاسمة :

« قل » أى لأهل مكة « أرأيتم » أى أخبرونى « إن أخذ الله سمعكم » أى أصمكم « وأبصاركم » أى أعماكم « وختم » أى طبع « على قلوبكم » أى بأن يغطى عليها بما يزول به عقلكم وفهمكم فلا تعرفون شيئا « من إله غير الله يأتيكم به » أى بذلك أو بما أخذ منكم ، لأن الضمير فى « به » يعود على معنى الفعل ، أو بأحد هذه المذكورات ، ويجوز أن يعود على السمع الذى ذكره أولا ويندرج غيره تحته كقوله تعالى : « بل الله ورسوله أحق أن يرضوه » . « انظر » الخطاب للرسول ويدخل فيه غيره ، أى انظر يا محمد « كيف نصرف الآيات » أى كيف نبين لهم الآيات أى العلامات الدالة على التوحيد والنبوة « ثم هم يصدفون » أى يعرضون عنها فلا يؤمنون بها ، « قل أرأيتكم » أى

أخبرونى « إن أتاكم عذاب الله بغتة » أى فجأة « أو جهرة » أى معاينة ترونه عند نزوله ، وقال ابن عباس والحسن : ليلا ونهاراً « هل يهلك » أى ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب « إلا القوم الظالمون » أى المشركون لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك « ومانرسل المرسلين إلا مبشرين » من آمن بالجنة « ومنذرين » من كفر بالنار أى ليس فى إرسالهم أن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات إنما أرسلوا بالبشارة والنذارة « فمن آمن » أى بهم « وأصلح » أى عمله « فلا خوف عليهم » أى من العذاب « ولا هم يحزنون » فى الآخرة بفوات الثواب « والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب » أى يصيبهم « بما كانوا يفسقون » أى بسبب خروجهم عن الطاعة « قل » لهم « لا أقول لكم عندى خزائن الله » نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم إنما بعثت بشيراً ونذيرا ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، وهى جمع خزانة اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء وخزن الشىء إحرازه بحيث لا تناله الأيدى . أى ليس عندى خزائن رزقه أو مقدوراته فأعطيكم منها ماتريدون لأنهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : إن كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع علينا ويغنى فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لا بيده « ولا » أقول لكم إنى « أعلم الغيب » أى فأخبركم بما مضى وما هو آت ، وذلك أنهم قالوا له : أخبرنا بمصالحنا ومضارنا فى المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار ، فأجابهم بقوله : ولا أعلم الغيب فأخبركم بذلك « ولا أقول : إنى ملك » وذلك أنهم قالوا : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ويتزوج النساء ، فأجابهم بذلك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدون أى لا أقول لكم شيئا من ذلك فتنكرون وتجحدون ، وقد يكون معنى هذا الكلام : لا أدعى منزلة أقوى من منزلتى ، ولولا أن الملائكة أفضل من الرسل لم يصح ذلك ، والجواب أنه صلى الله عليه وسلم إنما قال ذلك تواضعاً لله تعالى واعترافا بالعبودية حتى لا يعتقد فيه مثل إعتقاد النصارى فى المسيح ، فالمراد بما قاله نفى قدرته عن أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة ، وذلك لا يدل على أنهم أفضل

من الأنبياء «إن أتبع إلا ما يوحى إلى» تبرأ صلى الله عليه وسلم من دعوى الألوهية والملائكية وادعى النبوة مع الرسالة التى هى أعلى كمالات البشر، رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه ، وظاهر هذه الآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يجتهد فى شىء من الأحكام ، بل جميع أوامر الله ونواهيه إنما كانت بوحى ، ولكن المرجح أنه يجتهد، والمعنى: قل أيها الرسول الذى لم يبعث إلا كما بعث غيره من الرسل مبشراً من أجاب دعوته بحسن الثواب ، ومنذراً من ردها سوء العقاب ، لهؤلاء الكفار المشاغبين لك بغير علم يميزون به بين شؤون الألوهية وحقيقة الرسالة ، الذين يقترحون عليك من الآيات الكونية ما يعلمون أن البشر لا يقدرون عليه ، لأنهم - وإن قالوه تعجيزا - يتوهمون أن الرجل من البشر لا يكون رسولا إلا أن يخرج من حقيقة البشرية ويصير إلهاً قادراً على مالا يقدرعليه البشر ، وعالماً بكل مايعجز عن علمه البشر ، وإن لم يكن من موضوع الرسالة التى عهد إليه أمر تبليغها - أو يصير ملكا من الملائكة فى متعلق قدرته ومتناول علمه ، لأن أمر الرسالة فى خيالهم ينافى البشرية التى حقرها فى أنفسهم جهلهم وسوء حالهم وفساد أعمالهم ، قل لهؤلاء : لا أقول لكم عندى خزائن الله ، بل لله خزائن السموات والأرض يتصرف فيها كما يشاء ، ولا يقدر أحد من خلقه على التصرف فى شىء منها إلا ما أعطاه تعالى إياه ، ومكنه من التصرف فيه ، والمتصرف بما يعطى من الخزانة لا يكون متصرفا فى الخزانة نفسها ، فالمستخدمون عند الملك أو الرجل الغنى يعطون أجورهم من خزانته فيتصرفون فيها دون الخزانة ، وجميع الأحياء العاملين يتصرفون بما يعطيهم الله تعالى من خزائن الموجودات ، كل بحسب ما أوتى من الاستعداد فى دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات ، ولا يقدر أحد منهم أن يتجاوز إلى ذلك مالم يؤته ولم يصل إليه استعداده ، فالتصرف المطلق فى كل شىء ، إنما هو الله القادر على كل شىء . وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول - المبلغ عن الله تعالى أمر دينه ، قادرا على مالا يقدر عليه البشر من التصرف فى المخلوقات بالأسباب .

فضلا عن التصرف الذاتى بغير السبب الذى طلبه المشركون منه ، وجعلوه شرطا للإيمان له ، كتفجير الينابيع والأنهار من أرض مكة وإيجاد الجنات والبساتين فيها ، وإسقاط السماء عليهم كسفا ، والإتيان بالله والملائكة قبيلا ، وغير ذلك مما اقترحوه وحكاه الله تعالى عنهم فى سورة الإسراء وغيرها .
بدأ الله عز وجل بنفى القدرة على التصرف فيما ليس من شأن البشر التصرف فيه لعدم تسخير الله تعالى إياه لهم بإقدارهم على أسبابه . وثنى بنفى علم الغيب الخاص بالله تعالى فقال « ولا أعلم الغيب » ، أى ولا أقول لكم إنى أعلم الغيب وهو ما حجب الله علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به ككونه مما لا تدركه مشاعرهم الظاهرة ولا الباطنة ، لأنها لم تخلق مستعدة لإدراكه ولا لطرق الاستدلال عليه ، أو لأنها مستعدة له بالقوة غير متمكنة من أسبابه بالفعل كعالم الآخرة ، فالغيب من جنس المعلومات كخزائن الله من جنس المقدورات ، يراد بهما ما اختص بالله تعالى فلم يكن عباده من علمه والتصرف فيه ، أى لم يعطهم القوى ولم يسخر لهم الأسباب الموصلة إلى ذلك .
والغيب قسمان : غيب حقيقى مطلق ، وهو ما غاب علمه عن جميع الخلق حتى الملائكة . وفيه يقول الله عز وجل « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » ، وغيب إضافى وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض كالذى يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر مثلا ، وأما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها ، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها ، فلا يدخل فى عموم معنى الغيب الوارد فى كتاب الله ، وهذه الأسباب منها ما هو علمى كالدلائل العقلية والعلمية ، فإن بعض علماء الرياضيات وغيرها يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس ، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثوانى قبل وقوعه بالألوف من الأعوام ، ومنها ما هو عملى كالتلغراف الهوائى أو اللاسلكى الذى يعلم المرء به بعض ما يقع فى أقاصى البلاد وأجواز البحار التى بينه وبينها ألوف من الأميال . والمراد بالغيب

الغيب بالمعنى الأول ، وقد ذكر ذلك كله الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار
وقال الرازى : قوله تعالى « إن أتبع إلا ما يوحى إلى » ظاهره يدل على أنه لا يعمل إلا بالوحى ، وهو يدل على حكمين :

الأول : أن هذا النص يدل على أن الرسول لم يكن يحكم من تلقاء نفسه فى شىء من الأحكام وأنه ما كان يجتهد ، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحى . ويتأكد هذا بقوله « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » .

والثانى : أن الذين ينفون القياس قالوا : ثبت بهذا النص أنه عليه السلام ما كان يعمل إلا بالوحى النازل عليه ، فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعمل إلا بالوحى النازل عليه لقوله تعالى « فاتبعوه » وذلك ينفى جواز العمل بالقياس ، ثم أكد هذا الكلام بقوله « قل هل يستوى الأعمى والبصير » ، وذلك لأن العمل بغير الوحى يجرى مجرى عمل الأعمى ، والعمل بالوحى يجرى مجرى عمل البصير ، ثم قال « أفلا تتفكرون » ، والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين وأن لا يكون غافلا عن معرفته .

«قل» لهم « هل يستوى الأعمى والبصير » أى يكونون سواء من غير مزية ، فإن قالوا (نعم) كابروا الحس، وإن قالوا (لا) قبل قولهم ، فمن تبع هذه الآيات الجليات فهو البصير ومن أعرض فهو الأعمى ، وقيل : المراد بالأول الكافر وبالثانى المؤمن، وقيل: الضال والمهتدى ، وقيل: الجاهل والعالم «أفلا تتفكرون» فى أنهما لا يستويان فتؤمنوا « وأنذر » أى خوف إذ الإنذار إعلام مع تخويف « به » أى القرآن ، وقوله تعالى «الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم» المراد بهم إما قوم داخلون فى الإسلام ومقرون بالبعث إلا أنهم مفرطون فى العمل ، وإما أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث ، وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا ، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون المتمردين منهم ، وقوله تعالى «ليس لهم من دونه » أى غير الله « ولى » أى ينصرهم « ولا شفيع » أى يشفع لهم

بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم، وإذا فسر ما ذكر بالمؤمنين كان مشكلا لأنه قد ثبت تصحيح النقل بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم للمذنبين من أمته ، ولذلك يشفع الملائكة والأنبياء والمؤمنون بعضهم لبعض، وقد يكون الجواب على ذلك أن الشفاعة لاتكون إلا بإذن الله كما قال تعالى « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » وإذا كانت الشفاعة لاتكون إلا بإذن الله صح قوله « ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع » حتى يؤذن لهم بالشفاعة فإذا أذن فيها كان للمؤمنين ولى وشفيع « لعلهم يتقون » الله بإقلاعهم عما هم فيه وعمل الطاعات .

٥٢ — وَلاَ تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

٥٣ — وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ .

٥٤ — وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٥٥ — وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ .

أربع آيات كريمات تمثل ديمقراطية الإسلام وروح المساواة فيه ، وتدل على عدم اعتراف الإسلام بنظام الطبقات ولا بوجود طبقة الأشراف والسادة، والإسلام فى مجموعه دين إنسانى يهدم الفروق الاجتماعية الظالمة بين الناس ويحارب نظام سيادة فرد على فرد ومجتمع على مجتمع وأمة على أمة . . والآية الأولى من هذه الآيات الشريفة فيها نهى للرسول عن أن يطرد من مجلسه

فقراء المؤمنين امتثالا لرغبة زعماء المشركين ، ولو قد فعل ذلك لكان من الظالمين ، وهذا الأسلوب فى خطاب الرسول أبلغ دليل على أن القرآن منزل من عند الله وأنه ليس من كلام محمد وإلا لما كان فيه توبيخ لنفسه بهذا الأسلوب وعلى هذا النهج ، والآية الثانية ، تشير إلى أن اختلاف نظام طبقات المجتمع مما يفتن الناس ، حتى ليقول السادة أهؤلاء الفقراء الزاهدون هم الذين قد من الله عليهم برضائه ورحمته من دوننا ؟ ويجيئهم الرد بليغا كاملا حاسما : أليس الله بأعلم بالشاكرين . والآية الثالثة أمر للرسول بأن يعامل هؤلاء الفقراء معاملة كريمة وأن يبشرهم برحمة الله ومثوبته ، والآية الرابعة فيها بيان لآيات الله المفصلات وتنويه بها ، وإشادة بالقرآن الكريم الذى احتوى عليها بيانا لكل شيء ولتستبين سبيل المجرمين .. وقوله تعالى «ولا تطرد» الخ، روى أحمد وابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملأ من قريش على النبى وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يامحمد : أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك : فأنزل فيهم القرآن « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم – إلى قوله – أليس الله بأعلم بالشاكرين » وقيل: إلى قوله « سبيل المجرمين » ، وعن عكرمة قال: مشى عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وقرظة ابن عمرو بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل فى أشراف الكفار من بنى عبدمناف إلى أبى طالب فقالوا له : لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد ، فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا[1] كان أعظم له فى صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقه . فذكر ذلك أبو طالب للنبى فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت يا رسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم ، وما يصيرون إليه من أمرهم ، فأنزل الله « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم – إلى قوله – أليس الله بأعلم بالشاكرين » ، قال : وكانوا بلالا وعمار بن ياسر وسالما مولى أبى حذيفة وصبيحا مولى أسيد ، وفيهم ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلى وعمرو بن عمرو ذو الشمالين ومرثد بن أبى مرثد وأشباههم .

(١) العسفاء – جمع عسيف وهو الأجير . والأعبد : جمع عبد .

ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا » الآية ؛ فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر ، فأنزل الله « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا » الآية . والمعنى : ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أى فى أول النهار وآخره أو فى عامة الأوقات، لأنه يكنى بطرفى الشىء عن جملته ، يقال: يفعل كذا صباحا ومساء ، إذا كان مداوما عليه ، وإذا أريد بالغدو والعشى حقيقتهما فيحتمل أن يراد بالدعاء الصلاة. لأنها كانت فى أول الإسلام صلاتين إحداهما فى الصباح والأخرى فى المساء ، وروى عن مجاهد أن المراد صلاتا الصبح والعصر ، وإلا فالدعاء يشمل الدعاء الحقيقى والصلاة والقرآن المشتملين عليه. والغداة والغدوة كالبكرة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والعشى آخر النهار وقيل : من المغرب إلى العشاء وقيل : من بعد الزوال .

وهذا النهى الجليل ورد بعدما أمر الله تعالى نبيه بإنذار غير المتقين ليتقوا أمره بإكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضية لقريش ، وروى أن رؤساءهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : لو طردت هؤلاء الأعبد ، يعنون فقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وخباب وسلمان وأضرابهم - وكانت عليهم جباب من صوف - جلسنا إليك وحادثناك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين ، فقالوا : فأقمهم عنا إذا جئنا فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت ، قال : نعم - طمعا فى إيمانهم ؛ وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال له : لو فعلت حتى تنظر إلى ماذا يصيرون، قالوا : فاكتب بذلك كتابا. فدعا بالصحيفة واعتذر عمر رضى الله تعالى عنه عن مقالته ، قال سلمان وخباب : فينا نزلت ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا وندنوا منه حتى تمس ركبنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزل « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم » فترك القيام عنا إلى إن نقوم عنه ، وقال لنا : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات ، وقال الكلبى : قالوا له : اجعل لنا يوماً ولهم يوماً ، قال : لا أفعل ، قالوا فاجعل مجلسنا

واحدا وأقبل علينا وولهم ظهرك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال مجاهد : قالت قريش : لولا بلال وابن أم عبد لبايعنا محمدا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » يعنى صلاة الصبح ، قال ابن عباس : يعبدون ربهم بالغداة والعشى . يعنى صلاة الصبح ، وصلاة العصر ، ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس ، وذلك أن ناسا من الفقراء كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال ناس من الأشراف : إذا صلينا فأخر هؤلاء فليصلوا خلفنا . فنزلت هذه الآية « يريدون وجهه » حال من يدعون أى يدعون ربهم مخلصين فيه - قيد الدعاء بالإخلاص تنبيها على أنه ملاك الأمر « ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء » . وهو بمعنى قوله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وقوله تعالى « فتطردهم » أى فتبعدهم وهو جواب النفى ، وقوله تعالى « فتكون من الظالمين » جواب النهى وهو « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة » واحتج الطاعنون فى عصمة النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل أشراف قريش عاتبه الله تعالى به على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك قدح فى العصمة ، وهو قوله تعالى « فطردهم فتكون من الظالمين » ، وجواب ذلك أنه صلى الله عليه وسلم ما طردهم ولا هم به لأجل استخفاف بهم ، وإنما كان هذا لمصلحة وهى التلطف بهؤلاء الأشراف فى إدخالهم فى الإسلام . فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه صلى الله عليه وسلم ، فأعلمه الله تعالى أن تقرب هؤلاء الفقراء أولى من أن يهم بطردهم ، فقربهم منه وأدناهم . والظلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه أى فلا تهم بطردهم عنك فتضع الشيء فى غير محله فهو من باب ترك الأفضل والأولى ، لا من باب ترك الواجبات « وكذلك فتنا » أى ابتلينا « بعضهم ببعض » أى الشريف بالوضيع والغنى بالفقير بأن قدمناه بالسبق للإيمان « ليقولوا » أى الشرفاء والأغنياء « أهؤلاء » الفقراء « من الله عليهم من بيننا » بالهداية أى لو كان ما هم عليه هدى ما سبقونا إليه

ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء ، قال الله تعالى : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » أى بمن يقع منهم الإيمان والشكر فيوفقه وبمن لا يقع منه فيخذله « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل» لهم وهم الفقراء « سلام عليكم» إما أن يكون أمرا بتبليغ سلام الله تعالى إليهم، وإما أن يكون أمرا بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييبا لقلوبهم « كتب » أى قضى «ربكم على نفسه الرحمة» روى أنها نزلت فى الذين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم ، فوصفهم الله تعالى بالإيمان بالقرآن واتباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم ، ويبشرهم برحمته وفضله بعد النهى عن طردهم إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتى العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغى أن يقرب ولا يطرد ، ويعز ولا يذل ، ويبشر من الله تعالى بالسلامة فى الدنيا والرحمة فى الآخرة . وقال عطاء : نزلت فى الخلفاء الأربعة وجماعة من الصحابة ، وقيل : الآية على إطلاقها فى كل مؤمن ، وقيل - لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التى تقدمت ، وقال : ما أردت إلا الخير فنزلت ، وقيل : إن قوما جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاما، فلم يرد عليهم بشىء فانصرفوا فنزلت « إنه من عمل منكم سوءا » أى سوء كان ملتبسا « بجهالة » أى عمله وهو جاهل وفيه معنيان : أحدهما أنه فعل فعل الجهلة لأن من عمل مايؤدى إلى الضرر فى العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير ، والثانى أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شىء حتى يعلم حاله وكيفيته ، وقيل: إنها نزلت فى عمر رضى الله تعالى عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ماسألوه ، ولم يعلم أنها مفسدة « ثم تاب » أى رجع « من بعده » أى بعد ارتكابه ذلك السوء « وأصلح » عمله « فأنه » أى الله « غفور » له « رحيم » به « وكذلك » أى ومثل ذلك التفصيل الواضح « نفصل» أى نبين « الآيات » أى آيات القرآن فى صفة المطيعين والمجرمين المصرين منهم والأوابين «ولتستبين سبيل» أى طريق «المجرمين» بالياء أى ليظهر ويتضح

سبيل المجرمين يوم القيامة إذا صاروا إلى النار ، أو بالتاء خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم ، أى وليظهر لك الحق يا محمد ، ويتبين لك سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يحق له .

وبعد ، فإن هذا الروح الكريم ، هو روح الإسلام فى ديمقراطيته النبيلة ، وفى روح المساواة التى عمت جميع طبقاته ، وفى تفضيله للعمل الصالح من أى إنسان كان العمل ، ومن أى طبقة كان هذا الإنسان .

ولقد جمع الإسلام وكتابه الحكيم شتى أصول التقدم الأدبى والروحى والمادى والاجتماعى ، ودعا إلى مختلف المقومات العالية لمدنية فاضلة كريمة مهذبة ، غايتها سعادة الفرد والجماعة والأمم والإنسانية ، وأحكام الإسلام ، وآدابه، وهى نمط رفيع للمثل العليا التى سعدت بها البشرية ، واستقامت بها حال الاجتماع ، وفاءت إلى ظلها الظليل الشعوب . ولقد كان نزول الإسلام على محمد بن عبد الله ، حدثاً فكرياً ودينياً وإنسانياً خطيراً ، فقد قلب الأوضاع ، وبدل النظم ، وغير مجرى الحياة ، وقضى على ما توورث من جهل وحمق وسفه ووحشية ، وضلال وطغيان وبهتان ، وأحال ذلك كله حضارة وعلماً وأدباً وديموقراطية صحيحة ، واشتراكية ، عادلة وأمنا وحرية وسلاما ، ورفاهية فى كل مكان . خفقت الراية الإسلامية على شعوب كثيرة ذات حضارات قديمة ، وعلى أمم بدائية لم تعرف نواميس التقدم والرقى من قبل ، فوحد الشمل وبدد الفرقة وساوى بين هذه وتلك ، وحارب التفرقة العنصرية الكاذبة ، وقاد الجميع بكلمة الله إلى حيث العمل والنظام والاتحاد والجهاد لأداء رسالة الدين ، والتبشير بحياة فاضلة بين الناس ، وصارت العربية هى لغة العالم الجديد والقرآن دستور الحياة فى هذه الرقعة الشاسعة من الأرض ، والإسلام هو عقيدة الجماعات والطوائف والأفراد . جاء الإسلام يبشر الجماعات والشعوب بحرياتها ، ويدعو إلى أكرم مافى الحياة من مبادىء ، وإلى أسمى ماتتطلع إليه الإنسانية من مثل وغايات وأهداف ، ويشرع شرائع للسلام لم يشرعها من قبل ولا من بعد مذهب من المذاهب ، ولا عقيدة من العقائد . ولقد كفل

ديننا الخالد الحريات ، وهدم الفروق الظالمة بين النـاس ، وسوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، وجعل الرئيس والمرءوس مسئولين عن أعمالهما . ووسع باب العدالة ، حتى لاتنتهى فيه عند حـد ، ولم يستثن من أحكامها إنسانا ولا طائفة ، ولم يقف فى طريقها حتى اعتبارات الفتح والغلبة والسيادة . . يقول عمر من وصيته للخليفة من بعده : اجعل الناس عندك سواء . لاتبال على من وجب الحق ، ثم لاتأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة ، فيما ولاك الله . . والحـكم فى الإسلام أساسه مشيئة الشعوب وإرادتها ، ورعاية حقوق الإنسان فى الحياة والحرية والـكرامة والعيش ، وإطلاقه للحريات إلى أبعد مدى معروف ، فحرية الفكر والرأى . وحرية التصرف والعمل ، والحرية الشخصية ، والحريات العامة ، وحرية الإنسان فى مسكنه وفى اختيار لون الثقافة التى يريدها لنفسه ولأبنائه ، والحرية السياسية ، كل هذه الحريات قـد قررها وحماها الإسلام وكتابه الحـكيم . وليس للحاكم ـ فى شريعة محمد بن عبد الله ـ طاعة مفروضة إلا فى حدود القوانين والدين ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وعلى الشعب أن يقومه إن زاغ ، ولذلك قال عمر : « من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه » وقال : « إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى » .

ولنشر السلام فى الأرض دعا الإسلام إلى المساواة الـكاملة بين الناس جميعا الصغير والـكبير ، والمحكوم والحاكم ، والفقراء والأغنياء ، وبين جميع الطبقات والجماعات ، وهى مساواة لاتعرف معنى للعنصريات والأجناس والألوان ، حتى لقد كان الخليفة عمر يمشى وعبده راكب ، وولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأبطل الإسلام التفاخر بالأحساب والأنساب والأموال ، وجعل العمل وحده هو محور التفضيل والإكرام : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولذلك ألغى الإسلام الفوارق والامتيازات ، ودعا إلى عدالة اجتماعية حكيمة مبنية على الأخوة

والتكافل العام بين الأفراد والجماعات . أساسها التحرر الوجدانى والضمير البشرى الحى والتشريع الإسلامى المحكم . ويقرر الإسلام أن الناس أصلهم واحد ، وأنهم إخوة فى الإنسانية ، وأن علاقات الأمم بعضها ببعض يجب أن تبنى على السلام والمحبة والتعاون فى الأرض ، ولذلك حارب الاستعمار والاستغلال والشيطان والفساد ؛ وحرم شن الحرب للسيطرة والنفوذ والسلطان ، ودعا إلى الرحمة والخير والإيثار والإخاء والمحبة بين الناس ، وحطم الشرك والوثنية حتى لايستعبد أحد فى الأرض . وألغى الرق البشرى ، وهدم عروش الطغيان والجبروت ، واعترف بحقوق الفرد الأساسية ، ورعى حقه فى العيش وفى التأمين الاجتماعى ، وفى المنزلة الأدبية ، حتى لايوجد شيء يعكر أسباب السلام بين الناس .

شرع الإسلام كذلك الديمقراطية الصحيحة التى ترتكز على أصول قوية ، ودعامات ومبادىء مثلى ، فهى تؤمن بمبدأ حكم القانون ، وبأن حكم الشعب للشعب ، وبأن الحكومة وجدت لخدمة الشعب والعمل على رفاهيته ، وتؤمن كذلك بروح التسامح والحرية الاجتماعية وحرية الرأى للأفراد والجماعات ، وبالحرية الاقتصادية التى تهدف إلى تحقيق الرفاهية للناس كافة ، والتى تؤدى التزاماتها كذلك للفقراء وللمجتمع والدولة ، ثم هى تحارب كل لون من ألوان التميز بين الناس . ، وأقام الإسلام كذلك أصوله على اشتراكية مثلى ، دعامتها العدل والتعاطف والتكافل والمحبة بين الناس ،والإيثار والتضحية وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، والألم لشقاء الناس ، وبذل مافى اليد ومساعدة كل محتاج ، اشتراكية لاتدع لذى ألم ألما ، ولا لذى حاجة حاجة ، ولا لذى كربة كربة، اشتراكية يرعاها الله ورسوله وشريعته ، ويدعو إليها الضمير الإنسانى ، وهى من الناحية المعنوية تدعم الحرية الفردية الصادقة . ومن الناحية الإقتصادية تنزع إلى مقاومة الاستغلال فى مختلف ألوانه ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الشورى والإخاء بين الناس ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط به حقوق والتزامات ، ومن حيث الوسائل تنكر الثورة

والتمرد وصراع الطبقات ، وتحرص على الأمن والسلام بين الناس . ولا تجعل الملكية وسيلة للامتياز والتفاوت بين الناس، وغايتها إشاعة الخير والرفاهية بين بنى البشر عامة ، وحماية حقوق الإنسان والعامل والمرأة وتقرير التأمين الاجتماعى للفقراء والمعوزين ، وفرض الزكاة ضريبة يخصص إيرادها لمحاربة الفقر وسد حاجة المنكوبين من الناس ، وتحريم الربا والاستغلال والاحتكار فى شتى صوره ، ورفع شأن العمل أمامه والحض على العمل وعلى إيجاده للعاطلين : بما يشرعه الإسلام من نظم اقتصادية سليمة ، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة والشركة والإجارة وعقد العمل وسوى ذلك ، ومن ثم حرم ديننا الترف والإسراف وحد من غلواء الرأسمالية . وكره التميز بالتفاوت المادى بين الناس ، وأوصى بالصدقة والإحسان وفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم من الأثرياء أو القادرين على الكسب ، وشرع نظام الوصية والقرض والوديعة والإعارة والهبة وفريضة الميراث . وأوصى بالتكافل الاجتماعى بين المسلمين عامة

وهكذا نجد أصول الإسلام ومقومات شريعته ودعائم ميراثه الروحى ، تنزع نحو حماية الحريات وإشاعة السلام والخير بين الناس ، وتجعل من هذه الأصول الكريمة أساسا لحضارة إسلامية مشرقة ، ومدنية روحية مزدهرة ، قامت ونمت وترعرعت فى الأرض ، واجتمعت عليها الأمم والشعوب ، متعاونة متحدة يسودها العدل والأمن والطمأنينة والنور والعلم ؛ والإخلاص لله ولرسالة الإسلام السامية المخلدة ، فأين هـذا من صنع الحضارات المادية السائدة فى عالم اليوم ، ومن آثام مبادىء المدنية الغربية المجللة بالخزى والعار والكراهية على أرض الشرق ؟ أين هذه الأصول السمحة العالية الكريمة من الأصول التى تبنى عليها دول الغرب سياستها المدمرة المخربة فى مراكش وكينيا وفلسطين وفى كل إقليم وطئه الإستعمار الخبيث الذى يهدم صروح الحرية والسلام فى كل مكان ؟ إن الإنسان الذى يعيش اليوم فى غمار مدنية القرن العشرين لأولى به أن يرجع إلى حياة الغابة من أن يعيش فى ظلال القلق

والخوف والطغيان والدماء .. وإن المدنية التي ترفرف على شعوب العالم الآن لحرى بها أن تنكس الأعلام خزيا وحياء من أن تنسب إلى المدنية الفاضلة ، وإشفاقاً من أن توازن بمدنية المسلمين التي شملت العالم كله حقبا من الزمن فشمله الخير والنور والسلام ، وسعدت بها أمم كانت ترسف في قيود الطغيان ، فاستعادت حريتها ، وعاشت تكافح من أجل رفاهية البشر وتقدمهم ، ونشر رسالة الله والإسلام بين الناس .

٥٦ — قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُلْ لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ .

٥٧ — قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ .

٥٨ — قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ .

هذه الآيات الثلاث تتمم كذلك هذه المعاني الجليلة الرفيعة التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ، وفي الآية الأولى إعلان من الرسول بتبرئه من الشرك ، وفي الآية الثانية إعلان منه بإقامته على التوحيد الذي يكذب به المشركون ، وفي الآية الثالثة تفويض لله في الأمر بين الرسول والمشركين ، وقوله تعالى « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين « إني نهيت أن أعبد الذين تدعون» أي تعبدون « من دون الله » وهي الأصنام التي يعبدونها أو ما يدعونها آلهة لأن الجمادات أخس من أن تدعى بهذا ، وقوله تعالى « قل لا أتبع أهواءكم » تأكيدا لقطع أطماعهم وبيان لمبدأ ضلالهم ، وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى « قد ضللت إذا » أي إن اتبعت أهواءكم فإنا ضال « وما أنا من المهتدين » أي

وما أنا من المهدى فى شىء أى لأنكم كذلك « قل إنى على بينة » أى بيان « من ربى » أى معرفته وأن لا معبود سواه « و » قد « كذبتم به » أى بربى حيث أشركتم بهغيره « ما عندى ماتستعجلون به » أى العذاب الذى استعجلوه بقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء . « أن » أى ما « الحكم » فى ذلك وغيره « إلا لله » فهو يفصل بين المختلفين ويقضى بإنزال العذاب متى شاء « يقص الحق » أى أنه تعالى يقضى القضاء الحق « وهو خير الفاصلين » أى الحاكمين « قل » لهم « لو أن عندى » أى فى قدرتى ومكنتى « ما تستعجلون به » أى من العذاب « لقضى الأمر بينى وبينكم » أى ليس عندى ما يفصل بينى وبينكم بأن أهلككم عاجلا بما تستعجلون به من العذاب غضبا لربى ، ولكنه عند الله تعالى « والله أعلم بالظالمين » أى ما يستحقونه من العذاب والوقت الذى يستحقونه فيه .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الخامس من هذا الجزء الكريم ، وقد تضمن ماتضمن من الرد على المشركين وإفحامهم ، وإقامة الدليل على صحة الرسالة وصدق الرسول ، وأن القرآن من عند الله ، كما تضمن الرد عليهم فيما اقترحوه على الرسول من آيات ؛ وتضمن كذلك تهديدا ووعيدا ما بعده من وعيد لهؤلاء المشركين الجاحدين الضالين المضلين ، وقد أثبت الله عز وجل فيه عقيدة التوحيد إثباتاً ما بعده من إثبات ، وذكر مواضع العبرة من سلوك الأمم الماضية مع أنبيائهم ورسلهم ، وتضمن كذلك تقريرا لمبدأ المساواة بين الناس كافة فقيرهم وغنيهم على السواء ، وهذا المبدأ الخطير ورد فى معرض النهى عن أن يتبع الرسول صلوات الله وسلامه عليه المشركين المتكبرين الذين يأنفون أن يجلسوا فى مجلس الرسول وحولهم فقراء المسلمين ، والذين طلبوا إبعاد هؤلاء الفقراء عن مجلسه صلى الله عليه وسلم عند ما يجلسون إليه ، فنهى الله عز وجل الرسول عن اتباعهم فيما اقترحوه ، ورفع من مكانة هؤلاء الفقراء الطيبين ، وخفض من منزلة الأشراف المتغطرسين ، وطلب الله جل جلاله من الرسول أن يعلن عقيدة التوحيد صافية خالصة ، يعلنها للناس عامة وعلى

الملأ كافة ، ويعلن إيمانه بها وإباءه أن يتبع دين قومه وعقائد أهل مكة الفاسدة.

وجملة الأمر أن هذا الربع فى جملته دفاع عن التوحيد ما بعده من دفاع ، وإعلان صريح بأن الإسلام يأبى المهادنة على حساب العقيدة ، ويرفض رفضا باتا أن يمالىء المشركين على حساب الأمل فى إيمانهم ، ويعلن الكتاب الحكيم كلمة الحق واضحة لا ريب ولا لبس فيها .. يعلنها للناس عامتهم وخاصتهم على حد سواء ، فلا رياء ولا مجاملة ، ولا مهادنة على حساب الدين والعقدة والضمير . كلا إنما الإسلام دين الحق ، ودين القوة ، ودين المروءة ودين الصراحة والوضوح ، وبذلك كله عظمت كلمة الإسلام ، وعز شأن المسلمين .

وخلاصة مااشتمل عليه من معان وآراء هى :

١ — الإيمان فطرة إنسانية فى القلب ـ واستعداد ذاتى فى الإنسان ، ولن يؤمن برسالة الإسلام إلا من كان عنده الاستعداد للإيمان بهذا الدين ، والذين يسمعون الحق سماع قبول واقتناع فيتبعونه ؛ ومصير الصم العمى عن الهدى والحق إلى الله فيحاسبهم على شركهم وعنادهم وجحودهم ومقاومتهم للحق والنور .

٢ — الذين يقترحون الآيات المعجزات على الرسول يجب أن يعلموا أن الله قادر على كل شيء ، ولكنهم يجهلون أن محمدا رسول من عند الله ، وأنه كلف بإبلاغ الرسالة فحسب ، وأنه ليس مطالبا بإيمان قومه ، ولا ملزما بإسلامهم ، إنما عاقبة عملهم وشركهم عليهم ، وفى الأرض والسماء آيات كثيرة ، لو تأملوها بعقولهم وألبابهم لآمنوا ؛ فكل ماخلق الله على ظهر الأرض من ذى روح ، وكل ما خلق فى الجو من طير ، إنما هى مخلوقات لله تتحرك وتسكن بأمره تعالى ، وهى أمم وفصائل وأجناس كالإنسان تماما ومصيرها إلى الله ، هو يبقيها ويحيها ، وهو يميتها ويفنيها .. وفى هذا معجزة علمية جليلة هى الإشارة إلى أن الدواب والطير أجناس وفصائل كثيرة ، وهذا هو ماأثبته العلم .

٣ — الكافرون بآيات الله ودينه وبرسالة رسوله ، هم كالصم البكم ،

يعيشون فى الظلمات ، وأمرهم بيد الله ، إنهم مخلوقون للشقاء والضلال ، ولو خلقوا للسعادة والهدى لأجابوا الرسول ، ولآمنوا بالقرآن . ويجب أن يحذر هؤلاء عذاب الله .

٤ — الإنسان يؤمن بالله فى أعماق نفسه بالله وقدرته ، وهو فى الشدائد يلجأ إلى الله لإنقاذه وهدايته ، وينسى عقائده وآلهته الأخرى .

٥ — مصير الأمم التى كذبت أنبياءها ورسلها معروف ، ويجب أن يحذر المشركون أن ينالهم مثل هذا المصير .

٦ — الله عز وجل لو سلب الإنسان عضوا من أعضائه لما أمكن أن يأتيه به ويرده إليه إلا الله عز وجل ، ولو جاء العذاب بغتة أو جهرة فلن يهلك إلا القوم المشركون الظالمون .

٧ — الرسل يبعثون مبشرين ومنذرين لأممهم فحسب ، وليس عليهم شىء آخر ، إنهم يدعون إلى العقائد والأعمال الصالحة ، وللمؤمنين بها الأمن والسلام ، وللكافرين بها العذاب الأليم وسوء المصير .

٨ — قدرة الله مهيمنة على كل شىء . أما الرسل فليس فى وسعهم إلا ما منحهم الله إياه ، فالرسول ليس فى يده خزائن الله ، وليس فى قدرته العلم بالغيب ، وليس هو ملك يحكم ويقدر على مالا يقدر عليه غيره من عامة الناس إن هو إلا بشر يتبع مايوحى إليه ، ولا يستوى المؤمن برسالة الله والكافر بها .

٩ — ثم أمر الله عز وجل رسوله بأن يبلغ القرآن إلى الناس وأن ينذرهم به حتى يعملوا عملا صالحا ينفعهم يوم لايكون لهم ولى ولا شفيع من دون الله .

١٠ — الإسلام دين يستوى فيه الناس جميعا فقيرهم وغنيهم على السواء ، ليس فيه امتياز لطبقة على طبقة ، وليس فيه فروق اجتماعية بين الفقراء والأغنياء ، هو دين عام للناس جميعا ، وليس الرسول مطالبا بإيمان الأغنياء الذين يأنفون من الجلوس مع الفقراء فى مجلس الرسول ، ويطالبون محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يطرد فقراء المسلمين من مجلسه .. إنه دين يعنى بالفقير قبل أن يعنى بالغنى .

١١ — الرسول صلى الله عليه وسلم برىء من الشرك والمشركين، ولوكان الشرك عقيدة قومه وأهله قبل نزول الرسالة على محمد عليه السلام ، إنما هو رسول التوحيد والإيمان والحنيفية البيضاء التى كذب بها المشركون .

إن هذا الربع يحتوى على أبلغ رد على المشركين ، وعلى أروع تفنيد لمزاعمهم الباطلة ، وهو يقرر عقيدة التوحيد والإيمان تقريراً واضحا لا لبس فيه ولا ريب ولا شك .

الربع السادس

٥٩ — وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ .

٦٠ — وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

٦١ — وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ .

٦٢ — ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ .

أربع آيات كريمة هن مطلع الربع السادس من هذا الجزء .

والآية الأولى منها فيها تمجيد لله ووصف له بعلم الغيب لا يعلمه أحد إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ، إن الله عز وجل

قد أحاط علمه بكل شيء ، واشتمل على كل خفى ، وكشف كل مستور ، والمعنى : وعنده لا عند غيره مفاتح الغيب ، وهن ما ذكره الله عز وجل فى قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، فهذه مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ولا ضير فى إطلاق الأمر إطلاقا تاما فمفتاح كل غيب بيده تعالى ؛ ويعلم مافى البر والبحر، وأى بشر يستطيع الإحاطة بما فى البر والبحر؟ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس كل هذه علمها عند الله وفى كتاب مبين هو اللوح المحفوظ ، ويجوز أن يكون الكتاب المبين كناية عن مطلق علمه ، وواسع إحاطته .. إن هذه الآية وصف لله عز وجل بالعلم وبأن علمه محيط بكل شيء . أما الآية الثانية فوصف له عز وجل بإحاطته بالإنسان إحاطة تامة ، وقدرته عليه قدرة شاملة ، هو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما كسبتم بالنهار ، ثم يبعث الناس فى النهار من النوم ليقضى كل إنسان أجله المقدر له . والآية الثالثة تدل على قدرته تعالى وعلى عظمته وعزته ، وأنه القاهر فوق عباده ، ويرسل عليهم حفظة حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته ملائكة الموت وهم لايفرطون .. والآية الرابعة تصور الخلق بعد أن يصبح مصيرهم إلى الله مولاهم الحق ، له الحكم وبيده الحساب وهو أسرع الحاسبين .. أربع آيات كريمة رائعة تحتوى على صور من عزة الله ومجده وملكه وقدرته وهيمنته ، أفبعد هذا يتخذ المشركون له أندادا وشركاء يعبدونهم من دون الله ..

ولما أمر الله تعالى رسوله أن يبين للمشركين أنه على بينة من ربه فيما بلغهم إياه من رسالته ، وأن مايستعجلون به من عذاب الله ونصره عليهم تعجيزاً أو تهكما أو عناداً ليس عنده ، وإنما هو عند الله الذى قضت سنته أن يكون لكل شيء أجل وموعد لايتقدم ولا يتأخر عنه ، وأنه تعالى هو الذى يقضى الحق ويقصه على رسوله وبيده تنفيذ وعده ووعيده .. أتبع ذلك ببيان كون

مفاتح الغيب عنده ، وكون التصرف فى الخلق بيده وكونه هو القاهر فوق عباده، لايشاركه أحد من رسله ولا غيرهم فى ذلك حتى يصح أن يطالبوا به ، فقال عز وجل : « وعنده » أى عند الله سبحانه وتعالى « مفاتح الغيب » أى خزائنه جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن أو مايتوصل به إلى المغيبات ، مستعار من المفاتيح الذى هو جمع المفتاح « لايعلمها إلا هو » وهى الخمسة التى فى قوله تعالى « إن الله عنده علم الساعة » الآية ، كما رواه البخارى فيعلم أوقاتها وماوراء تعجيلها وتأخيرها من الحكم ، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها « ويعلم ما » يحدث « فى البر والبحر » قدم البر لأن الإنسان أكثر حياته ومنافعه فيه ، بما فيه من القرى والمدن والمغاور والجبال والحيوان والنبات والمعادن وغير ذلك ، وأخر البحر لأن إحاطة العقل بأحواله أقل ، وقال مجاهد : البر المفاوز والقفار ، والبحر القرى والأمصار ، أى التى على الأنهار « وما تسقط من ورقة » أى من فوق شجرة « إلا يعلمها » مبالغة فى إحاطة علمه تعالى بالجزئيات ، وقوله تعالى « ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس » اختلف فى الحبة فقيل : هى من هذا الحب المعروف تكون فى بطن الأرض قبل أن تنبت ، وقيل : هى الحبة التى فى الصخرة التى فى أسفل الأرض ، واختلف فى معنى الرطب واليابس : فقال ابن عباس : الرطب الماء واليابس البادية ، وقال عطاء : يريد ماينبت ومالا ينبت وقيل : المراد بالرطب الحى وباليابس الميت ، وقيل : هو عبارة عن كل شىء لأن جميع الأشياء إما رطبة وإما يابسة ، وجميع هذه الأشياء داخلة تحت قوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » وأفرد هذه الأشياء بالذكر لأنه تعالى ذكرها أولا بجملة ثم فصل بعضا من ذلك الإجمال ليدل بها على غيرها ، وقوله تعالى « إلا فى كتاب مبين » فيه قولان : أحدهما أنه علم الله الذى لايغير ولا يبدل ، والثانى أنه اللوح المحفوظ ؛ لأن الله تعالى كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والأرض .

ويقول الإمام الرازى فى تفسيره : « اعلم أنه تعالى قال فى الآية الأولى « والله أعلم بالظالمين » يعنى أنه سبحانه هو العالم بكل شىء فهو يعجل ماتعجيله أصلح ويؤخرما تأخيره أصلح . وفى الآية مسائل : الأولى: المفاتح جمع مفتح ومفتح والمفتح بالكسر المفتاح الذى يفتح به ، والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الأشياء فهو مفتح ، قال الفراء فى قوله تعالى « ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة » يعنى خزائنه ، فلفظ المفاتح يمكن أن يكون المراد منه المفاتيح ويمكن أن يراد منه الخزائن . أما على التقدير الأول فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأن المفاتيح يتوصل بها إلى مافى الخزائن المستوثق منها بالأغلاق والأقفال ، فالعالم بتلك المفاتيح وكيفية استعمالها فى فتح تلك الأغلاق والأقفال يمكنه أن يتوصل بتلك المفاتيح إلى ما فى تلك الخزائن، فكذلك ههنا الحق سبحانه لما كان عالما بجميع المعلومات عبر عن هذا المعنى بالعبارة المذكورة ، وقرىء مفاتيح . وأما على التقدير الثانى فالمعنى : وعنده خزائن الغيب ، فعلى التقدير الأول يكون المراد العلم بالغيب ، وعلى التقدير الثانى المراد منه القدرة على كل الممكنات كما فى قوله « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » . . وههنا دقيقة أخرى وهى أن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال إلا للعقلاء الكاملين الذين تعودوا الإعراض عن قضايا الحس والخيال ، وألفوا استحضار المعقولات المجردة ، ومثل هذا الإنسان يكون كالنادر ، وقوله « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو » قضية عقلية محضة مجردة، فالإنسان الذى يقوى عقله على الإحاطة بمعنى هذه القضية نادر جداً ، والقرآن إنما أنزل لينتفع به جميع الخلق ، فههنا طريق آخر وهو أن من ذكر القضية العقلية المحضة المجردة، فإذا أراد إيصالها إلى عقل كل أحد ذكر لها مثالا من الأمور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية الكلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهوما لكل أحد ، والأمر فى هذه الآية ورد على هذا القانون ، لأنه قال أولا « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو » ثم أكد هذا المعقول الكلى المجرد بجزئى محسوس فقال « ويعلم مافى البر والبحر » وذلك لأن أحد أقسام معلومات

الله هو جميع دواب البر والبحر ، والحس والخيال قد وقفا على عظمة أحوال البر والبحر ، فذكر هذا المحسوس يكشف عن حقيقة عظمة ذلك المعقول، وفيه دقيقة أخرى وهى أنه تعالى قدم ذكر البر لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر وكثرة مافيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات والمعادن ، وأما البحر فإحاطة العقل بأحواله أقل ، إلا أن الحس يدل على أن عجائب البحار فى الجملة أكثر ، وطولها وعرضها أعظم . ومافيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب . فإذ استحضر الخيال صورة البحر والبر على هذه الوجوه ، ثم عرف أن مجموعها قسم حقير من الأقسام الداخلة تحت قوله « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ثم إنه تعالى كما كشف عن عظمة قوله « وعنده مفاتح الغيب » بذكر البر والبحر كشف عن عظمة البر والبحر بقوله « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » ، وذلك لأن العقل يستحضر جميع ما فى وجه الأرض من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال ، ثم يستحضر كم فيها من النجم والشجر ، ثم يستحضر أنه لايتغير حال ورقه إلا والحق سبحانه يعلمها ، ثم يتجاوز من هذا المثال إلى مثال آخر أشد هيبة منه وهو قوله : « ولاحبة فى ظلمات الأرض » وذلك لأن الحبة فى غاية الصغر وظلمات الأرض مواضع يبقى أكبر الأجسام وأعظمها مخفياً فيها . فإذا سمع أن تلك الحبة الصغيرة الملقاة فى ظلمات الأرض على اتساعها وعظمتها لا تخرج من علم الله تعالى البتة ، صارت هذه الأمثلة منبهة على عظمة عظيمة وجلالة عالية من المعنى المشار إليه بقوله « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو » بحيث تتحير العقول فيها ، وتتقاصر الأفكار والألباب عن الوصول إلى مباديها . ثم إنه تعالى لما قوى أمر ذلك المعقول المحض المجرد بذكر هذه الجزئيات المحسوسة، فبعد ذكرها عاد إلى ذكر تلك القضية العقلية المحضة المجردة بعبارة أخرى فقال « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » وهو عين المذكور فى قوله « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » .

المسألة الثانية : المتكلمون قالوا إنه تعالى فاعل العالم بجواهره وأعراضه على سبيل الإحكام والإتقان ومن كان كذلك كان عالماً بها فوجب كونه تعالى عالماً بها ، والحكماء قالوا إنه تعالى مبدأ لجميع الممكنات والعلم بالمبدأ يوجب العلم بالأثر فوجب كونه تعالى عالماً بكلها ، واعلم أن هذا الكلام من أدل الدلائل على كونه تعالى عالماً بجميع الجزئيات الزمانية ، وذلك لأنه لما ثبت أنه تعالى مبدأ لكل ما سواه وجب كونه مبدأ لهذه الجزئيات بالأثر فوجب كونه تعالى عالما بهذه التغييرات والزمانيات من حيث إنها متغيرة وزمانية وذلك هو المطلوب .

المسألة الثالثة قوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » يدل على كونه تعالى منزها عن الضد والند ، وتقريره أن قوله « وعنده مفاتح الغيب » يفيد الحصر أى عنده لا عند غيره ، ولو حصل موجود آخر واجب الوجود لكان مفاتح الغيب حاصلة أيضا عند ذلك الآخر وحينئذ يبطل الحصر ، وأيضا فكما أن لفظ الآية يدل على هذا التوحيد ، فذلك البرهان العقلى يساعد عليه ، وتقريره أن المبدأ لحصول العلم بالآثار والنتائج والصنائع هو العلم بالمؤثر ، والمؤثر الأول فى كل الممكنات هو الحق سبحانه ، فالمفتح الأول للعلم بجميع المعلومات هو العلم به سبحانه ، لكن العلم به ليس إلا له لأن ما سواه أثر والعلم بالأثر لا يفيد العلم بالمؤثر ، فظهر بهذا البرهان أن مفاتح الغيب ليست إلا عند الحق .

المسألة الرابعة قرىء « ولا حبة ولا رطب ولا يابس » بالرفع وفيه وجهان : الأول أن يكون عطفا على محل ( من ورقة ) وأن يكون رفعا على الابتداء وخبره ( إلا فى كتاب مبين ) . كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا فى الدار .

المسألة الخامسة قوله « إلا فى كتاب مبين » ، قيل : إن الكتاب المبين هو علم الله تعالى لا غير وهذا هو الأصوب ، وقال الزجاج : يجوز أن الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات فى كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال عز وجل

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » وفائدة هذا الكتاب أمور: أحدها أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال فى اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى فى المعلومات وأنه لا يغيب عنه مما فى السموات والأرض شىء ، فيكون فى ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث فى صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقا له ، وثانيها : يجوز أن يقال إنه تعالى ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيها للمكلفين على أمر الحساب وإعلاما بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون فى الدنيا شىء ، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التى ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى ، وثالثها : أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات فيمتنع تغييرها على مقتضى ذلك العلم وإلا لزم الجهل ، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات فى ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع أيضا تغييرها وإلا لزم الكذب فتصير كتابة جملة الأحوال فى ذلك الكتاب موجبا تاما وسببا كاملا فى أنه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر ما تقدم ، كما قال صلوات الله عليه « جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » . « وهو الذى يتوفاكم بالليل » أى يقبض أرواحكم عند النوم « ويعلم ما جرحتم » أى كسبتم « بالنهار ثم يبعثكم » أى يوقظكم برد أرواحكم « فيه » أى النهار ، وخص الليل بالنوم والنهار بالكسب مع أن ذلك يقع فى غير هذا ، لأن ذلك جرى على الغالب « ليقضى أجل مسمى » أى ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له فى الدنيا « ثم إليه مرجعكم » بالموت والبعث « ثم ينبئكم بما كنتم تعلمون » فيجازيكم به « وهو القاهر » مستوليا « فوق عباده » لأن من قهر شيئا وغلبه فهو مستعل عليه ، أما قهره للمعدوم فبالتكوين والإيجاد ، وأما قهره للموجود فبالإفناء والإفساد ، ويقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور والنهار بالليل والليل بالنهار إلى غير ذلك من ضروب الكائنات وصنوف الممكنات « ويرسل عليكم » من ملائكته « حفظة » أى تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون ، وعن أبى حاتم أنه كان

يكتب عن الأصمعي كل شيء تلفظ به من فوائد العلم حتى قال فيه : أنبت شيبة الحفظة تكتب لفظ اللفظة ، فقال أبو حاتم : وهذا أيضا مما يكتب، والله تعالى غنى عن كتبة الملائكة ، ولكن فائدة ذلك أن فيها لطفاً للعباد، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها فى صحائف تعرض على رءوس الأشهاد فى مواقف القيامة ، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا » أى ملك الموت وأعوانه « وهم لا يفرطون » أى لا يقصرون فيما يؤمرون ، وقيل : ملك الموت وحده فذكر الواحد بلفظ الجمع ، وجاء فى الأخبار أن الله تعالى جعل الدنيا بين يدى ملك الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من هنا ومن هنا ، فإذا كثرت عليه الأرواح يدعوها فتستجيب له ، وقد قال الله تعالى فى آية أخرى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » ، وفى أخرى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم » ، وقال هنا « توفته رسلنا » ، والجواب بأن المتوفى فى الحقيقة هو الله تعالى ، فإذا حضر أجل العبد أمر الله تعالى ملك الموت أن يقبض روحه ، ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح العبد من جسده ، فإذا وصلت إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت بنفسه فحصل الجمع بين الآيات ، وقال مجاهد : ما من أهل بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يطوف بهم كل يوم مرتين « ثم ردوا » أى الخلق « إلى الله » أى إلى حكمه وجزائه « مولاهم » أى سيدهم ومدبر أمورهم كلها « الحق » أى الثابت الولاية النافذ حكمه فيهم فلا حكم عليه « وهو أسرع الحاسبين » يحاسب الخلق كلهم فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك ، لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض .

٦٣ — قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ .

٦٤ — قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ .

٦٥ — قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ .

٦٦ — وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ .

٦٧ — لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

خمس آيات أخرى تتمم الصورة الرفيعة لقدرة الله التى ذكرت ألوان منها فى الآيات السابقات . . وفيها إبانة عن فضل الله على الناس فى الشدائد والمحن والخطوب ، وعن قدرته القادرة على الانتقام من العاصين والخارجين على طاعته . ويلتفت الله عز وجل إلى الرسول فيخاطبه فى الآية الرابعة فى عظمة وكبرياء ووعيد خفى ، ويقول للرسول الأعظم : وكذب بالقرآن قومك . وهو الحق ، فأنبئهم بأنك لست عليهم بوكيل ، إنما أنت رسول من عند الله تبلغهم رسالة ربك ودعوته وشريعته ، ولست مسئولا عن عصيان العاصين ، ومخالفة المخالفين وشرك المشركين ، وفى الآية الخامسة تهديد ما بعده من تهديد ووعيد ليس وراءه من وعيد .

قوله تعالى « قل » يامحمد لأهل مكة « من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » أى من الخسف فى البر ، والغرق فى البحر ، أو من شدائدهما ، استعيرت الظلمة لمشاركتها لذلك الهول وإبطال الابصار ، فقيل لليوم الشديد : يوم مظلم ، ولغيره يوم ذو كواكب ، وقيل : حمله على الحقيقة أولى ، وظلمة البر هى ما اجتمع من ظلمة الليل وظلمة السحاب ، وظلمة البحر هى ظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة ، فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع فى المهالك ، والمقصود أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لايرجع الإنسان فيها إلا إلى الله تعالى ، لأنه هو القادر على

كشف الكروب وإزالة الشدائد والمحن والخطوب « تدعونه تضرعا » أى علانية « وخفية » أى سرا « لئن » اللام لام القسم على إرادة القول أى يقولون : والله لئن « أنجيتنا من هذه » أى الظلمات والشدائد والمحن « لنكونن من الشاكرين » لك على هذه النعمة ، والشكر هو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها ، أى فيكون من المؤمنين « قل الله ينجيكم منها » أى تلك الظلمات والشدائد « ومن كل كرب » أى غم سوى ذلك « ثم أنتم تشركون » أى تعودون إلى عبادة الأصنام وإشراكها معه فى العبادة وهى لاتضر ولاتنفع، ولا توفون بالعهد والميثاق، وإنما وضع (تشركون) موضع (لاتعبدون) تنبيها على أن من أشرك فى عبادة الله تعالى فكأنه لم يعبده « قل » لهم « هو القادر على أن يبعث » فى كل وقت يريده « عليكم » فى كل حالة « عذابا من فوقكم » كالصواعق والعواصف العاتية والمطر المتدفق وسواها كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الفيل « أو من تحت أرجلكم » بالغرق أو الخسف كما فعل بفرعون وقارون ، وعن ابن عباس ومجاهد : عذابا من فوقكم : الملوك الظلمة ، أو من تحت أرجلكم : العبيد السود، قال الضحاك: من فوقكم أى من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم أى من أسفل منكم « أو يلبسكم » أى يخلطكم « شيعا » أى فرقا وينشب فيكم الأهوال المختلفة حتى يقتل بعضكم بعضا، روى أنه لما نزلت هذه الآية : قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك ، أو من تحت أرجلكم قال : أعوذ بوجهك ، أو يلبسكم شيعا . « ويذيق بعضكم بأس بعض » أى بالقتال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أهون أو أيسر ، وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : سألت ربى طويلا أن لايهلك أمتى بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لايهلك أمتى بالسنين فأعطانيها ، وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها ؛ وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم سأل الله ثلاثا فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة ، سأله أن لا يسلط على أمته عدوا من غيرهم يظهر عليهم فأعطاه ذلك ، وسأله أن لايهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك وسأله أن لايجعل بأس بعضهم على

بعض فمنعه ذلك « انظر » يامحمد « كيف نصرف » أى نبين لهم « الآيات » الدالة على قدرتنا « لعلهم يفقهون » أى يعلمون أن ماهم عليه باطل فيرجعون عنه ، والآية عامة وإن نزلت فى سياق إنذار مشركى مكة وإقامة الحجة عليهم، فالعبرة فيها كغيرها بعموم اللفظ لابخصوص السبب أو مقتضى السياق كما تقرر فى الأصول .

وعن جابر قال : لما نزلت هذه الآية « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بوجهك » قال « أو من تحت أرجلكم » قال : « أعوذ بوجهك » « أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذه أهون أو هذا أيسر » . ومن حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض وأن لا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع عنهم الخسف والرجم وأبى أن يرفع الآخرين » ، وعن ابن عباس ـ قال : لما نزلت هذه الآية « قل هو القادر . . » قام النبى صلى الله عليه وسلم ، فتوضأ ثم قال : « اللهم لاترسل على أمتى عذابا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ولا تلبسهم شيعا ولا تذق بعضهم بأس بعض » فأتاه جبريل فقال : يامحمد قد أجار الله أمتك أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم . أى ولم يجرهم من العذابين الآخرين لأنه لابد أن يتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب ، ويحل ما حل بهم من عذاب التفرق والخلاف . وعن الحسن قال لما نزلت هذه الآية « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا » قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ فسأل ربه أن لايرسل عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ولا يلبس أمته شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض كما أذاق بنى إسرائيل . فهبط إليه جبريل فقال : يامحمد إنك سألت ربك أربعا فأعطاك اثنتين ومنعك اثنتين : لن يأتيهم عذاب من فوقهم ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم ، فإنهما عذابان

لكل أمة اجتمعت على تكذيب نبيها ورد كتاب ربها ، ولكنهم يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض . « وكذب به » أي بالقرآن « قومك » أي الذين من حقهم أن يقوموا بجميع أمرك ويسروا بسيادتك، فإن القبيلة إذا ساد أحدها عزت به فإن عزه عزها وشرفه شرفها، ولاسيما إذا كان من بيت الشرف ومعدن السيادة ، وإذا سفل أحدها اهتمت به غاية الاهتمام، وسترت عيوبه ما أمكنها فإن عاره لاحق بها ، فهو من عظيم التوبيخ لهم ودقيق التقريع لهم ، وزاد ذلك بقوله « وهو » أي والحال أنه « الحق » أي الثابت الذى لا يضره التكذيب به « قل » لهم « لست عليكم بوكيل » أي حفيظ ، وكل إلى أموركم فأجازيكم أو أمنعكم من التكذيب ، إنما أنا منذر والله الحفيظ « لكل نبأ » أي خبر أخبركم به من هذه الأخبار « مستقر » أي وقت يقع ويستقر ومنه عذابكم « وسوف تعلمون » صحة ذلك عند وقوعه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وفى ذلك تهديد لهم .

٦٨ — وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ .

٦٩ — وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

٧٠ — وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث الكريمة توجيه إلهى كريم لرسوله الأعظم ، محمد

صلوات الله وسلامه عليه ، بأن يعرض عن الخائضين فى آيات الله ، وعن الظالمين لأنفسهم وللحقيقة بالطعن فى كتاب الله ، حتى يخوضوا فى حديث غير هذا الحديث ؛ فإن نسى فجلس معهم ، وقعد أثناء طعنهم فى كتاب الله ، فلا يقعد معهم بعد الذكرى ، وليس على المؤمنين شىء من حساب المشركين الجاحدين ؛ ويأمر الله عز وجل رسوله العظيم بأن يذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا ، وأن يذكر بالقرآن حتى لا تهلك نفس بضلالها وسيئاتها ، وحينئذ لا يكون لها من دون الله ولى ولا شفيع ، ولا يقبل منها فدية تفتدى بها من العذاب ، وهؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا هم الذين أهلكوا بما كسبوا وما اجترحوا من أعمال سيئة ، ولهم عذاب شديد فى الآخرة بكفرهم وذنوبهم وأعمالهم الفاسدة القبيحة .

أنذر الله جل جلاله ـ فيما سبق من آيات ـ الأمة المحمدية ، أمة الإسلام مثل هذا العذاب الذى بعثه على مكذبى الرسل من الأولين وعلى المتفرقين المختلفين فى دينهم من أهل الكتاب ، وجعل ذلك مع ما قبله من حجج القرآن وآياته المثبتة لكونه من عند الله ، لا من عند رسوله الأمى الذى لم يكن يعلم شيئاً من أخبار الأمم ولا من سنن الله فى مكذبى الرسل ومتبعيهم ، تلك الآيات التى يرجى لمن تدبرها فقه الأمور وإدراك حقائق العلم ، وذكر بعد هذا الإنذار والبيان تكذيب قريش بالقرآن ، وكون الرسول مبلغاً لا خالقا للإيمان ، وإحالتهم فى ظهور صدق أنبائه على الزمان . ثم بين فى هذه الآيات كيف يعامل الذين يخوضون فى آيات الله بالباطل من هذه الأمة ـ أعنى أمة الدعوة والذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً من كفارها الذين لم يجيبوا دعوتها ، بما يعلم منه حكم من يدخل فى عموم ذلك ممن أجابوها ، على نحو ما تقدم فى الآيات التى قبلها ، فقال : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا » أى القرآن بالاستهزاء والتكذيب « فأعرض عنهم » أى فاتركهم ولا تجالسهم « حتى يخوضوا فى حديث غيره » أى حتى يكون خوضهم فى الآيات والاستهزاء . وجاء بالضمير مذكرا على معنى الآيات لأنها القرآن ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد

غيره ، ليكون أردع ، أو لغيره ، أى وإذا رأيت أيها الإنسان « وإما ينسينك الشيطان » أى فقعدت معهم ثم تذكرت « فلا تقعد بعد الذكرى » أى التذكر لهذا النهى « مع القوم الظالمين » هنا إظهار موضع الإضمار دلالة على الوصف الذى هو سبب الخوض ، وروى أن المسلمين قالوا : لئن كنا نقوم كلما استهزأوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس بالمسجد ونطوف فنزل « وما على الذين يتقون » الله « من حسابهم » أى الخائضين « من شىء » أى شىء مما يحاسبون عليه إذا جالسوهم « ولكن » عليهم « ذكرى » أى تذكرة لهم وموعظة ويمنعوهم من الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها ، وقال سعيد بن جبير ومقاتل : هذه الآية منسوخة بالآية التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » الآية ، وذهب الجمهور إلى أنها محكمة لا نسخ فيها ؛ لأنها خبر والخبر لا يدخله النسخ، ولأنه إنما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكرة والموعظة « لعلهم يتقون » الخوض فى الآيات « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا » باستهزائهم به « وغرتهم الحياة الدنيا » أى خدعتهم وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق أى فاتركهم ولا تبادل بتكذيبهم واستهزائهم ، وهذا يقتضى الإعراض عنهم وهو قبل الأمر بالقتال ، ثم نسخ ذلك الإعراض بآية السيف « وذكر » أى أوعظ « به » أى القرآن الناس « أن » أى كراهة أن « تبسل نفس » أى تسلم إلى الهلاك « بما كسبت » أى بسبب ما عملت ، وأصل الإبسال أو البسل المنع ، ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تفلت منه ، والباسل الشجاع لامتناعه من قوته ، وهذا بسل عليك أى حرام ، « ليس لها من دون الله ولى » أى ناصر « ولا شفيع » يمنع عنها العذاب « وإن تعدل » أى تلك النفس لأجل التوصل إلى الفداء من العذاب « كل عدل » أى وإن تفد كل فداء ، والعدل : الفدية لأنها تعادل المفدى « لا يؤخذ منها » ما تفدى به « أولئك » أى الذين عملوا هذه الأعمال البعيدة عن الخير « الذين أبسلوا » أى سلموا إلى العذاب « بما كسبوا » أى بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائفة « لهم شراب من حميم »

أى ماء هو فى غاية الحرارة «و» لهم «عذاب أليم» أى مؤلم «بما» أى بسبب ما «كانوا يكفرون» أى هم بين ماء يغلى يتجرجر فى بطونهم ونار تشتعل فى أبدانهم بسبب كفرهم .

٧١ — قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ ٱللَّهِ مَالاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

٧٢ — وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

٧٣ — وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ .

وفى هذه الآيات الثلاث رد على دعاة الشرك والوثنية ، وإعلان بمقاطعة الشرك والمشركين ، لأن عبادة الأوثان التى لا تضر ولا تنفع ضلال وإثم ، ولأن عبادتها رد على الأعقاب ، وانتكاس فى الفطرة الإنسانية ومسخ قبيح للصورة الجميلة للحياة ، وما مثل من يشرك بالله بعد أن هداه الله إلى الإيمان إلا كمثل من استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى يقولون له أتنا ، وليس هناك هدى إلا هدى الله ؛ وفيها يأمر الله عز وجل رسوله بأن يعلن للناس أنه أسلم وجهه لله رب العالمين ، ويأمره بأن يقيم الصلاة وأن يتقى الله ؛ فإليه المحشر وإليه المصير ، وهو خالق السموات والأرض بالحق ، وقوله الحق الصادق النافذ يوم القيامة ، يوم يقول كن فيكون ، وله الملك يوم ينفخ فى الصور عند البعث للحساب والنشور ، وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم فى أعماله ، الخبير بكل الخفايا التى تغيب على الناس .

ضرب الله تعالى فى الآية الأولى من هذه الآيات مثلا يتضح لمن عقله من المشركين ما تقرر فيها وفى الآيات قبلها من بينات التوحيد ودلائله ، ويظهر لهم سوء حالهم وقبح مآلهم فى شركهم ، ويعلل لهم مابدىء به سياق الآيات الأخيرة فيه ( أى التوحيد ) من النهى عن دعاء غير الله وعن اتباع أهوائهم ، ويشرح لهم مفهومه ، ويفصل لهم مضمونه ويبين لهم مقابله ، وأعنى بهذا السياق ما فى حيز قوله تعالى « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » الخ وحيز قوله « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » وما يليه من الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة ، وختم الآية بالأمر بالإسلام المقابل لطريق الضلال والهوى .
وبدأ الآية الثانية ببيان أعظم أعمال طريق الهدى ، والآيتان بعدها فى التذكير بدلائل ذلك وعاقبته ، وصدق وعيده تعالى وكمال علمه وحكمته فيه .
قال تعالى « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى دين آبائهم « أندعو » أى نعبد « من دون الله » أى غيره « مالا ينفعنا » أى بعبادته « ولا يضرنا » أى بتركها وهو الأصنام « ونرد على أعقابنا » أى نرجع إلى الشرك « بعد إذ هدانا الله » إلى التوحيد ودين الإسلام « كالذى استهوته » أى أضلته « الشياطين فى الأرض » حالة كونه « حيران » تائها ضالا لا يهتدى لوجهه ولا يدرى كيف يسلك « له » أى المستهوى « أصحاب » أى رفقة وخلان « يدعونه إلى الهدى » أى إلى الطريق المستقيم ويقولون له « ائتنا » فلا يجيبهم ، والاستفهام للإنكار وجملة التشبيه للحال من الضمير فاعل نرد ، وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو إلى عبادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ومن يدعو إلى عبادة الله عز وجل الذى يضر وينفع ، يقول : مثلهما كمثل رجل فى رفقته يدعونه إليهم يقولون هلم إلى الطريق المستقيم وجعل الشياطين يدعونه إليهم فبقى حيران لا يدرى أين يذهب ، فإن أجاب الشياطين ضل وهلك ، وإن أجاب أصحابه اهتدى وسلم « قل » لهم « إن هدى الله » أى الذى هو الإسلام « هو الهدى » أى وحده وما عداه ضلال « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » أى بأن نخلص العبادة له ، لأنه المستحق العبادة لا غيره « وأن أقيموا الصلاة

واتقوه ، عطف على لنسلم أى للإسلام ولإقامة الصلاة ، لأن فيها ما يقرب إلى الله ؛ روى أن عبد الرحمن بن أبى بكر دعى إلى عبادة الأوثان فنزلت . وإذا كان هذا وارداً فى شأن أبى بكر رضى الله عنه فكيف قيل للرسول صلى الله عليه وسلم « قل أندعو » ؟ والجواب أن ذلك إظهار للاتحاد الذى كان بينه صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين خصوصا الصديق رضى الله تعالى عنه « وهو الذى إليه » لا إلى غيره بعد بعثكم من الموت « تحشرون » يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم « وهو الذى خلق السموات والأرض » على عظمتها « بالحق » أى بسبب إقامة الحق ، وقيل : خلقهما بكلامه الحق الذى هو قوله ( كن ) وهو دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق « و » اذكر « يوم يقول » الله للخلق « كن فيكون » أى فهو يكون ، وهو يوم القيامة يقول للخلق : قوموا أحياء « قوله » تعالى « الحق » أى الصدق الواقع لا محالة « وله الملك يوم ينفخ فى الصور » أى من إسرافيل ، وإنما أخبر سبحانه وتعالى عن ملكه يومئذ وإن كان الملك له سبحانه وتعالى فى كل وقت فى الدنيا والآخرة ، لأنه لا منازع له يومئذ فإن من كان يدعى الملك من الجبابرة والملوك والحكام وسائر الطغاة الذين كانوا فى الدنيا قد زال ملكهم فاعترفوا أن الملك لله الواحد القهار ، وأنه لا منازع له فيه ، وعلموا أن الذى كانوا يدعونه من الملك فى الدنيا غرور وباطل ، واختلف العلماء فى الصور المذكور فى الآية فقال قوم : هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن ، وقال مجاهد : الصور قرن كهيئة البوق ، ويدل على هذا القول ما روى أن أعرابيا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه ، وقال أبو عبيدة : الصور جمع صورة والنفخ فيها إحياؤها ، وإسرافيل ينفخ فى الصور على ما يروى نفختين . نفخة للتأهب للقيام من القبور ونفخة البعث للحساب « عالم الغيب والشهادة » أى ماغاب وما شوهد فلا يغيب عن علمه تعالى شيء « وهو الحكيم » أى فى جميع أفعاله وتدبير خلقه « الخبير » ببواطن الأشياء كظواهرها بكل مايعملونه من خير أو شر .

وبهذا ينتهى هذا الربع -السادس- من الجزء السابع من القرآن الكريم، وخلاصة ما اشتمل عليه من آراء هى :

١ — التدليل على قدرة الله فى السماء والأرض والكون والحياة ، فهو العالم بالغيب ، ويعلم الخفى من الأمور والدقيق من الأشياء ، يعلم ما فى البر والبحر ، حتى الورقة تسقط من الشجرة يعلمها ، وحتى البذرة الصغيرة تسقط فى ظلمات الأرض ، وحتى أمر النبات كله رطبه ويابسه ، قد أحاط به الله علما ، بعلمه الشامل الذى أحصى كل شىء ، كالكتاب فيه تسجيل لكل شىء ، أو أن علمه سجل على اللوح المحفوظ ففيه بيان لكل شىء . . والله عز وجل هو خالق اليقظة والنوم والحركة والسكون ، وهو الذى تكون بيده أرواح البشر فى نومهم ، وهو الذى يردها إليهم حين يستيقظون من نومهم ، وهو الذى يحيط علما بكل ما يعمل الناس فى غدوهم ورواحهم ، وهو الذى يتركهم أحياء حتى يستوفوا أجلهم المقدر لهم ، وبعد ذلك يموتون ويبعثون ويكون إلى الله مرجعهم ويحاسبهم بكل ماعملوا فى الدنيا وبكل ما كان منهم ، ويجازيهم عليه ، وإنما قال : « يتوفاكم بالليل » وقرن بها « يعلم ما جرحتم بالنهار » لما فى ذلك من روعة المقابلة وبلاغتها وسحرها وجمالها ، وأخر « ثم يبعثكم فيه » ليضم هذا البعث المستمر كل يوم بالبعث الأخير العجيب الذى يكون يوم القيامة ، وهو بعث الأموات من قبورهم .. ومن دلائل قدرة الله عز وجل أنه الذى يرسل عليهم حفظة يحفظونهم بأمر الله ، حتى يجىء الموت إلى الإنسان فتتوفاه ملائكة الموت وهم لا يفرطون فى شىء مما أمروا به - ويمضى حين ، ويرد الأموات جميعا إلى الله بالبعث فيحكم بينهم ، ويحاسبهم على أعمالهم ، وله الحكم ، وهو أسرع الحاسبين .. وليس هناك دليل على قدرة الله وعلى وجوده أكثر من ذلك ، فكيف يشرك به المشركون ؟ . .

٢ — الله موجود فى كل شىء وفى كل الوجود ، والله موجود يشعر بوجوده الإنسان فى الشدة والرخاء ، أليس هو الذى ينجى الإنسان من ظلمات البر والبحر وشدائدهما ؟ أليس هو الذى يتضرع إليه الناس فى الشدة والرخاء؟

أليس هو القادر على أن يبعث على الناس العذاب حتى من السماء ومن جوف الأرض ، وأليس هو القادر على أن يفرق الناس شيعاً واحزابا متخالفة متخاصمة يحارب بعضها بعضا ، ويذيق بعضها البعض الآخر الوبال والنكال .

٣ — المشركون المكذبون بالقرآن وبرسالة محمد عليه السلام عجب لهم وأى عجب ، عجب لهم يكذبون بالحق من عند الله . إن أمرهم إلى الله ، ومحمد صلوات الله عليه ليس وكيلا عليهم ، ولا مسئولا عن عقائدهم وأعمالهم . . إن مصيرهم إلى الله ، وحسابهم على الله ، وبيده عز وجل وحده عذابهم .

٤ — وجوب ترك مجالسة المشركين الذين يطعنون فى مجالسهم على الإسلام والقرآن وعلى محمد عليه السلام ، ووجوب ترك مصاحبة الذين يتخذون دينهم لهوا وسخرية ، والذين غرتهم الحياة الدنيا . . وما إلى ذلك ؛ فعلى الرسول الاستمرار فى الدعوة وتبليغ الرسالة ، والتذكير بكتاب الله ، حتى يعلم الناس الضلال من الهدى والظلام من النور ، وحتى لا يقعوا فى الشر والإثم والكفر فينالهم عقاب الله الشديد يوم لا يكون لهم من دون الله ولى ولا شفيع ، ولا يقبل منهم فداء ، يوم يرى المشركون مصيرهم فى العذاب الشديد على كفرهم بأعينهم .

٥ — الرد على المشركين وتسفيه عقيدتهم فى الشرك ، ورفضها ، فليس من المعقول أن يعبد الناس إلهاً عاجزا لا ينفع ولا يضر ، بل إنما يعبد إلهاً قويا قادراً بيده الملك وبيده النفع والضر ، وكيف يشرك إنسان بالله ، فيطمس نور الفطرة الإنسانية من قلبه ، ويرد على أعقابه خاسئا خاسراً بعد إذ هداه الله ؛ فيكون مثله كمثل الذى استهوته الشياطين فتبعها ، وتركته فى الأرض حيران ، يدعوه أصحابه إلى الهدى يقولون له : اخرج من حيرتك وضلالك ، وتعال إلينا وأقبل علينا

٦ — الهدى هو هدى الله وقد أمر الناس بالإسلام وبطاعة الله رب العالمين ، وبإقامة الصلاة ، وبتقوى الله ، الذى إليه مصير الناس ، والذى خلق السموات والأرض والحياة ، والذى بيده البعث والنشور والحساب ، يوم

يقول كن فيكون ، يوم يكون قوله الحق ، وله وحده الملك ، وهو عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير .

الربع السابع

٧٤ — وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

٧٥ — وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ .

٧٦ — فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ .

٧٧ — فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ .

٧٨ — فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ .

٧٩ — إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .

٨٠ — وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ .

٨١ — وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم

بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

ثمانى آيات كريمات هن مطلع الربع السابع من الجزء السابع من القرآن الكريم ، وفيها تصوير بليغ لقصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ومع قومه ، ودعوته للحنيفية البيضاء ، وللشريعة السمحاء ، وقد بدأ الله سبحانه هذه السورة بعد حمد نفسه ببيان أصول الدين ومحاجة المشركين ، فبين استحقاقه للعبادة وحده وإشراكهم به وتكذيبهم بالآيات التى أيد بها رسوله ، ورد مالهم من الشبهة على الرسالة ، ثم لقن رسوله طوائف من الآيات البينات فى إثبات التوحيد والرسالة والبعث ، ثم أمره فى هذه الآيات بالتذكير بدعوة أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلى مثل ما دعا إليه من التوحيد وتضليل عبدة الأصنام ، وما أراه الله من ملكوت السموات والأرض وما استنبطه هو منه من آيات التوحيد وبطلان الشرك وإقامة الحجة على أهله ، تأييداً لمصداق دعوته فى سلالة ولده إسماعيل عليهم الصلاة والتسليم ، ولإبراهيم المكانة العليا من إجلال الأمة العربية كما أن اليهود والنصارى متفقون على إجلاله . .

وكان اسم والد إبراهيم « آزر » كما سماه القرآن الكريم فى هذه الآيات وفى سفر التكوين أن اسمه « تارح » بفتح وحاء مهملة ، وقالوا : إن معناه « متكاسل » ، وأكثر المفسرين والمؤرخين واللغويين يقولون : إن اسمه تارخ بالخاء المعجمة أو المهملة ، وأن آزر لقبه ، أو اسم أخيه أو أبيه أو صنمه .

وقوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » اختلف العلماء فى لفظة « آزر » فقال مجاهد : آزر اسم أبى إبراهيم وهو تارح ـ بالحاء المهملة أو بالخاء المعجمة ، وهو فى التوراة تارح ، فعلى هذا يكون لأبى إبراهيم اسمان : آزر وتارح ، مثل يعقوب وإسرائيل اسمان لرجل واحد ؛ ويحتمل أن يكون اسمه آزر وتارح لقب له أو بالعكس ، فالله سماه آزر وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك ، وكان آزر أبو إبراهيم من « كوثى » وهى قرية من سواد الكوفة ، وقال سعيد بن المسيب ومجاهد : آزر اسم صنم كان والد إبراهيم

يعبده وإنما سماه بهذا الاسم لأن من عبد شيئا وأحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسماً له ؛ فهو كقوله تعالى « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » وقيل معناه : وإذ قال إبراهيم لأبيه يا عبد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، والأول أصح لأن آزر اسم أبي إبراهيم لأن الله تعالى سماه به ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يومَ القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ـ الحديث ؛ فسماه النبي صلى الله عليه وسلم آزر أيضا ولم يقل أباه تارح كما نقل عن النسابين والمؤرخين ، فثبت بهذا أن اسمه الأصلي آزر لا تارح ، وكان أهل تلك البلاد وهم الكنعانيون يعبدون النجوم في السماء والأصنام في الأرض ، فيجعلون لكل نجم صنما ، فإذا أرادوا التقرب إلى ذلك النجم عبدوا ذلك الصنم ليشفع لهم عند ذلك النجم ، فقال إبراهيم : منكراً عليه منبها له على ظهور فساد ما هو مرتكبه « أتتخذ » أي أتكلف نفسك إلى خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى بأن تجعل « أصناما آلهة » أي تعبدها وتخضع لها ولا نفع فيها ولا ضر « إني أراك وقومك » أي في اتفاقكم على هذا « في ضلال » أي بعد عن الصراط المستقيم « مبين » أي ظاهر جداً ببديهة العقل مع مخالفته لدعوة الأنبياء من آدم عليه السلام فمن بعده « وكذلك » أي ومثل هذا التبصير العظيم الشأن « نري إبراهيم » أي نبصره وهي حكاية حال ماضية « ملكوت السموات والأرض » أي عجائبهما وبدائعهما ، والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة ، وقال ابن عباس : خلق السموات والأرض ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : يعني آيات السموات والأرض ، وذلك أنه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب حتى رأى مكانه في الجنة ، وكشف له عن الأرض حتى نظر أسفل الأرضين ورأى ما فيها من العجائب ، وروى أن إبراهيم أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ، ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه ، فقال الرب تبارك وتعالى : يا إبراهيم ، إنك رجل مجاب الدعوة

فلا تدعو على عبادى ، فإنما أنا من عبادى على ثلاث خلال : إما أن يتوب إلى فأتوب عليه ، وإما أن أخرج منه نسمة تعبدنى ، وإما أن يبعث إلى فإن شئت عفوت عنه ، وإن شئت عاقبته ، وفى رواية : فإن تولى فإن جهنم من ورائه، وقال قتادة: ملكوت السموات : الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض : الجبال والشجر والبحار ، والملكوت المملكة أو الملك العظيم والعز والسلطان ، وإطلاق الصوفية إياه على عالم الغيب اصطلاح ، قال فى اللسان : وملك الله تعالى وملكوته سلطانه وعظمته ، ولفلان ملكوت الحكم أى عزه وسلطانه وملكه ، وعن اللحيانى ، والملكوت من الملك كالرهبوت من الرهبة وقال الراغب : والملكوت تختص بملك الله تعالى ، وصرح بعضهم بأن هذه التاء للمبالغة على قاعدة زيادة المبنى لزيادة المعنى ، فالملكوت الملك العظيم والرحموت الرحمة الواسعة والرهبوت الرهبة الشديدة . وروى عن عكرمة أن كلمة ملكوت نبطية وأصلها بلسانهم ملكوتا ، وفى كتب اللغة أن النبط والانباط جيل من الناس يسكنون البطائح وغيرها من سواد العراق ، فهم بقايا قوم إبراهيم فى وطنه الأصلى إذ كانت سلسلة نسبهم محفوظة ، ويقول المؤرخون إنهم من بقايا العمالقة وأنهم هاجروا من العراق بعد سقوط دولة الحموراببين وتفرقوا فى جزيرة العرب ثم أنشأوا دولة فى الشمال منها . وقد روى عن على وابن عباس أن كلامنهما قال : إننا نبط من كوثى ، وكوثى بلد إبراهيم كما يحفظ عن العرب ، ومراد الخبرين أن بنى هاشم من ذرية إبراهيم وأن النبط من قومه ، وفيه إنكار احتقارهم لنسبهم أو ضعف لغتهم ، وقيل: إن مرادهما به التواضع وذم التفاخر بالأنساب ، وروى عن ابن عباس أن المراد بملكوت السموات والأرض خلقهما أى كقوله تعالى « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » ، وعن مجاهد أنه آياتهما ، وعنهما وعن قتادة أنه الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والبحار ، وعن مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والسدى أن الله تعالى أراه ما وراء مسارح الأبصار من السموات والأرض حتى انتهى بصره إلى العرش ، وزاد بعضهم أنه أراه

خفايا أعمال العباد ومعاصيهم ، وليس لهذه الأقوال الأخيرة حجة من الحديث المرفوع، وإنما استنبطوها فيما يظهر من إسناد الإرادة إلى الله عز وجل ، فإنه يدل على عناية خاصة ، واختار ابن جرير كما يقول الشيخ رشيد رضا مما رواه من تلك الأقوال أنه تعالى أراه من ملكوت السموات الأرض ما فيهما من الشمس والقمر والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما وجلى له بواطن الأمور وظواهرها ، ويتحقق ذلك بهدايته إياه إلى وجوه الحجة فيها على وحدانيته تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ، وفضله ورحمته ، ويدل على ذلك تعليل الإرادة ، وما يترتب عليها من إقامة الحجة .

والمعنى أن الله تعالى لما بدأ يريه ملكوت السموات والأرض تلك الإرادة التي عللها بما تقدم آنفا ، كان من أول أمره في ذلك أنه لما أظلم عليه الليل ، وستره أو ستر عنه ما حوله من عالم الأرض نظر في ملكوت السماء فرأى كوكبا عظيما ممتازاً على سائر الكواكب بإشراقه وجذب النظر إليه - يدل على ذلك تنكير الكواكب ، وقيل : إن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لأن ذلك لا يدرك إلا بالعقل ، أي فأريناه ذلك ليستدل به على توحيدنا « وليكون من الموقنين » واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة ؛ لأن الإنسان في أول الحال لا ينفك عن شبهة ؛ فإذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سببا لحصول اليقين والطمأنينة في القلب وزالت الشبهة ، عند ذلك قال ابن عباس في - وليكون من الموقنين - جلى له الأمر سره وعلانيته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق ، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى : إنك لا تستطيع هذا ، فرده الله تعالى كما كان قبل ذلك « فلما جن عليه الليل » أي دخل فيه « رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل » أي غاب « قال لا أحب الآفلين » وذلك على ما تروى كتب التفسير القديمة أن إبراهيم عليه السلام ولد في زمن نمروذ بن كنعان ، وكان النمروذ أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته ، وكان له كهان ومنجمون فقالوا له : إنه يولد في بلدك هذا غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك

وزوال ملكك على يديه ، ويقال : إنهم وجدوا ذلك فى كتب الأنبياء ، وقيل: إن نمروذ رأى فى منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ، ففزع من ذلك فزعا شديداً ، ودعا السحرة والكهنة فسألهم فقالوا هو مولود يولد فى دولتك فى هذه السنة فيكون هلاكك وهلاك ملكك وأهل بيتك على يديه ، فأمر بذبح كل غلام يولد فى ناحيته فى تلك السنة ، وكانت أم إبراهيم صغيرة لا يظن فيها الحمل ، فحملت بإبراهيم ، ولما حملت أم إبراهيم به قال الكهان لنمروذ : إن الغلام الذى أخبرناك عنه قد حملت أمه الليلة فأمر نمروذ بذبح الأطفال ، ولما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلا إلى مغارة ، وكانت قريبة منها فولدت إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ، وتركته فى المغارة ورجعت إلى بيتها وكانت تختلف إليه ، وكان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها فقالت : ولدت غلاما فمات فصدقها ، ومكث إبراهيم فى المغارة خمسة عشر شهراً ، ثم قال لأمه : اخرجينى فأخرجته عشاء ، فنظر وتفكر فى خلق السموات والأرض وقال : إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى مالى إله غيره ، ثم نظر فى السماء فرأى كوكبا فقال : هذا ربى ، ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب، فلما أفل قال لا أحب الآفلين « فلما رأى القمر بازغا » أى مبتدئا فى الطلوع « قال هذا ربى » فأتبعه بصره « فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » ، ويروى أنه لما شب إبراهيم وهو فى الكهف قال لأمه : من ربى ؟ قالت أنا ؟ قال : فمن ربك ؟ قالت أبوك، قال: فمن رب أبي؟ قالت : اسكت فسكت ، ثم رجعت إلى زوجها فقالت : الغلام الذى كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض سيكون هو ابنك ، ثم أخبرته بما قال ، قال : فأتاه أبوه ، فقال له إبراهيم: يا أبتاه : من ربى ؟ قال : أمك ،قال : فمن رب أمى ؟ قال : أنا ، قال : فمن ربك ؟ قال : نمروذ ، قال : فمن رب نمروذ ؟ فلطمه ،وقال : اسكت ، فلما خرج من الكهف وجن عليه الليل رأى المشترى قد طلع وقيل : الزهرة ، وكانت تلك الليلة فى آخر الشهر فتأخر القمر فيها فرأى الكوكب ، فقال ذلك . . وكان

إبراهيم مسترشداً طالبا للتوحيد حتى وفقه الله تعالى فلم يضره ذلك، وكان ذلك في طفوليته قبل قيام الحجة عليه فلم يكن كفرا ، وقيل : إن ذلك مؤول ، إذلا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو موحد لله فقيل : إن إبراهيم ذكر ذلك على وجه الاحتجاج عليهم بقوله : هذا ربي ، أي في زعمكم ، فلما غاب ، قال : لو كان إلها لما غاب، فلما أفل قال : لاأحب الآفلين فضلا عن عبادتهم ، فإن الانتقال والاحتجاب يقتضي الإمكان والحدوث وينافي الألوهية فلا ينجع فيهم ذلك ، فلما رأى القمر بازغا قال لهم : هـذا ربي فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي ، أي يثبتني على الهدى ، وكان دعاء إبراهيم : « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » ، « فلما رأى الشمس بازغة » أي عند طلوع النهار « قال » لهم « هذا ربي هذا أكبر » أي من الكواكب والقمر ولم يقل هذه إذ أن الشمس مؤنثة لأنه أراد هذا الطالع ، أورده إلى المعنى وهو الضياء والنور ، لأنه رآه أضوأ من النجم والقمر، أو ذكره لتذكير خبره «فلما أفلت » أي غربت وقويت عليهم الحجة فلم يرجعوا « قال ياقوم إني بريء مما تشركون » بالله من الأصنام المحدثة المحتاجة إلى محدث التي تجعلونها شركاء لخالقها، وقيل : إن إبراهيم قال ذلك على وجه الاستفهام ، وتقديره : أهذا ربي كقوله « أفإن مت فهم الخالدون » أي إنهم الخالدون ، وذكره على وجه التوبيخ منكراً لفعلهم ، وقيل : إنه أراد أن يستدرجهم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجعلهم شركاء ، ومثل هـذا مثل من ورد على قوم يعبدون صنما فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدروا في كثير من الأمور عن رأيه ، إلى أن دهمهم عدو فشاوروه في أمره فقال : الرأى أن تدعوا هذا الصنم حتى ينكشف عنا ما أصابنا ، فاجتمعوا حوله يتضرعون ، فلما تبين لهم أنه لاينفع ولايدفع الضر دعاهم إلى أن يدعوا الله فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يجدون فأسلموا ، واحتج عليهم بالأفول دون البزوغ لأن الاحتجاج بالأفول أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب ... ولما ظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم ، وقالوا له : من تعبد أنت ؟ أظهر ما هو عليه من الحق بقوله « إني وجهت وجهي » أي أخلصت

قصدى وصرفت عبادتى « للذى فطر السموات والأرض » أى ابتدعهما وخلقهما وهو الله تعالى « حنيفا » أى إلى الدين القيم عن كل دين يخالفه ، وأصل الحنيف المائل وهو عن طريق الضلال إلى طريق الاستقامة ، وقيل : الحنيف هو الذى يستقبل الكعبة بصلاته « وما أنا من المشركين » تبرأ من الشرك الذى كان عليه قومه « وحاجه قومه » أى خاصموه فى التوحيد وهددوه بالأصنام أن تصيبه بسوء إن لم يرجع عن الكلام فيها « قال » لهم « أتحاجونى » أى تجادلونى « فى الله » أى وحدانيته « وقد » أى والحال أنه قد « هدانى » إلى توحيده ومعرفته « ولا أخاف ماتشركون به » شيئا « إلا أن يشاء ربى شيئا » أى لكن إن شاء ربى شيئا من المكروه يصيبنى فيكون لأنه قادر على النفع والضر ، وإنما قال إبراهيم ذلك لاحتمال أن الإنسان قد يصيبه فى بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه إلى الأصنام فنفى هذه الشبهة بذلك « وسع ربى كل شىء علما » أى أحاط علمه بكل شىء « أفلا تتذكرون » فتميزوا بين الحق والباطل والقادر والعاجز « وكيف أخاف ما أشركتم » به أى الأصنام وهى لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع « ولا تخافون » أنتم « أنكم أشركتم بالله » وهو تعالى حقيق بأن يخاف منه كل الخوف لأنكم تسوون بين القادر والعاجز « مالم ينزل به » أى بعبادته « عليكم سلطانا » أى حجة وبرهانا وهو القادر على كل شىء « فأى الفريقين » أى حزب الله وحزب المشركين « أحق بالأمن » أى الموحدون أو المشركون « إن كنتم تعلمون » أى إن كان لكم علم فأخبرونى عما سألتكم عنه والأحق بذلك هم الموحدون فاتبعوهم .

فى هذه الآيات الثمان السابقة يقص الله عز وجل علينا قصة إبراهيم مع آسية ومع قومه ودعوته لهم إلى التوحيد .

وفى الإصحاح السادس حتى التاسع من سفر التكوين ذكر لقصة نوح ورسالته ، وفى الإصحاح الحادى عشر ذكر لتارح والد إبراهيم ، وفى الإصحاح

الثانى عشر من سفر التكوين ذكر لهجرة إبراهيم - إبرام كما يسميه العهد القديم - إلى مصر ، وفى الإصحاح الثالث عشر ذكر لهجرة إبراهيم ولوط من مصر إلى « بيت إيل » أو بيت القدس ، وفى الإصحاح الخامس من سفر التكوين ذكر لرسالة إبراهيم ووعد الله له بأن يعطى لنسله هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ، وفى الإصحاح السادس عشر ذكر لهاجر ومولد إسماعيل ، وفى الإصحاح الثامن عشر ذكر لبشارة الله لإبراهيم ، وفى الإصحاح التاسع عشر ذكر للوط وقومه ، وفى الإصحاح العشرين ذكر لهجرة إبراهيم وسكناه بين قادس وشور ، وفى الإصحاح الحادى والعشرين ذكر لمولد إسحاق ولهجرة إبراهيم بهاجر وابنها إسماعيل إلى مكة ( برية فاران ) ، وفى الإصحاح الثانى والعشرين ذكر لابتلاء الله لإبراهيم بذبح ابنه ، والتوراة تجعل الذبيح هو إسحاق لا إسماعيل ، وفى الإصحاح الخامس والعشرين ذكر لوفاة إبراهيم .

وكان قوم إبراهيم يعبدون الكواكب والأصنام كما دلت عليه آثار الكلدانيين فى العراق . وقد أثبت بيروسوس وسفيلوس أن علماءهم وكهانهم كانوا يعرفون حقيقة التوحيد ولكن كانوا يدينون بها فى أنفسهم ولا يبيحونها للعامة ، وأن اليونان أخذوا هذا النفاق عنهم ، ولعل الصواب أن الذين أخذوا عنهم ، أولاهم قدماء المصريين ؛ فقد كان التوحيد منتهى علم حكمائهم وكانوا يكتمونه عن العامة ، لأن استعباد الملوك الذين هم أعوانهم لها لا يدوم إلا بالوثنية وأخذ اليونان ذلك من قدماء المصريين ، على أن هنرى رولنسن قال إن أمة من ضفاف الدجلة والفرات ارتحلت إلى أوربا بتلك العقائد منقوشة فى صفائح الآجر .

٨٢ — ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ .

٨٣ — وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن

نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

٨٤ — وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

٨٥ — وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّٰلِحِينَ .

٨٦ — وَإِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَٰلَمِينَ .

٨٧ — وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَاجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

٨٨ — ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

٨٩ — أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ .

٩٠ — أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ .

هذه الآيات الكريمة التسع فيها إشارة إلى ماينال المؤمن من أمن وسلام وطمأنينة وهدى ونور ، وإلى بعض رسل الله إلى الناس ، وأن هؤلاء الرسل قد اصطفاهم الله وهداهم إلى صراط مستقيم ، وأن ماجاءوا به هو هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ويذكر الله عز وجل أن هؤلاء الرسل قد آتاهم

الله الكتاب والحكم والنبوة ، وأنهم هم الذين هدى الله ، وبهداهم يجب أن يقتدى المقتدون .

وهذه الآيات دليل على فضل إبراهيم عليه السلام ، فهو نبي التوحيد ، وهو أبو الأنبياء ، وقوله تعالى فى هذه الآيات « ومن ذريته داود الخ » جزم ابن جرير بأن الضمير فى « ذريته » لنوح ، وتابعه على ذلك بعض المفسرين واحتجوا بأنه أقرب فى الذكر وبأن لوطا ويونس ليسا من ذرية إبراهيم ، وذهب سائر المفسرين إلى أن الضمير عائد إلى إبراهيم لأن الكلام فى شأنه ، وما أتاه الله تعالى من فضله ، وإنما ذكر نوحا لأنه جده ، فهو لبيان نعم الله عليه فى أفضل أصوله ، تمهيداً لبيان نعمه عليه فى الكثير من فروعه ، ويزاد على ذلك أن الله جعل الكتاب والنبوة فى نسلهما معا ، منفردا ومجتمعا كما قال تعالى فى سورة الحديد « ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب » ، وقال بعض هؤلاء : إن يونس من ذرية إبراهيم ، وإن لوطا ابن أخيه وقد هاجر معه فهو يدخل فى ذريته بطريق التغليب ، ويعد منها بطريق التجوز الذى يسمون به العم أبا ، وقد ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الثلاث أربعة عشر نبيا لم يرتبهم على حسب تاريخهم وأزمانهم لأنه أنزل كتابه هدى وموعظة لا تاريخا ، ولا على حسب فضلهم ومناقبهم لأن القرآن ليس كتاب مناقب ومدائح وإنما هو كتاب تذكرة وعبرة ، وقد جعلهم ثلاثة أقسام لمعان فى ذلك جامعة ، بين كل قسم منهم كما يقول صاحب تفسير المنار :

١ — فالقسم الأول داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، والمعنى الجامع بين هؤلاء أن الله تعالى أتاهم الملك والإمارة ، والحكم والسيادة ، مع النبوة والرسالة ، وقد قدم ذكر داود وسليمان وكانا ملكين غنيين منعمين ، وذكر بعدهما أيوب ويوسف وكان الأول أميراً غنيا عظيما محسنا ، والثانى وزيرا عظيما وحاكما متصرفا ، ولكن كلا منهما قد ابتلى بالضراء فصبر كما ابتلى بالسراء فشكر ، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا ملكين ،

فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة يمتاز بمزية والترتيب بين الأزواج على طرق التدلى فى نعم الدنيا ، وقد يكون على طريق الترقى فى الدين ، فداود وسليمان كانا أكثر تمتعا بنعم الدنيا ودونهما أيوب ويوسف ودونهما موسى وهارون ، والظاهر أن موسى وهارون أفضل فى هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف ، وأن هذين أفضل من داود وسليمان يجمعهما بين الشكر فى السراء والصبر فى الضراء . . وقد قال تعالى بعد ذكر هؤلاء « وكذلك نجزى المحسنين » أى بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق ، وهداية الدين وإرشاد الخلق .

٢ ـ والقسم الثانى : زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، وهؤلاء قد امتازوا فى الأنبياء عليهم السّلام بشدة الزهد فى الدنيا والإعراض عن لذاتها ، والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها ، ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين ، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم ، وإن كان كل نبى صالحا ومحسنا على الإطلاق.

٣ ـ والقسم الثالث إسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وأخر ذكرهم لعدم الخصوصية إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا أو سلطانها ما كان للقسم الأول ولا من المبالغة فى الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثانى ، وقال صاحب روح المعانى : ولم يظهر لى السر فى ذكر هؤلاء الأنبياء العظام عليهم أفضل الصلاة السلام ، على هذا الأسلوب المشتمل على تقديم فاضل على أفضل ، ومتأخر بالزمان على متقدم به ، وكذا السر فى التقرير أولا بقوله تعالى «وكذلك نجزى» الخ . وثانيا بقوله سبحانه «كل من الصالحين» والله تعالى أعلم بأسرار كلامه . ولفظ اليسع المذكور فى هذه الآيات معرب عن ايليا ؛ وهو لفظ عبرى .

وقوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » . . قيل إن هذه الآية من قول قوم إبراهيم ، فقد تذكروا لما ذكرهم وراجعوا عقولهم وفطرتهم ، فاعترفوا بالحق كما اعترفوا حين كسر أصنامهم من بعد ، إذا قال لهم « بل فعله كبيرهم هـذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم

الظالمون ، ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون » ، وقيل : إن الآية من قول إبراهيم عليه السلام صرح به إذ سكتوا عن الجواب مفحمين مبالغة فى تبكيتهم ، والصحيح أنها من كلام الله عز وجل فصل به القضاء بين إبراهيم ومن حاجه من قومه ، وقد رواه ابن جرير عن ابن إسحاق وابن زيد واختاره وقال : إنه أولى القولين بالصواب ، وقد يرجحه فى اللفظ عطف الآية التالية على هذه . وهذا هو ما اخترناه . . والأمن فى هذا الكلام يقابل الخوف فيه ، وهو الأمن من عذاب الرب المعبود لمن لا يرضى إيمانه وعبادته ، فإنهم خوفوا إبراهيم أن تمسه آلهتهم وأربابهم بسوء لجحده إياهم وعداوته لهم ، فأجاب بأنه إنما يخاف الله وحده ولا يخافهم ، والظلم الذى يلبس به الإيمان بالله ويخالطه ، فينقص منه أو ينقضه ، هو الشرك فى العقيدة أو العبادة ، كاتخاذ ولى من دون الله يدعى معه أو من دونه ولو لأجل التقريب إليه والشفاعة عنده ، ويحب كحبه ، ويعظم من جنس تعظيمه ، لاعتقاد أن له سلطاناً من وراء الأسباب ينفع به ويضر بذاته ، أو بتأثيره فى مشيئة الله وقدرته ، ولا يدخل فيه الظلم الذى ليس من شأنه أن لايلابس الإيمان ، كظلم المرء نفسه بإتيان بعض المضار ، أو ترك بعض المنافع عن جهل أو إهمال ، أو ظلم غيره ببعض الأحكام أو الأعمال ، قوله عز وجل فى هـذه الآيات : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » أى يخالطوا إيمانهم بشرك ، روى أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقالوا يا رسول الله فأينا لم يظلم نفسه؟ فقال: ليس ذلك إنما هو الشرك . ألم تسمعوا إلى ما قال لقمان لابنه : يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم « أولئك » أى الموصوفون بما ذكر « لهم الأمن » أى من العذاب المؤبد « وهم مهتدون » إلى طريق الحق والهدى والنور .

« وتلك حجتنا » جملة كاملة من مبتدأ وخبر ، و « آتيناها » خبر ثان . . أو « ( حجتنا ) بدل أو عطف بيان ، والخبر هو ( حجتنا ) ، وهى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله تعالى « فلما جن عليه الليل » الخ ، وقوله « أتحاجونى فى الله » ، « آتيناها إبراهيم » أى أرشدناه لها حجة على قومه .

« نرفع درجات من نشاء » في العلم والحكمة « إن ربك حكيم » في صنعه فيرفع من يشاء ويخفض من يشاء « عليم » بخلقه فهو الفعال لما يريد « ووهبنا له » أي إبراهيم « إسحاق » أي ابنا له « ويعقوب » أي ابنا لإسحاق فهو ابن ابنه « كلا » منهما ومن أبيهما « هدينا » « إلى سبيل الرشاد ووفقناه إلى طريق الحق والصواب « ونوحا هدينا » « من قبل » أي قبل إبراهيم « ومن ذريته » أي نوح لا إبراهيم ، لأنه تعالى ذكر في جملتهم: يونس ولوطا ـ ولم يكونوا من ذرية إبراهيم ، والصحيح أن الضمير لإبراهيم ويكون ذلك من باب التغليب « داود » كان ممن آتاه الله الملك والنبوة « وسليمان » هو ابن داود ، وهما اللذان بنيا بيت المقدس بأمر الله تعالى : داود بخطه وتأسيسه ، وسليمان بإكماله وتشييده « وأيوب » هو « ويوسف » من ذرية إسحاق بن إبراهيم ، وقدم أيوب على يوسف مع أن يوسف أقرب منه للمناسبة بينه وبين سليمان لأن كلا منهما ابتلى بأخذ كل ما في يده ثم رده الله تعالى إليه « وموسى » هو ابن عمران « وهارون » هو أخو موسى أكبر منه بسنة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين « وكذلك » أي كما جزينا ابراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه بأن رفعنا درجته ووهبنا له ذرية صالحة « نجزي المحسنين » على إحسانهم « وزكريا » « ويحيا » هو ابن زكريا « وعيسى » هو ابن مريم بنت عمران « وإلياس » قال : ابن مسعود : هو إدريس ، وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل ، وقال البغوي : والصحيح أنه غيره ، لأن الله تعالى ذكره في ولد نوح ، وإدريس جد أبي نوح وهو إلياس ابن ياسين « وكل » منهم « من الصالحين » أي الكاملين في الصلاح وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي « وإسماعيل » هو ابن إبراهيم وإنما أخر ذكره لأنه ذكر إسحاق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد ؛ فلهذا السبب أخر ذكر إسماعيل « واليسع » هو معرب (إيليا) « ويونس » هو ابن متى « ولوطا » هو ابن هارون أخي إبراهيم « وكلا » منهم « فضلنا على العالمين » أي في زمانهم ، وفضلهم بالنبوة ، وفيه دليل فضلهم على من عداهم من الخلق من إنس وملك ، ويستدل بهذه الآية من يقول : إن الأنبياء أفضل من الملائكة « ومن آبائهم

وذرياتهم وإخوانهم ، عطف على كلا أو نوحا أى وفضلنا بعض آبائهم وبعض ذرياتهم وإخوانهم، لأن أبا بعضهم كانوا مشركين ، وعيسى ويحيى لم يكن لهما ولد، وكان فى ذرية بعضهم من كان كافرا كابن نوح « واجتبيناهم » أى اخترناهم عطف على فضلنا أوهدينا « وهديناهم » أى وأرشدناهم « إلى صراط مستقيم » هو الدين الحق « ذلك » أى الذى هدوا إليه « هدى الله يهدى به من يشاء من عباده » فالله سبحانه وتعالى هو المتفضل بالهداية « ولو أشركوا » أى ولو فرض إشراك هؤلاء الأنبياء بعد علو درجتهم وفضلهم « لحبط عنهم » أى لفسد وسقط « ما كانوا يعملون » أى لكانوا كغيرهم فى حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها « أولئك الذين آتيناهم الكتاب » أى أولئك الذين سميناهم من الأنبياء ، وهم ثمانية عشر نبيا أعطيناهم الكتاب ، فالمراد بالكتاب الجنس « والحكم » أى الحكمة أو العمل الصالح « والنبوة » أى وشرفناهم بالنبوة والرسالة « فإن يكفر بها » أى بهذه الثلاثة « هؤلاء » أى أهل مكة الذين أنت بين أظهرهم « فقد وكلنا بها » أى وفقنا للإيمان بها والقيام بحقوقها « قوما ليسوا بها بكافرين » كما يوكل الرجل بالشيء فيقوم به ويتعهده ويحافظ عليه ، واختلف فى هؤلاء القوم : قال ابن عباس : هم الأنصار وأهل المدينة ، وقال الحسن وقتاده : هم الأنبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج ، والدليل عليه قوله « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وقيل هم المهاجرون والأنصار ، وقال ابن زيد: كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا أم نبيا أم صحابيا أم تابعيا ، والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها ، وليس فى الآية دليل على أنه صلى الله عليه وسلم متعبد بشرع من قبله ، واستدل بعض العلماء بهذه الآية أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال : وبيانه أن جميع الخصال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم : فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه .وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل ومجاهدة فى الله عز وجل ، وكان اسحاق ويعقوب

من أصحاب الصبر على البلاء والمحن ، وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة ، كما قال تعالى « اعملوا آل داود شكرا » ، وكان أيوب صاحب صبر على البلاء كما قال تعالى « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » ، وكان يوسف قد جمع بين الصبر والشكر ، وكان موسى صاحب الشريعة الطاهرة والمعجزات الباهرة ، وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب الزهد فى الدنيا ، وكان إسماعيل صاحب صدق ، وكان يونس صاحب تضرع وإحسان . ثم إن الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة والمتفرقة ؛ فثبت بهذا البيان أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التى كانت متفرقة فى جميعهم .

فمعنى الجملة على هذا : أولئك الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم فى الآيات المتلوة آنفا ، والموصوفون فى الآية الأخيرة بإيتاء الله إياهم الكتاب والحكم والنبوة ، هم الذين هداهم الله تعالى الهداية الكاملة فبهداهم دون ما يغايره ويخالفه من أعمال غيرهم وهفوات بعضهم اقتد أيها الرسول فيما يتناوله كسبك وعملك مما بعثتك به من تبليغ الدعوة وإقامة الحجة ، والصبر على التكذيب والجحود ، وإيذاء أهل العناد والجمود ومقلدة الآباء والجدود ، وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال ، كالصبر والشكر ، والشجاعة والحلم ، والإيثار والزهد ، والسخاء والبذل والحكم بالعدل .. وقد أوحى الله إلى خاتم رسله خلاصة سير أشهرهم وأفضلهم وهم المذكورون فى هذه الآيات وفى سائر القرآن الكريم ، وأمره أن يقتدى بهداهم ذاك . وهذه هى الحكمة العليا لذكر قصصهم فى القرآن ، وقد شهد الله تعالى بأنه جاء بالحق وصدق المرسلين ، وأنه لم يكن بدعا من الرسل ، فعلم بهذا أنه كان مهتديا بهداهم كلهم ، وبهذا كانت فضائله ومناقبه الكسبية أعلى من جميع مناقبهم وفضائلهم ، لأنه اقتدى بها كلها فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقا فيهم ، إلى ما هو خاص به دونهم . ومن الناس من قال : المراد أن يقتدى بهم فى الأمر الذى أجمعوا

عليه وهو القول بالتوحيد والتنزيه عن كل مالا يليق به تعالى فى الذات والصفات والأفعال وسائر العقليات ، وقال آخرون : المراد الاقتداء بهم فى جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة من الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم ، وقال آخرون : المراد الاقتداء بهم فى شرائعهم إلا ما خصه الدليل . وبهذا التقدير كانت الآية دليلا على أن شرع من قبلنا يلزمنا ، وقال آخرون : اللفظ مطلق فهو محمول على الكل إلا ما خصه الدليل المنفصل .

« قل » يامحمد لأهل مكة « لا أسألكم عليه » أى القرآن أو التبليغ «أجرا» أى لا أطلب على ذلك جعلا « إن هو » أى القرآن أو التبليغ « إلا ذكرى » أى عظة « للعالمين » أى الإنس والجن .

٩١ — وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

٩٢ — وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

٩٣ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ

بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ .

٩٤ — وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .

هذه الآيات الاربع الكريمة فيها رد على اليهود الذين أنكروا رسالة محمد ، وفيها إلزام لهم بالحجة ، والاستدلال بالتوراة المنزلة على موسى على صحة كون القرآن منزلا من عند الله ؛ وفيها تنويه بالقرآن الحكيم ، ووصف له بأنه مبارك مصدق الذى بين يديه ، وبأنه أنزل على محمد عليه السلام لينذر به قومه ، وفيها كذلك بيان لعظم ذنب من يفترى على الله الكذب رسلا أو أنبياء أو غيرهم ، وفيها تهديد للمشركين بالعذاب الأليم ، وتوبيخ لهم على شركهم ، وبيان لمصيرهم فى الآخرة أمام الله . .

وقوله تعالى فى هذه الآيات الكريمة « وما قدروا الله حق قدره » يقال : قدر الشيء ، أى عظمه «وما قدروا الله حق قدره» أى ماعظموه حق تعظيمه . وقال الليث : ما وصفوه حق صفته ، والقدر والقدر هنا بمعنى واحد . وعزى الأول إلى ابن عباس ، وروى عنه أيضاً أن القدر هنا بمعنى القدرة ، قال : إن الآية نزلت فى الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره . وعن الأخفش أن المعنى : ما عرفوه حق معرفته . وعن أبى العالية ما وصفوه حق صفته . وتفسيره بالمعرفة أقوى ؛ فمنكروا الوحى الذين يكفرون برسل الله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ما عرفوا الله حق معرفته ، ولا عظموه حق تعظيمه ولا وصفوه حق صفته ،

ولا آمنوا بهذا النوع من قدرته ، وهو إفاضة ما شاء من علمه بما يصلح به أمر الناس من الهدى والشرع على من شاء من البشر بواسطة الملائكة ، أو بتكليمه إياهم بدون واسطة ، أو قدرته على ما يتبع الرسالة من تأييد الرسل بالآيات ، وبهذا الاعتبار يكون تفسير القدرة بالقدر أظهر .

وقد دلت الآية على أن منكرى الوحى ما عرفوا الله تعالى حق معرفته ولا وصفوه بما يجب وصفه به ، ولا عرفوا كنه فضله على البشر إذا قالوا: إنه ما أنزل شيئاً ما على أحد منهم ، فهى دليل على أن إرسال الرسل وإنزال الكتب من شؤونه سبحانه ومتعلق صفاته فى النوع البشرى . فإنها من مقتضى الحكمة ، وأجل آثار الرحمة .

« وما قدروا » أى اليهود « الله حق قدره » أى ما عرفوه حق معرفته أو ماعظموه حق عظمته « إذ قالوا » للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد خاصموه فى القرآن « ما أنزل الله على بشر من شىء » قال سعيد بن جبير : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم يخاصم النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا ، والحبر بفتح الحاء وكسرها وهو كبير علماء اليهود فغضب ، فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شىء ، فقال له قومه : ويلك ما هذا الذى بلغنا عنك ، فقال : إنه أغضبنى فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف ، وقال السدى : نزلت فى فنحاص بن عازوراء وهو قائل هذه المقالة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قالت اليهود يا محمد أنزل الله عليك كتابا ، قال : نعم ، قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتابا ، قال الله تعالى : « قل » لهم « من أنزل الكتاب » أى التوراة « الذى جاء به موسى » أى الذى أنتم تزعمون التمسك بشرعه حال كون الكتاب « نورا » أى ذا نور أى ضياء من ظلمة الضلالة « وهدى » أى ذا هدى « للناس » يفرق به بين الحق والباطل من دينهم ، وذلك

قبل أن يبدل ويغير «يجعلونه قراطيس» أي يكتبونه فى دفاتر مقطعة «يبدونها» أى يظهرون ما يحبون إظهاره منها «ويخفون كثيرا» أى ما كتبوه فى القراطيس ، وهو ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومما أخفوه أيضاً آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم فى التوراة «وعلمتم» أى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم «ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم» خطاب لليهود إذ أن القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ، يذكرهم النعمة فيما عليهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : الخطاب لمن آمن من قريش «قل الله» أنزله راجع إلى قوله تعالى : «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى» ، أى فإن أجابوك بأن الله أنزله فذاك وإلا فقل أنت : الله أنزله إذ لاجواب غيره «ثم ذرهم» أى اتركهم «فى خوضهم» أى باطلهم «يلعبون» أى يستهزئون ويسخرون ، وفيه وعيد وتهديد للمشركين ، وقال بعضهم : هذا منسوخ بآية السيف «وهذا» أى القرآن «كتاب أنزلناه مبارك» أى كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية ، وأصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير «مصدق الذى بين يديه» أى قبله من الكتب الإلهية المنزلة من السماء على الأنبياء لأنها تشتمل على التوحيد والتنزيه لله تعالى وعلى البشارة والنذارة وقوله تعالى «ولتنذر» قرىء بالياء أى لينذر الكتاب أو بالتاء على الخطاب أى ولتنذر يا محمد «أم القرى» أى أهل مكة ، وسميت أم القرى لأنها قبلة أهل القرى ومحجهم ومجتمعهم وأعظم القرى شأنا «ومن حولها» أى جميع البلاد والقرى التى حولها شرقا وغربا «والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به» لأن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبى والكتاب والضمير يحتملهما ، ويحافظ على الطاعة وتخصص الصلاة فى قوله تعالى : «وهم على صلاتهم يحافظون» أى لأنها عماد الدين وعمود الإيمان «ومن» أى لا أحد «أظلم ممن افترى» أى اختلق «على الله كذبا» فزعم أن الله بعثه نبيا كمسيلمة والأسود العنسى ، أو اختلق عليه أحكاما كعمرو بن لحى ومتابعيه

« أو قال اوحى إلى ولم يوح إليه شيء » قال قتادة نزلت فى مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة وكان يسجع ويتكهن ، فادعى النبوة وزعم أن الله تعالى أوحى إليه وكان قد أرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع فى يدى سواران من ذهب فكبرا على وأهمانى، فأوحى الله إلى أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما : صاحب صنعاء وصاحب اليمامة مسيلمة الكذاب ، وفى لفظ الترمذى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت فى المنام كأن فى يدى سوارين فأولتهما كذابين يخرجان بعدى يقال لأحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسى صاحب صنعاء ، وقوله صلى الله عليه وسلم : فأوحى الله إلى أن انفحهما بالحاء المهملة، ومعناه الرمى والرفع، من نفحت الدابة برجلها ، ويروى بالخاء من النفخ وهو قريب من الأول، فأما مسيلمة الكذاب فإنه ادعى النبوة فى اليمامة وتبعه قوم من بنى حنيفة ، وقتل فى خلافة أبى بكر قتله وحشى قاتل حمزة وكان يقول: قتلت خير الناس يعنى حمزة وقتلت شر الناس يعنى مسيلمة الكذاب ، قتل الأول وهو كافر وقتل الثانى وهو مسلم ، وأما الأسود العنسى فقد ادعى النبوة باليمن فى آخر عهد رسول الله وقتل فى حياته صلى الله عليه وسلم قبل موته بيومين ، وأخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقتله، قتله فيروز الديلمى فقال صلى الله عليه وسلم : فاز فيروز أى حين قتل الأسود العنسى « ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » قال السدى : نزلت فى عبد الله بن أبى سرح وكان قد أسلم ، وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم، وكان إذا أملى عليه صلى الله عليه وسلم « سميعاً بصيرا » كتب « عليما حكيما » وإذا أملى عليه « عليما حكيما » كتب « غفوراً رحيما » ، فلما نزلت « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » أملاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال « تبارك الله أحسن الخالقين » ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اكتبها هكذا نزلت ، فشك عبد الله بن أبى سرح وقال : لئن كان محمد صادقا فقد أوحى إلى مثل ما أوحى إليه ، فارتد عن الإسلام وألحق بالمشركين ثم رجع بعد ذلك إلى

الإسلام فأسلم قبل فتح مكة حين نزل صلى الله عليه وسلم بمر ، وقال ابن عباس : ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله يريد المستهزئين وهو جواب لقولهم « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ، قال العلماء : وقد دخل فى حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا فى ذلك الزمان وبعده ، لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم « ولو ترى » يامحمد « إذ الظالمون » أى ولو ترى الظالمين المذكورين « فى غمرات » أى شدائد « الموت » من غمره الماء إذا غشيه فاستعير للشدة الغالبة « والملائكة باسطو أيديهم » أى بقبض أرواحهم كالمتقاضى الملازم لغريمه لا يفارقه أو بالعذاب أو الضرب يضربون وجوههم وأدبارهم يقولون لهم تعنيفا « اخرجوا أنفسكم » إلينا لنقبضها ، ونحن نعلم أنه لا قدرة لأحد على إخراج روحه من بدنه ، ففائدة هذا بيان أنهم يقولون لهم اخرجوها كرها لأن المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر ، وقيل : يقولون لهم: خلصوا أنفسكم من هذا العذاب إن قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخا لهم لأنهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب فى ذلك الوقت « اليوم تجزون عذاب الهون » أى الهوان « بما كنتم تقولون على الله غير الحق » أى كادعاء الولد والشريك ودعوى النبوة والإيحاء كذبا « وكنتم عن آياته تستكبرون » أى تتكبرون عن الإيمان بها ، والجواب محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا « و » يقال لهم إذا بعثوا للحساب والجزاء « لقد جئتمونا فرادى » أى منفردين عن الأهل والمال والولد وسائر ما افتريتموه من الأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم . وفى هذا تقريع وتوبيخ لهم لأنهم صرفوا هممهم فى الدنيا إلى تحصيل المال والولد والجاه وأفنوا أعمارهم فى عبادة الأصنام ، فلم يغن عنهم ذلك شيئا يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه فى الدنيا « كما خلقناكم أول مرة » أى حفاة عراة ، روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قرأت هذه الآية فقالت يا رسول الله : واسوأتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، لا ينظر الرجال إلى النساء ،

ولا النساء إلى الرجال « وتركتم ما خولناكم » أى ما تفضلنا به عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة « وراء ظهوركم » أى فى الدنيا فما أغنى عنكم ما كنتم منه تستكثرون « و » يقال لهم توبيخا « ما نرى معكم شفعاءكم » أى الأصنام « الذين زعمتم أنهم فيكم » أى فى استحقاق عبادتكم « شركاء » أى لله ، وقوله تعالى « لقد تقطع بينكم » بنصب النون أى لقد تقطع ما بينكم من الوصل ، أو برفعها أى لقد تقطع وصلكم ، والبين من الأضداد يستعمل للوصل والفصل « وضل » أى ذهب « عنكم ما كنتم تزعمون » أى من أنها شفعاؤكم أو ان لا بعث ولا جزاء .

هذا هو الربع السابع من هذا الجزء الكريم ، وهو فى جملته يهدف إلى إقامة الأدلة على عقيدة التوحيد ، وإلى محاربة الشرك والمشركين ، وخلاصة ما احتواه من أصول هى :

١ — إقامة البرهان الواضح على التوحيد من قصة إبراهيم مع أبيه وقومه ومع نفسه حين وقف يتأمل النجوم وملك الله الواسع فى الآفاق ، ويستدل بها على وجود الله ووحدانيته وقدرته ، ويتوجه ببرهانها إلى الله خالقها وخالق السموات والأرض حنيفا ، ويتبرأ من الشرك والمشركين ؛ وكان قوم إبراهيم الكلدانيون يعبدون النجوم والكواكب ، فخالفهم إبراهيم واستمد منها الدليل على وجود الله وقدرته ووحدانيته ؛ وفى السماء نجوم وكواكب تعد بالملايين ، لكن علماء الفلك لم يتمكنوا حتى الآن إلا من معرفة أبعاد بعض المئات منها ، لأن سائرها أبعد من أن يرى ، والذى عرف بعده من الأرض جرت العادة أن لا يحسب بعده بالأميال بل بالمسافة التى يقطعها النور فى سنة من الزمان ، فإن النور يسير ٨٦,٠٠٠ ميل فى الثانية فيقطع فى الدقيقة ٥,١٦٠,٠٠٠ ميل وفى السنة نحو ستة آلاف بليون ، وقد وجد بالرصد أن أقرب النجوم منا لا يصل نوره إلينا إلا فى أربع سنوات ونحو نصف سنة ، فيقال إن بعده عنا أربع سنوات ونصف سنة نورية . ومن النجوم ما لا يصل النور منه إلينا إلا فى ألف سنة أو أكثر ، فالنجم المسمى بالنسر الطائر يصل

النور منه إلينا فى أربع عشرة سنة ونصف سنة لأن بعده ٨٧,٠٠٠ بليون ميل والنجم المسمى بالنسر الواقع يصل النور منه إلينا فى نحو ثلاثين سنة لأن بعده عنا نحو ١٨٠,٠٠٠ بليون ميل ، والنجم المسمى بالسماك الرامح يصل النور منه إلينا فى نحو خمسين سنة لأن بعده عنا ٣٠٠,٠٠٠ بليون ، وأما الشعرى العبور وهو أسطع النجوم نوراً فبعدها عنا نحو تسع سنوات نورية، والعيوق بعده عنا نحو ٣٢ سنة نورية . وأول من قاس أبعاد النجوم بالضبط الفلكى « ستروف » فإنه قاس بعد النسر الواقع سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٣٨ فجاءت نتيجة قياسه مطابقة لنتيجة القياسات الحديثة مع أن الفلكيين يستخدمون الآن من الوسائل مالم يكن معروفا فى عصره .

٢ — تصوير الحجاج بين إبراهيم وقومه حول التوحيد والوحدانية تصويراً بارعا .

٣ — ذكر الرسل من ذرية إبراهيم ونوح ، ممن اصطفاهم الله لرسالته . واجتباهم لنبوته ، واختارهم لنشر هدايته فى الأرض .

٤ — بيان هدى الله الذى هدى به من شاء من عباده ، من الكتب والنبوات والرسالات ، وأنه يجب أن يكون القدوة والهداية التى يهتدى بها الناس جميعاً .

٥ — التنديد بالمشركين واليهود أعداء الرسالة المحمدية .

٦ — القرآن كتاب الله المبارك العظيم ، نزل مصدقاً لما بين يديه من الكتب السماوية ، وإنذاراً لمشركى مكة ومن حولها ، وهداية عامة للإنسانية ، وما أعظم شأن الذين يؤمنون به ممن يؤمنون بالآخرة ، وما أعظم من يحافظون على صلاتهم امتثالا لأمر الله والكتاب الحكيم .

٧ — الذين يكذبون على الله فى الأديان والنبوات وغيرهما لهم غضب الله وسخطه وعذابه الشديد .

إن هذا الربع الكريم حلقة من سلسلة مباركة رائعة كلها تؤيد عقيدة

التوحيد وتدعو إليه وتنفي الشرك وتهدد بالعذاب الشديد عليه ..

الربع الثامن

٩٥ — إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ .

٩٦ — فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .

٩٧ — وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

٩٨ — وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ .

٩٩ — وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

هذه الآيات الخمس الكريمة تكشف عن قدرة الله في السماء والأرض ، وعن إرادته القاهرة في الكون والوجود ؛ وهي دليل ما بعده من دليل على وجود الله ووحدانيته ، وعلى نفي الشرك والوثنية ، وتهديد المشركين والجاحدين .. والآية الأولى تشير إلى القدرة الإلهية العظيمة التي تشقق الحب والنوى ، وتخرج منها النبات والشجر ، والتي تخرج الحي من الميت ، وتخرج

الميت من الحى ، والتى تشقق الإصباح من ظلمة الليل البهيم ، والتى جعلت الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، والتى جعلت النجوم هدى للعالمين فى ظلمات البر والبحر ، والتى خلقت الناس جميعاً من نفس واحدة ، والتى تنزل المطر من السماء فيخرج به النبات والشجر من كل شيء متشابهاً وغير متشابه . فهل هناك قدرة كقدرته ، أو عظمة كعظمته ، وهل هناك من يستحق العبادة غيره ؟ إن هذه الآيات تدل أوضح الدلالة على وحدانية الله تعالى وعلى قدرته وعلى علمه وحكمته ، وعلى لطفه ورحمته ، وقد جاءت تالية لطائفة من الآيات فى أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد والبعث والرسالة ، فهى مزيد تأكيد فى إثباتها ، وكمال بيان فى معرفة الله تعالى ، بما فيها من بيان سننه وحكمه فى الإحياء والإماتة والأحياء والأموات ، وتقديره وتدبيره لأمر النيرات فى السموات ، وأنواع حججه ودلائله فى أنواع النبات ، بقوله تعالى « إن الله فالق الحب » أى عن النبات « والنوى » أى عن النخل ، وقيل : المراد الشق الذى فى البذرة والنواة ، والحب جمع حبة وهى بذرة النبات مما لم يكن له نواة ، والنوى جمع نواة وهى كل ما لم يكن حبا كالتمر والمشمش وغيرهما ، وقال الضحاك : فالق الحب والنوى يعنى خالق الحب والنوى « يخرج الحى من الميت » أى كالإنسان من النطفة والطير من البيضة « ومخرج الميت من الحى » كالنطفة من الإنسان والبيضة من الطائر و « مخرج » معطوف على « فالق » كما قال الزمخشرى ، ويصح عطفه على « يخرج » لأن عطف الإسم المشابه للفعل على الفعل صحيح كعكسه ، وهو عطف الفعل على الإسم الشبيه بالفعل ، كقوله تعالى « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسناً » ، فاقرضوا معطوف على المصدقين لشبهه بالفعل لكونه اسم فاعل ، ومخرج : شبيه بالفعل لكونه اسم فاعل « ذلكم » المحيى والمميت هو « الله » الذى له العبادة وله الطاعة « فأنى » أى كيف « تؤفكون » أى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذى هو خالق الأشياء كلها « فالق الإصباح » بمعنى الصبح أى شاق عمود الصبح وهو أول ما يبدو من النهار عن ظلمة الليل ، أوشاق ظلمة الإصباح التى تحجب ضوء الصبح

فى آخر الليل «وجاعل الليل سكنا» أى يسكن فيه الإنسان ، «والشمس والقمر» أى وجعل الشمس والقمر «حسبانا» أى حسابا للأوقات «ذلك» إشارة إلى ماتقدم ذكره فى هذه الآية من الأشياء التى خلقها بقدرته وكمال علمه «تقدير العزيز العليم» فالعزيز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه «وهو الذى جعل» أى خلق «لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر» أى فى ظلمات الليل فى البر والبحر ، أو فى مشتبهات البر والبحر ، وهـذا إفراد لبعض منافعها بالذكر بعـد ما أجملها بقوله ( لـكم ) ، «قـد فصلنا» أى بينا «الآيات» أى الدالات على قدرتنا ، وتوحيدنا «لقوم يعلمون» أى يتدبرون لأنهم المنتفعون به «وهو الذى أنشأكم» أى خلقكم «من نفس واحدة» أى من آدم عليه الصلاة والسلام ، فهو أبو البشر كلهم ، وحواء مخلوقة منه ، وعيسى أيضاً ، لأن ابتداء خلقه من مريم وهى من بنات آدم فثبت أن جميع البشر من آدم عليه السلام «فمستقر ومستودع» فى أصلاب الآباء ، قال سعيد ابن جبير : قال لى ابن عباس : هل تزوجت ؟ قلت : لا ، قال : أما إنه ما كان مستودعا فى ظهرك فسيخرجه الله عز وجل ، أو فمستقر فى الرحم ومستودع فوق الأرض ، قال تعالى : ونقر فى الأرحام ما نشاء . أو فمستقر على وجه الأرض ومستودع عند الله فى الآخرة ، أو فمستقر فى القبر ومستودع فى الدنيا . وكان الحسن يقول : ياابن آدم أنت وديعة فى أهلك يوشك أن تلحق بصاحبك ، أو فمستقر فى القبر ومستودع فى الجنة أو النار ، قال تعالى فى صفة الجنة : حسنت مستقرا . وفى صفة النار : وساءت مستقرا . «قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون» أى يفهمون ما يقال لهم ذكر مع ذكر النجوم ( يعلمون ) لأن أمرها ظاهر ، وذكر مع تخليقه بنى آدم ( يفقهون ) لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر «وهو الذى أنزل من السماء» أى السحاب «ماء» أى مطرا ، إذ هو من السحاب «فأخرجنا به» أى بالماء وفى ذلك التفات حيث لم يقل (فأخرج) على وفق (أنزل).. «نبات كل شىء» أى من أى شىء ينبت وينمو من

جميع أصناف النبات «فأخرجنا منه» أى من النبات أو الماء «خضرا» أى شيئا أخضر «نخرج منه» أى الخضر «حبا متراكبا» أى يركب بعضه بعضا كسنابل القمح، والأرز والذرة «ومن النخل من طلعها» الطلع هو أول مايخرج منها «قنوان» أى عراجين «دانية» أى قريبة من التناول أو قريب بعضها من بعض وحكمة تخصيص دانية بالذكر بيان زيادة النعمة فيها «وجنات» عطف على «نبات كل شىء» أى وأخرجنا به بساتين «من اعناب والزيتون والرمان» عطف أيضاً على نبات أى وأخرجنا به شجر الزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، قال قتادة معناه : مشتبه ورقها مختلف ثمرها . لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان، وقيل : مشتبها فى النظر مختلف فى الطعم، ذكر الله فى هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع، وقدم الزرع على سائر الأشجار، لأن الزرع غذاء وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم على الفواكه، وقدم النخل على غيرها لأن ثمرها يجرى مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ماليس فى غيرها من الأشجار، وذكر العنب عقب النخل لأنه من أشرف أنواع الفاكهة، ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والنفع، ثم ذكر بعده الرمان لما فيه من المنافع أيضا «انظروا» أى المخاطبون نظر اعتبار «إلى ثمره» جمع ثمر كشجرة وشجر وخشبة وخشب «إذا أثمر» أى إذا أتى ثمره «و» «انظروا إلى «ينعه» أى إلى إدراكه حين يحين قطفه كيف يصير ذا نفع ولذة، والمعنى : انظروا نظر استدلال، واعتبروا كيف أخرج الله هذه الثمرة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة «إن فى ذلكم لآيات» أى دلالات على قدرته تعالى، وخاصة ـ على قدرته على البعث والنشور والحساب والعقاب «لقوم يؤمنون» خص المؤمنين بالذكر، لأنهم المنتفعون بها بخلاف الكافرين، أى فى ذلكم الذى أمرتم بالنظر إليه، والنظر فيه دلائل عظيمة أو كثيرة للمستعدين للاستدلال من المؤمنين بالفعل والمستعدين للإيمان، وأما غيرهم فان نظرهم كنظر الطفل، وإن كانوا من العالمين بأسرار عالم النبات .

ومن مباحث البلاغة فى الآيات، واختلاف الإعراب والترتيب بين

المتناسبات ، كما يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار : أن هذا السياق بدىء بفلق الحب والنوى وإخراج الحى من الميت وعكسه ، وأتبعه بما يناسبه من فلق الإصباح ، وعطف على هـذا مايقابله من معاقبة الليل للنهار ، وأشير إلى فوائدهما وفوائد الشمس والقمر ، اللذين هما آيتا هذا الوجود ، وناسب ذكر ذلك التذكير بخلق النجوم ، والمنة بالاهتداء بها ، والايماء إلى مافيها من آيات العلوم ثم عطف على هـذا النوع من الآيات إنشاء الخلق من نفس واحدة ، فنها المستقر والمستودع ، وأتبع ذلك بإنزال الماء ، وجعله سبباً لنبات كل شىء من هذه الأحياء ، وكل منهما تفصيل لقوله فى الآية الأولى من السياق « يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى » ، وقد لون فى تفصيل خلق النبات الخطاب ، وتفنن فى طرق الإعراب ، للتنبيه إلى مافيه من أنواع الألوان ، وتشابه مافيه من الثمار والأفنان ، فبدئت الآية بضمير الواحد الغائب المفرد تبعاً لسياق ماقبلها من هـذه الآيات ، وعطف عليه ضمير المتكلم بطريق الالتفات . إذ قال « فأخرجنا به نبات كل شىء » بعد قوله « أنزل من السماء ماء » ، فحكمة الالتفات أن تلتفت الأذهان إلى ما يعقب ذلك من البيان ، فتتنبه إلى أن هذا الإخراج البديع ، والصنع الجميل ، من فعل الحكيم الخلاق ، لا من فلتات المصادفة والاتفاق ، ولما كان الماء واحداً والنبات جمعاً كثيراً ناسب إفراد الفعل الأول وجمع الفعل الآخر . ومعلوم أن الواحد إذا قال (فعلنا) أراد إفادة تعظيم نفسه إذا كان مقامه أهلا لذلك ، كما يقول الأمير : أمرنا بما هو آت . ونكتة العدول عن الماضى إلى المضارع فى قوله « نخرج منه حباً متراكباً » تحصل بإرادة استحضار صورته العجيبة فى حسنها وانتظامها ، وعطف عليه مايخرجه تعالى من طلع النخل ، من القنوان المشابه لسنابل القمح ، فى نضد ثمره وتراكبها ، ومنافعها وغرائبها ، فان فى كل منهما أفضل غذاء للناس ، وعلف للدواب والأنعام ، وذكر بعده جنات الأعناب ، لأنها أشبه بالنخيل فى هذه الأبواب ، فالعناقيد تشبه العراجين فى تكونها ، وتراكب حبها وألوان ثمرها ، كما تشبهها فى درجات تطورها ، ثم ذكر الزيتون والرمان معطوفا على

نبات كل شيء أو منصوبا على الاختصاص، لا على ما قبله من النخيل والأعناب لأن ما بينهما من التشابه فى الصورة، محصور فى الورق دون الثمرة.

١٠٠ — وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ.

١٠١ — بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

١٠٢ — ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.

١٠٣ — لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

هذه الآيات الأربع فيها تسفيه للمشركين الذين تركوا الإيمان بالله وتوحيده وعبادته، واتخذوا الجن آلهة، والذين جعلوا لله بنين وبنات، وكيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة، وهو خالق كل شيء، وهو بكل شيء عليم؛ إنه بديع السموات والأرض، وهو وحده رب الخلق، لا إله إلا هو عليم بكل شيء، لا تستطيع الأبصار أن تدركه، وهو يدرك كل شيء، وهو اللطيف الخبير.

فقد حكى الله تعالى فى هذه الآيات بعض ضروب الشرك التى قال بها بعض العرب، وروى التاريخ كثيراً من نوعها عن أمم العجم، وهى اتخاذ شركاء لله من عالم الجن المستتر عن العيون، واختراع نسل له من البنات والبنين، حكى هذا بعد تفصيل ما تقدم فيما قبله من أنواع الآيات الدالة على توحيده بالخلق والتدبير فى عوالم الأرض والسموات، وتعقبه بإنكاره وتنزيه الخالق المبدع عنه، قال الله عز وجل: «وجعلوا لله شركاء الجن» أى الشياطين لأنهم أطاعوهم فى عبادة الأوثان فجعلوها شركاء لله، والجن بدل من شركاء،

وتقديم « لله » لاستعظام أن يتخذ لله شريك من جن أو إنس أو ملك ، فلذلك قدم اسم الله تعالى على الشركاء وقيل: المراد بالجن الملائكة بأن عبدوهم ، وقالوا: الملائكة بنات الله ، وسماهم جنا لاجتنابهم واختفائهم ؛ وقال الكلبي : نزلت في الزنادقة جعلوا إبليس شريكا لله في الخلق ، فقالوا : الله خالق النور والناس والدواب والأنعام ، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ، وقالوا : هو شريك لله في تدبير هذا العالم ، فما كان من خير فمن الله ، وما كان من شر فمن إبليس ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً . .

وكانت عبادة الجن قديمة في الملل الوثنية . ففي الخرافات اليونانية والرومانية يجعلونهم ثلاث مراتب : الأولى: الآلهة وأولهم المولد لهم أجينوس وهو الخالق لكل شيء عندهم وهو نفس « زفس » أو « جوبتير » ، والثانية توابع الشعوب والأقطار والبلاد ، فلكل منها رب من الجن مدبر له ومتصرف فيه ، وقد نصب الروم لجنى رومية تمثالا من الذهب والثالثة : توابع الأفراد أي قرناؤهم . والهنود القدماء يقسمون الجن إلى قسمين أخيار وأشرار فيسمون الأخيار « ديوه » ويقسمون الجن الأشرار إلى طوائف أيضاً ، ويقولون إن مقامهم في الظلمة وأنهم كانوا هاجموا الآلهة لينزلوهم عن عروشهم ففروا منهم إلى بلاد الساقة وأرادوا أن يسلبوهم شجر الحياة. وعقائد المانوية من الفرس في إلهي الخير والشر معروفة ، وفي أساطير الفرس أن « جنستان » أي بلاد الجن في غربي أفريقية وقيل غير ذلك ، وأساطير الأمم القديمة في الجن كثيرة ؛ وأما أهل الكتاب فقد لخص الدكتور جورج بوست في آخر الجزء الأول من قاموس الكتاب المقدس عقائدهم في الشيطان قال : الشيطان كائن حقيقي وهو أعلى شأنا من الإنسان ورئيس رتبة من الأرواح النجسة ، ويخبر الكتاب المقدس بطبيعته وصفاته وحالته وكيفية اشتغاله وأعماله ومقاصده ونجاحه ونصيبه ، فلنا في شخصيته نفس البراهين التي لنا في شخصية الروح القدس والملائكة . وأما طبيعة الشيطان فروحية ، وهو ملاك يمتاز بكل ما تمتاز به هذه الرتبة من الكائنات إلى أن قال — بعد ذكر كونه عدواً لله مطروداً

من وجهه - غير أن طرده إلى عالم الظلمة لا يمنع اشتغاله فى الأرض كإله هذا العالم وعدو الإنسان وعدو الله « وخلقهم » أى والله خلق الجن فكيف يكونون شركاء لله عز وجل ، أو المعنى : وجعلوا لله الذى خلقهم شركاء لايخلقون شيئاً ، وهذا كالدليل القاطع بأن المخلوق لايكون شريكا لله وكل مافى الكون محدث مخلوق ، والله تعالى خالق لجميع مافى الكون ، فامتنع أن يكون لله شريك فى ملكه « وخرقوا » أى اختلقوا « له بنين وبنات بغير علم » وهو قول أهل الكتابيين فى المسيح وعزير ، وقول قريش فى الملائكة ، يقال : خلق الإفك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى ، وسئل الحسن عن هذه الكلمة فقال : هى كلمة عربية كانت العرب تقولها ، كان الرجل إذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم : كذب وقد خرقها والله « سبحانه وتعالى عما يصفون » بأن له شريكا أو ولدا « بديع السموات والأرض » أى مبتدعهما من غير سبق مثال سبق أى هو بديع « أنى يكون له ولد » أى من أين يكون له ولد « ولم تكن له صاحبة » يكون منها الولد ؛ لأن الولد لا يكون إلا من زوجة « وخلق كل شىء » أى من شأنه أن يخلق « وهو بكل شىء عليم » لا يخفى عليه خافية ، وفى الآية استدلال على نفى الولد من وجوه : الأول أنه مبدع السموات والأرض وهى أجسام عظيمة ، ومخترع الأجسام لا يكون جسما حتى يكون له ولد ، الثانى أن الولادة لا تكون إلا من ذكر وأنثى متجانسين وهو تعالى قد تنزه عن الصاحبة والمجانسة له فلم تصح الولادة ، والثالث أنه مامن شىء إلا وهو خالقه والعالم به ، ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شىء ، والولد إنما يطلبه المحتاج « ذلكم » إشارة إلى الموصوف بما سبق من الصفات « الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء » فى الأرض والسماء والكون كله « فاعبدوه » أى فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة « وهو على كل شىء وكيل » أى وهو مع تلك الصفات مالك لكل شىء من الأرزاق والآجال رقيب على الأعمال فيجازى عليها « لا تدركه الأبصار » جمع بصر وهى حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث إنها محلها ؛ والإدراك الإحاطة بكنه الشىء وحقيقته ، وتمسك المعتزلة

بظاهر هذه الآية فقالوا : إن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه وإن رؤيته مستحيلة عقلا لأن الله تعالى أخبر أن الأبصار لا تدركه ، وإدراك البصر عبارة عن الرؤية ، إذ لا فرق بين قولك : أدركته ببصرى ، ورأيته ببصرى ، فثبت بذلك أن « لا تدركه الأبصار » بمعنى : لا تراه الأبصار ، وهذا يفيد العموم ، ومذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفى الجنة ، واستدلوا لمذهبهم بأشياء من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ومن بعدهم من السلف : فمن الكتاب قوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فى هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، وقوله تعالى : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » قال الشافعى رضى الله تعالى عنه : حجب قوماً بالمعصية وهى الكفر ، فثبت أن قوماً يرونه بالطاعة وهى الإيمان ، وقال مالك رضى الله عنه : لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله تعالى الكفار بالحجاب ، وقال تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » وهذه الزيادة مفسرة بالنظر إلى الله تعالى يوم القيامة ومن السنة ما روى عن جرير بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال كنا : عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، ثم قرأ « سبح اسم ربك » « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » ، ومنها أن ناساً قالوا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضامون فى القمر ليلة البدر أى هل تشكون ؟ قالوا لا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنكم ترونه كذلك ، واحتج أهل السنة أيضا على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة بقول كليم الله موسى عليه السلام : رب أرنى أنظر إليك ، إذ لا يسأل نبى ، مالا يجوز أو يمتنع ، وقد علق الله تعالى الرؤية على استقرار الجبل بقوله تعالى : « فإن استقر مكانه فسوف ترانى » واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز ، والله تعالى يجوز أن يرى من غير إدراك ولا إحاطة كما يعرف فى الدنيا ولا يحاط به ، قال تعالى : « ولا يحيطون به علما » فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم ، قال سعيد بن المسيب : لا تحيط

به الأبصار ، وقال عطاء :كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومقاتل : لاتدركه الأبصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة، وظاهر هذا التسوية بين الإدراك والرؤية ، ويدل على هـذا التخصيص قوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فقوله (ناظرة) مقيد بيوم القيامة ويكون هـذا جمعا بين الآيتين « وهو يدرك الأبصار » أى يراها أو يحيط بها علما فلا يخفى عليه شىء ولا يفوته شىء « وهو اللطيف الخبير » قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : اللطيف بأوليائه الخبير بهم ، وقال الزهرى : اللطيف الرفيق بعباده ، وقيل : اللطيف الموصل الشىء بالرفق واللين ، وقيل : اللطيف الذى ينسى العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا ييأسوا من رحمته .

إن الإسلام الكريم لايحارب شيئا كما يحارب الأساطير والأوهام وعبادة الأوثان والخرافات والأضاليل والبهتان والكذب فى الدين .

ولا تجد دينا يدعو إلى الأهداف الكريمة ، والغايات السامية ، والأغراض الشريفة ، والمثل العليا ، مثل دين الإسلام وشريعة محمد خاتم الرسل عليه السلام ، ولا عجب فالإسلام دين البشرية الخالد ، وخلاصة المثل الإنسانية العالية ، وعقيدة الفكر الحر ، التى ترنو إليها البشرية ، وتهدف نحوها الحياة ، وتتلاقى مع أصول الحضارات والمذاهب الحقة ، وتجتمع مع شتى تيارات التفكير الحديث المنزه عن الهوى . ولقد جاء الإسلام والعالم يعيش فى ظلام دامس ، وجهل مطبق ، ونظم عتيقة فاسدة وعقائد محرفة مضللة . فبدل ظلام الحياة نوراً ، والجهل ثقافة وعلما وعرفانا ، ومحا تلك النظم البالية ، والتقاليد الباطلة الزائفة ، وجاء بأصول اجتماعية وإنسانية هى أسمى ما عرف فى الأديان والمذاهب من مقومات وعناصر . دعا إلى عقيدة تجمع بين أصول العقائد والأديان السماوية الصحيحة ، وتسير بالإنسان إلى حياة مهذبة كريمة ، توفق بين المادة والروح ، والدين والدنيا ، والأولى والآخرة . وجه الإسلام الناس جميعاً إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، له مقاليد السموات والأرض ، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، والأرض جميعاً فى قبضته يوم

القيامة ، والسموات مطويات بيمينه . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر . . كما دعا الناس إلى دين واحد ، يصدق به العقل والروح ، ويجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ، ويرشد إلى أمثل مافى الحياة من عدالة وخير ورحمة . وجمعهم على كتاب واحدة ، ودستور خالد ، هو القرآن ، كتاب الله العظيم .. وعلى رسالة واحدة ، هى رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهى الرسالة التى تتفق مع دعوات الأنبياء ، وشرائع المرسلين « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .. فلم لا يكون الإسلام بذلك كله مثلا أعلى فى العقيدة والإيمان .

وسن الإسلام القوانين الصالحة لكل العصور والجماعات ، والكفيلة برقى الفرد والأسرة ، وتقدم المجتمع والأمة والإنسانية ، على نحو يرضاه العقل ، ويطمئن إليه القلب والوجدان . فلم لا يكون بذلك الداعى إلى المثل الأعلى فى النظام والتشريع ؟ وحارب الإسلام العصبيات وأفكار الجاهلية الأولى ، التى تفضل جنساً على جنس أو جماعة على جماعة ؛ أو فردا على فرد . يقول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » ، ويقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، حاربها الإسلام لأنها تنادى بالتنابز والبغضاء ؛ وتفرق بين الناس وقد جمعهم أصل واحد : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ومحا الإسلام ما كان بين الطبقات من تلك الفوارق الاجتماعية الواسعة ، التى كثيراً ما تستند إلى الحسب أو الجاه أو المال ، وجعل الفقير أخا للغنى ، والغنى أخا للفقير ، ودعا الأغنياء إلى البذل والجود والإحسان وأداء الزكاة وإنفاق المال فى كل حق وخير ومعروف . كما دعا الفقراء إلى الأمانة والعمل والزهد والقناعة والرضا بما قسم الله ، « أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل . ذلك خير للذين يريدون وجه

الله ، وأولئك هم المفلحون » . وقرر أن المال فى أيدى الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم فيه ، «آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» . وما ينفقونه على الفقراء من مال إنما هو قرض لهم عند الله يجزيهم عليه خيراً وثوابا كبيراً ، «وأنفقوا خيراً لأنفسكم ؛ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله غفور حليم» . فكيف لا يكون الإسلام بذلك كله دينا عاما هو المثل الأعلى فى الاجتماع والروح الإنسانى الكريم . والأصول الأولى فى الإسلام تدعو إلى الحق والخير والعدل والمساواة والحرية ، وإلى التعاون والوحدة والشورى وإلى الأخوة العامة ، والزمالة البشرية ، والحضارة والرقى والثقافة ، وإلى محاربة الأهواء والتقاليد الضارة ، وإلى المحافظة على الشرف والكرامة وروح الإنسان فى الفرد والجماعة والأمة .. كما تدعو إلى السلام ، وإلى أن يقوم هذا السلام على الحق ، وفى سبيل خدمة المثل العليا التى يدعو إليها الإسلام ، وهى فوق ذلك فطرة الله التى فطر الناس عليها ، «وصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟» وحسبك أنها تقوم على رعاية شئون الدنيا وأمور الآخرة «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين» . إلى غير ذلك من الأهداف والمثل التى يجمعها ويدعو إليها الإسلام وكتابه الكريم .

وبعد ، فقد حرر الإسلام الإنسان من الوهم والتقليد والجمود والجهل والفاقة والاضطهاد والاستبداد . . وحرر المرأة من استبداد الرجل ؛ فجعل لها حقها فى الحياة وسواها به فى الحقوق والواجبات المشروعة ، واعترف بأهليتها للتصرف والتملك وتدبير شؤون المنزل والأسرة ؛ والمساهمة فى أعمال الخير والبر والطاعات ، وفى شتى النواحى الاجتماعية التى لا غنى للمجتمع عن نشاط المرأة فيها . وحرر الطبقات من طغيان العصبيات والثروة والحسب ، وحرر المجتمعات من الخرافات والأضاليل وأوهام الكهان والمتزعمين ، وحرر الأمم ، فجعل أمرها شورى بينها ، وساسها بالعدل والقسطاس المستقيم ،

وبالرحمة والإيثار وحب الخير العام ومصلحة الجماعة المشتركة والشعور الصحيح بالمسئوليات ، وقضى على الرذائل والمنكرات والشهوات التى تضعف الروح ، وتهدم البنيان ، وتفسد نزعات الخير ، وتقف بالجماعة عن السير والنضال فى الحياة . . وحرر الإنسانية عامة من ربقة الجهل والوحشية والتأخر والفوضى والإثرة ، ومن جموح الشهوات ، وتقديس الماديات والجنوح إلى الشر والفساد فى الأرض ، ومن التقليد الضار ، والإيمان بما كان يؤمن به الآباء والأجداد دون تحكيم للعقل ، أو وزن للأمور بميزان التفكير السليم . . ورفع مع ذلك كله الإنسان ومكانته فى الحياة ، فجعله خليفة الله فى الأرض ، ودعا إلى أن يسير إلى أمثل ما فى الحياة من حق وخير وسمو ، وإلى أن يعمل على تقدم الحياة والإنسانية بأوسع معانيها .

فما أروع الإسلام ، وما أجل شريعة تقوم على هذه المبادىء المثلى وتدعو إليها ، وتدفع البشر والبشرية نحوها !.

١٠٤ — قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ .

١٠٥ — وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

١٠٦ — ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ .

١٠٧ — وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ .

هذه الآيات الأربع قد جاءت للإرشاد إلى دين الله وإلى أنه بصائر من الله لخلقه ، فمن آمن فلنفسه ، ومن كفر فعليها ، وفيها بيان لجلال الله عز وجل

فى تصريفه الآيات وتعديدها ، حتى ليقول المشركون عنه إنه قد تلقى هذا كله عن تعليم ودراسة ، ويأمر الله عز وجل رسوله بأن يتبع الوحى المنزل عليه من السماء ، وأن يعرض عن المشركين ، إلى غير ذلك مما تضمنته هذه الآيات الكريمة من معان وروائع وحكم وأحكام .

يقول الله عز وجل : « قد جاءكم بصائر » جمع بصيرة أى حجج « من ربكم » تبصرون بها الهدى من الضلال ، والحق من الباطل « فمن أبصر » أى عمل بالأدلة « فلنفسه » أى خاصة لأنه خلصها من الضلال إلى الهدى « ومن عمى » أى لم يهتد بالأدلة « فعليها » أى خاصة لأنه يضل فلا يضر إلا نفسه « وما أنا عليكم بحفيظ » أى برقيب لأعمالكم ، وإنما أنا منذر والله تعالى هو الرقيب عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها . « وكذلك » أى كما بينا ما ذكر « نصرف » أى نبين « الآيات » من حال إلى حال فى المعانى المتنوعة ، سالكين من وجوه البراهين مايفوت القوى ويعجز القادر ليعتبروا «وليقولوا» اعتذار عن ظهور عجزهم « درست » قرىء « دارست » أى ذاكرت أهل الكتاب ، وقرىء بغير ألف ، أى درست كتب الماضين ، وجئت بهذا منها ، وقرىء: درست بفتح السين وسكون التاء من الدروس ، أى هذه الآيات التى تتلوها علينا قديمة قد درست وانمحت كقولهم : أساطير الأولين ، وقيل : اللام فيه لام العاقبة أى عاقبة أمرهم أن يقولوا دارست أى قرأت على غيرك ، وقيل : قرأت كتب أهل الكتاب كقوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » . « ولنبينه » أى الآيات وأتى بالضمير مذكرا لأنها فى معنى القرآن كأنه قيل: وكذلك نصرف القرآن ، والقرآن وإن لم يجر له ذكر لكنه معلوم « لقوم يعلمون » فإنهم المنتفعون « اتبع » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى اتبع يا محمد « ما أوحى إليك » أى القرآن ، فالزم العمل به ثم أكد مدحه بقوله « من ربك » أى المحسن إليك بهذا البيان « لا إله إلا هو » اعتراض أكد به إيجاب الاتباع لما فى كلمة التوحيد من التمسك بحبل الله والاعتصام به والإعراض عما سواه « وأعرض عن المشركين » أى لا تحفل بأقوالهم ولا

تلتفت إلى رأيهم ، ولو شاء الله ، إيمانهم وعدم إشراكهم ، ماأشركوا ، وهذا نص صريح فى أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافا للمعتزلة فى قولهم : لم يرد الله من أحد الكفر والشرك ، وما جعلناك عليهم حفيظا ، أى رقيبا فتجازيهم بأعمالهم ، وما أنت عليهم بوكيل ، أى فتجبرهم على الإيمان ، وهذا قبل الأمر بالقتال .

١٠٨ — وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٠٩ — وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ .

١١٠ — وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

هذه الآيات الثلاث الكريمة هى ختام الربع الثامن من الجزء السابع وختام هذا الجزء أيضا ، وقد تضمنت ماتضمنت من جليل التوجيه ، ورائع الإرشاد والنصح .

وقد أمر الله تعالى رسوله فيما قبل هذه الآيات بتبليغ وحيه بالقول والفعل ، وبالإعراض عن المشركين بمقابلة جحودهم وطعنهم فى الوحى بالصبر والحلم ، وعلل ذلك بأن من مقتضى سنته فى خلق البشر متفاوتى الاستعداد ، مختلفى الفهم والاجتهاد ، أن لايتفقوا على دين . ومن مقتضى هدايته فى بعثة الرسل أن يكونوا مبلغين لامسيطرين ، وهادين لاجبارين ، فعليهم أن لا يضيقوا ذرعا بحرية الناس فى اعتقادهم ، فإن خالقهم هو الذى منحهم هذه

الحرية ولم يجبرهم على الإيمان إجباراً وهو قادر على ذلك ، ثم عقب ذلك بالنهى عن سب آلهتهم ، وطلب بعضهم للآيات ، وحقيقة حالهم فيها فقال :

« ولا تسبوا الذين يدعون » أى يعبدون « من دون الله » وهى الأصنام ، أى ولا تذكروا آلهتهم التى يعبدونها بما فيها من القبائح « فيسبوا الله عدواً » أى اعتداء وظلماً « بغير علم » أى جهلا منهم بالله وبما يجب أن يذكر به ، روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يطعن فى آلهتهم فقالوا : لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك ، فنزلت . وقال السدى : لما حضرت أباطالب الوفاة قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحى أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : كان يمنعه عمه فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل وأبى بن خلف ومعهم جماعة إلى أبى طالب ، فقالوا : ياأبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآلهتنا فنحب أن تدعوه وتنهاه عن ذكر آلهتنا وندعه وإلهه ، فطلبه وقال : هؤلاء قومك وبنو عمك يقولون : نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك وقد أنصفك قومك فاقبل منهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم أرأيتكم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم ؟ قال أبو جهل : نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هى ؟ قال : قولوا : لا إله إلا الله فنفروا وأبوا ، فقال أبو طالب : قل غيرها يا ابن أخى ، فقال يا عم : ما أنا بالذى أقول غيرها ، فقالوا : لتكفن عن سبك آلهتنا أو لنشتمنك ومن يأمرك ، فنزلت ، وقيل : كان المسلمون يسبونها فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله تعالى ، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإنما يؤدى إلى الشر شر « كذلك » أى كما زينا لهؤلاء ما هم عليه من عبادة الأوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان « زينا لكل أمة عملهم » من الخير والشر « ثم إلى ربهم مرجعهم » فى الآخرة « فينبئهم بما كانوا يعملون » فى الدنيا فيجازيهم ؛ به « وأقسموا » أى كفار مكة « بالله جهد أيمانهم » أى غاية اجتهادهم فيها « لئن جاءتهم آية » أى مما اقترحوها « ليؤمنن بها »

روى أن قريشا قالوا : يا محمد إنك تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر فينفجر منه الماء اثنى عشر عينا ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى شيء تحبون؟ قالوا : تجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض أمواتنا حتى نسأله عنك أحق ماتقول أم باطل، أو أرنا الملائكة يشهدون لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فعلت بعض ماتقولون تصدقونني قالوا : نعم ؟ والله لئن فعلت لنتبعك أجمعين ، وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يجعل الصفا ذهبا فجاء جبريل عليه السلام ، فقال : يارسول الله ، ما شئت إن شئت أصبح ذهبا ولكن إن لم يصدقوا ليعذبنهم الله ، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل يتوب تائبهم فنزلت ، قال الله تعالى : «قل» لهم «إنما الآيات عند الله» ينزلها كيف يشاء وإنما أنا نذير «وما يشعركم» أى وما يدريكم أيها المسلمون ، فإنهم كانوا يتمنون مجيء الآية طمعا فى إيمانهم أى أنتم لا تدرون ذلك «إنها إذا جاءت لا يؤمنون» كما سبق فى علم الله «ونقلب أفئدتهم» أى ونحول قلوبهم عن الحق فلا يفقهونه «و» نقلب «أبصارهم» عن الحق فلا يبصرونه فلا يؤمنون، لأن الله تعالى إذا صرف القلوب والأبصار عن الإيمان بقيت على الكفر «كما لم يؤمنوا به» أى بما أنزل من الآيات «أول مرة» أى التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغيره من المعجزات الباهرات وقيل : معجزات موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام كقوله تعالى «أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل» وروى عن ابن عباس أن المراد بالمرة الأولى دار الدنيا ، أى لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا فى الدنيا قبل مماتهم ، كما قال تعالى : ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه «ونذرهم» أى نتركهم «فى طغيانهم» أى ضلالهم «يعمهون» أى يترددون متحيرين لا نهديهم إلى الطريق السوى ولا إلى سبيل المتقين المؤمنين .

## نظرة عامة فى هذا الجزء

( ١ )

هذا الجزء - السابع - من القرآن الكريم ، بعضه من سورة المائدة ، وبعضه الآخر من سورة الأنعام .. وقد تحدثنا عن سورة المائدة وأهدافها فيما سبق ، وقلنا : إنها احتوت على تشريعات حضارية عديدة ، وإنها نزلت فى المدينة لتنظيم شئون المجتمع الإسلامى ، وهى من أواخر السور نزولا بالمدينة ، واحتوت كذلك على حجاج قوى مقنع لأهل الديانتين الكبيرتين : اليهودية والنصرانية ؛ وهى فى مجموعها تأييد قوى لمحمد ولرسالته ، صلوات الله عليه .

أما سورة الأنعام فقد احتوت على حجاج قوى مقنع للمشركين فى مكة ومن على شاكلتهم ، وهى من السور المكية التى نزلت قبل الهجرة ، كما اشتملت على تأييد إلهى لعقيدة التوحيد والإسلام ، وتفنيد لرأى المشركين فى إنكار البعث والنبوة ، ورد شديد عليهم فى اقتراح الآيات على الرسول . . وقص فيها الله عز وجل قصة إبراهيم نبى التوحيد ، وكيف استدل بآيات الله فى الكون على وجود الله ووحدانيته ، وذكر عز وجل الأنبياء من ذريته ورسالاتهم وأنهم بعثوا آية للبشرية ، وأن نورهم باق فى الأرض ، وأن رسالاتهم قد ختمت برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، كما تضمنت السورة كذلك ردا على اليهود فى بعض ما صنعوه واقترحوه وافتروه على محمد عليه الصلاة والسلام .

( ٢ )

وسوف نتناول الخطوط الرئيسية فى هذا الجزء بالبيان ..

١ — فى الربع الأول من هذا الجزء الكريم حديث عن اليهود والنصارى وعن عداوة اليهود للمسلمين ، ومودة بعض النصارى لهم ، وإيمانهم بدين الإسلام وشريعته وبالقرآن الكريم . . وفيه كذلك نهى عن الزهد فيما أحل

الله ، بما يعد مناوأة لطبيعة الإنسان فى الإنسان ، وفيه بيان للمباحات من الطعام ، وأنها هى الحلال الطيب الذى رزق الله الناس إياه . وفيه بيان لكفارة اليمين . . وتحريم للخمر والميسر وبيان لأضرارهما ، وذكر لأحكام الصيد فى الحرم . .

٢ — وفى الربع الثانى تعظيم للكعبة وتنويه بشرفها ومجدها ، لأنها أول بيت وضع لتوحيد الله فى الأرض ؛ وفيه نهى عن الاستمرار فى اقتراح الآيات ، وتحريم لبعض شعائر أهل الجاهلية كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ، ويحتوى كذلك على نهى شديد عن التقليد وصنيع المقلدين وخاصة فى العقيدة. وعلى بيان حكم الوصية فى السفر .

٣ — والربع الثالث نصفان : نصفه الأول قد ذكر فى ختام سورة المائدة، ويشتمل على ذكر عيسى والحواريين واقتراحهم نزول المائدة من السماء ، وشهادة الرسل يوم القيامة على أممهم ، وشهادة عيسى عليه السلام على أتباعه ، وعلى بيان لافترائهم عليه وعلى الله فيما زعموه من ألوهية عيسى وأمه.. وفيه بيان لجزاء المؤمنين الصادقين فى الآخرة عند الله ، مالك الملك ، ورب السموات والأرض وما فيهن ، والقادر على كل شىء ، والتعبير بـ(ما) فى قوله تعالى : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير » لإرادة بيان شمول هذا الملك وسعته ، لأن « ما » تشمل الجماد وكل ما هو غير الإنسان العاقل المفكر ، وهذا يتناول كل ما اشتملت عليه السموات والأرض ، ولو قال : «من» لما اشتمل التعبير إلى على معنى ضيق محدود هو أن لله ملك السموات والأرض والبشر الذين فيهما أى فى أحداهما وهى الأرض ؛ ولكن قوله تعالى « ما فيهن » معناه إن له ملك كل ما فى الكون ، كل ما فى السموات السبع وكل ما فى الأرض بطبقاتها وهو على كل شىء قدير .

أما نصف هذا الربع الثانى الذى هو مطلع سورة الأنعام ، فقد بدىء بتمجيد الله وتعظيمه .. وهنا نجد المناسبة واضحة بين آخر سورة المائدة وأول سورة الأنعام إذ اشتمل كل منهما على تمجيد الله وذكر لعظمته وقدرته ، كما

أن المناسبة بين السورتين واضحة كذلك أيضاً : فالمائدة فيها حجاج لليهود والنصارى ورد على اقتراحهم الآيات وتقرير لرسالة محمد ونبوته وللقرآن ودعوته ؛ والأنعام فيها حجاج للمشركين ، ورد عليهم فى اقتراحهم الآيات على الرسول وتقرير لعقيدة التوحيد ولدعوة محمد ورسالته وذكر لقصة إبراهيم الداعى إلى عقيدة التوحيد فى الأرض ، وللرسل من ذريته وذرية نوح ممن دعوا أممهم إلى عبادة الله وتوحيده .. الغرض واحد من السورتين أو كالواحد، والمغزى والهدف واحد أيضاً ؛ وإن كانت المائدة مدنية ، والأنعام مكية .

وقد نوه الله عزوجل فى مطلع سورة الأنعام بعظمته وأنه خالق السماوات والأرض ، وخالق الظلمات والنور ؛ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون أى يشركون ، وثم هنا للاستبعاد ، استبعاد إتخاذ شريك آخر مع إله عظيم قوى هذه قدرته ، وتلك عظمته . هو خالق البشر جميعا ؛ وهوالله ملء السموات والأرض ، إنه فى الأرض والسماء وفى كل ذرة من ذرات الكون بقدرته وهيمنته ، أو هو فيهما شهرة وعظمة ومجدا . وهو المحيط علما بكل ما فى السموات والأرض، يعلم سر الناس وجهرهم ، وأعمالهم ، يعلم مايبدونه ومايخفونه من أقوال ، ويعلم أعمالهم كذلك . . هذا هو إله الكون ورب الحياة ومدبر الوجود ، هذا هو الإله الحق المعبود ، هـذا هو الذى له تحميدنا وله عبادتنا وله خضوعنا . . ولكن المشركين يصدون صدوداً ، وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا أعرضوا عنها ، وسخروا بها ، واستهزأوا منها ، بل لقد كذبوا بالحق ، بالقرآن الكريم لما جاءهم ، وعاقبتهم على هذا التكذيب لا بد أن يعلموا بها بعد ، ولا بد أن يعلموا نبأ الرسالة التى كذبوا بها ، والقرآن الذى سخروا منه ، لا بد أن تنالهم الندامة ويدركهم الألم عندما يرون انتصارات الإسلام ، ويصلهم ذيوع دعوة محمد فى كل مكان ، فكيف بهم لو علموا هزيمة الشرك والمشركين وهزيمة قيصر وكسرى أمام جند الله ، وأمام رسالة محمد ، وأمام كتاب الله الحكيم ، القرآن الكريم . . ثم وبخهم الله عز وجل على عدم اعتبارهم بمصارع الأمم من قبلهم ، حين كذبوا أنبياءهم وقاوموا

رسالات السماء . . ويطلب القرآن الكريم إلى الرسول عدم المبالاة بهم وبتكذيبهم وبشكهم فى القرآن الكريم ، فلو نزلت أمامهم رسالة من السماء لمحمد عليه الصلاة والسلام لقالوا ما هذا إلاسحر مبين .. ثم يفند الله عز وجل كلام المشركين ، لقد اقترحوا نزول ملك عليه من السماء ، ملك يرونه بأعينهم، فيقول الله عز وجل لهم : إنه لو أنزل عليهم ملكا من السماء لنزل هذا الملك فى صورة رجل ، وعندئذ يبقى اللبس كما كان . . ماداموا لا يريدون الإقرار ولا الإذعان . . ويسلى الله عز وجل رسوله الكريم ، بصنيع الأمم السابقة مع رسلهم ، وكيف وقفوا موقف التكذيب لأنبيائهم فكانت العاقبة عليهم ، وكان الهلاك لهم ، ويطلب الله عز وجل إلى المشركين أن يسيروا فى الأرض ليروا مصارع الأمم الماضية البائدة التى كذبت رسلها . . إن الملك كله لله ، ومصير الناس جميعا إليه فى الآخرة : المكذبين منهم وغير المكذبين على السواء . ولكن الذين خسروا أنفسهم هم الذين يقفون دائما موقف التكذيب للنبوات والرسالات . .

إن مطلع سورة الأنعام هذا فى سحره وجلاله وعظمته وروعته وبلاغته ، وفى قوة حجته ، وصواب منطقه ، وفى كل ما احتوى عليه من لفظ وأسلوب ومعنى وغرض ، ليعد وحده آية على عظمة القرآن وصدقه ، وأنه كتاب الله الذى نزل به من السماء إلى الأرض جبريل عليه السلام .

٤ — أما الربع الرابع فقد اشتمل كذلك على بيان عظمة الله وجلاله وقدرته وعلى تأييد رسالة محمد عليه السلام ، وعلى إنذار للمشركين والكافرين ، ولماذا لا يؤمن المشركون ، والله عز وجل شهيد لمحمد بالرسالة ، وللقرآن بأنه كلامه نزل به من السماء إلى الأرض جبريل عليه السلام . . وفى هذا الربع حجاج قوى بليغ للمشركين ، وتأييد واضح لرسالة القرآن ، ولعقيدة التوحيد ، وسخرية مما قاله المشركون فى القرآن من أنه أساطير الأولين ، وتكذيب لهم فيما زعموه من أنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قالوا أليس هذا — أى البعث الذى كذبتم به —

بالحق ، قد حدث بالحق ، ومؤيداً به ، قالوا : بلى وربنا ، قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. والتعبير هنا بكلمة « وقفوا » فيها إشعار بخزيهم وهلاكهم ، وفيها بيان للقوة القاهرة التى ساقتهم ، ولمصير السوء الذى ينتظرهم ، ولجلال الله عز وجل المحيط بهم ، إنها هى بجمع البيان ، وهى هى بروعة تصويرها ، وعظمة بيانها ، دليل على إعجاز هذا القرآن الكريم . . وما أروع ما قال الله عز وجل فى هذا الربع لرسوله الكريم « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » إنهم لا يكذبون محمدا ولكنهم يجحدون آيات الله ويكذبون بها ، إن مصيرهم إلى الله ، وعقابهم بيده ، وهو القادر على الانتقام منهم ، وهو الذى سوف يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا تبال بهم ، ولا يهمنك ما صنعوه ، إن عقابهم بيد الله . . ويتبع الله عز وجل ذلك بقوله تسلية للرسول وعزاء . . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ؛ ولقد جاءك من نبأ المرسلين . . وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض ، أو سلما فى السماء ، فتأتيهم بآية ! ! أى فافعل ولكن الرسول بشر لا يستطيع شيئا من ذلك كله ، إنما الذى يستطيع كل شىء ويقدر على كل شىء هو الله عز وجل ، فليترك محمد عليه السلام أمرهم إلى الله ، وكذلك فعل ، وكذلك كان . . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . . فلا تكونن من الجاهلين . وهذا رد شديد على محمد عليه السلام لأنه كان أحرص الناس على أن يؤمنوا ، وعلى أن يسلم قومه ، ولكن قلوبهم بيد الله ، والقادر عليهم هو الله عز وجل . . .

٥ — أما الربع الخامس ، فكذلك اشتمل على حجاج قوى للمشركين ، وعلى تفنيد لهم فيما زعموه وما اقترحوه . وعلى تهديد لهم ، وبيان لعظمة الله عز وجل ووجوده وأنه إله الكون والحياة ، الإله الحق المعبود ، وفيه أمر من الله عز وجل لرسوله العظيم بأن ينذر بالقرآن الذين يخشون الله ويخافونه . أما المشركون الذين لا يستجيبون لشىء فليدعهم وشأنهم حتى يؤمنوا صاغرين.

أو يهلكهم الله بعذاب شديد . إن هذا الربع الكريم أعظم تقرير لعقيدة التوحيد ولنبوة محمد ورسالته .

٦ — أما الربع السادس ، ففيه تصوير جديد لعظمة الله وملكه وقدرته ورد على المشركين وإنذار لهم وتخويف مابعده من تخويف ، ونفى للشرك والمشركين ، وتسفيه للوثنية وحماتها ودعاتها فى الأرض .

٧ — والربع السابع كذلك اشتمل على ذكر إبراهيم عليه السلام وموقفه من قومه حين استدل أمامهم على وجود الله ووحدانيته من آيات الله العظيمة فى هذا الكون العظيم ، وفيه بيان لعقيدة التوحيد التى آمن بها إبراهيم والأنبياء من ذريته ومن ذرية نوح ، وفيه رد شديد على اليهود الذين أنكروا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وتدليل على صحتها وأن القادر على أن ينزل على موسى كتابا من السماء ، هو القادر كذلك على أن ينزل القرآن من السماء على نبيه محمد .. وقد احتوت الآية هذه : « وماقدروا الله حق قدره » على إثبات نبوة محمد وصحة القرآن ، وعلى تسفيه لليهود وتوبيخ لهم بكتمانهم نصوص التوراة التى فيها بشارة بمحمد وبرسالته ، صلى الله عليه وسلم .

٨ — أما الربع الأخير فقد احتوى كذلك على بيان لقدرة الله فى السماء والأرض ، وفى الكون والحياة والوجود .. وعلى تثبيت للرسول ، ورد على المشركين وإنذار شديد لهم .

( ٣ )

وهكذا تجد تدفق البيان ، وقوة الحجة ، وإلزام المنطق ، وعظمة التصوير ، واضحة فى كل آية من آيات سورة الأنعام ، مما لو أفضنا الكلام فيه لما استطعنا أن ننتهى منه .

ويشتمل كل ربع من سورة الأنعام على إثبات لوجود الله وقدرته ووحدانيته ، وعلى نفى الشرك والمشركين ، بأبلغ بيان وأروع تبيان ، ويشتمل كذلك على صور رفيعة من بلاغة القرآن الكريم ، هى دليل على إعجازه ،

وعلى صحة نزوله من السماء ، وصدق الله عز وجل فيما قال : « وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها ، وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، مصدق للذى بين يديه[1] » ، وصدق الله عز وجل فيما قال : وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون[2] .

---

(١) الأنعام : آية ٩١ وبعض ٩٢ .
(٢) آية ٦٧ سورة الزمر .

# خاتمـــة هذا الجزء

( ١ )

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فهذه هي نهاية الجزء السابع من هذا التفسير . الذي أرجو أن ينصر الله عز وجل به المسلمين فى دينهم ودنياهم ، وأن ينقع به غلة الظامئين إلى معرفة أسرار القرآن الكريم ، وأن يهدى به الضالين والحائرين ، وأن يرشد به كل طالب للرشد والصواب ، وأن يرد به عن القرآن والإسلام شبهات الزائغين والمنحرفين والجاحدين .

( ٢ )

وإذا كنا نعيش اليوم فى عصر اضطراب روحى ، وقلق فكرى ، وتعيش بيننا أفكار الماديين والوجوديين المنحرفة الزائفة ، فإن من الواجب علينا أن نسترشد فى هذه الظلمات القاتلة بالقرآن الكريم وهديه وروحه ومبادئه ومثله .

إنه يجب علينا أن نؤمن إيمانا عميقا بكل ما جاء به محمد والقرآن الكريم ، لأنه سر سعادتنا ، وسر اهتدائنا ، وسبب فوزنا ونجاتنا فى الدنيا والآخرة ، يجب أن نؤمن بهذه الأصول الجليلة إيمانا عميقا ، لأنها هى التى قامت عليها حياتنا فى الماضى والحاضر ، وهى التى سوف تقوم عليها حياتنا فى المستقبل بإذن الله .

إن الشرق الإسلامى طول عصور تاريخه المديدة إنما قامت حياته وحضارته ومجده وعزته على الإسلام وبالقرآن ، ويجب أن تظل حياته كذلك قائمة بهذا الوحى الإلهى العظيم ، وبذلك الهدى السماوى الكريم .. يجب أن تبقى هذه المنطقة من العالم مركزا للتوجيه الروحى ، المستمد من تعاليم القرآن ، وهديه ، ورسالته .

والعجب العجيب ، والأمر الغريب ، للأفاقين الكذابين المنحرفين ، من الشيوعيين الذين يعيشون بيننا ، ويؤمنون بغير ديننا ، ويعتقدون خلاف عقيدتنا ، ويسعون للفساد فى الأرض . ويزعمون كاذبين أن الإسلام جاء لغير عصرنا ، وأن القرآن نزل لغير أيامنا ، وأن الشيوعية هى الدواء ، وأن غيرها من الأديان والمبادىء هو الداء . وكذبوا وأيم الله ، وافتروا على الحق ، ونطقوا بالباطل ، وقالوا غير الصواب ، وانحرفوا عن الحقيقة ، وذهبوا فى أودية من التيه والحيرة والضلال ، وضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

وما هى الشيوعية ؟ أليست هى إنكارا للأديان ، وأليست هى كفرا برسالات السماء ، وأليست هى كما يقولون وكما يزعمون تدعى أن الدين مخدر للشعوب ، وأن أمور الغيب التى جاءت بها الأديان كلها خرافات وأساطير وأوهام ؟ .

أليست هـذه هى مقومات الشيوعية وأصولها الأولى ، أليست هى التى تفسر التاريخ تفسيرا ماديا محضا ، وتقيم من مادية التاريخ ، ومن فلسفتها المادية أصلا جديدا تريد أن تقاوم به أصول رسالات السماء .

وكذبت الشيوعية والشيوعيون ، وافتروا على الله غير الحق ، وقالوا الضلال والبهتان والإثم العظيم . . والقرآن الكريم ، وقد حارب الوثنية والوثنيين ، والشرك والمشركين ، والكفر والكافرين ، يقف أمام الشيوعية اليوم سدا منيعا ، وحصنا حصينا ، يحول بينها وبين إفساد العقول ، وتضليل الشباب ، ونشر الشر والزيغ والإلحاد فى الأرض .

إن الشيوعية شرك بالله وكفر بالدين ، وانحراف عن الفطرة الإنسانية . . وكما قاوم القرآن وثنية العرب فى عصر نزول الرسالة ، فهو اليوم يقف مناوئا لوثنية الشيوعية فى القرن العشرين . .

وقد رأينا كيف قاومت سورة الأنعام الشرك والمشركين ، وكيف حاربت مبادىء الوثنيين ، وكيف أقامت الدليل تلو الدليل ، ساطعا قويا وهاجا واضحا

منيرا على وجود الله ، وعلى عقيدة التوحيد ، وعلى صحة رسالة محمد بن عبد الله . .وهذه السورة الجليلة هي كذلك أعظم رد يقال اليوم على الشيوعية ومعتنقيها ، من المؤمنين بالمادية ، والجاحدين لوجود الله ، والمنكرين للرسالات والرسل والأديان .

إن عقيدة التوحيد أقوى من أن تزلزلها المبادىء الهدامة ، أو تزعزعها آراء ماركس ولينين وستالين .. إنها تقوم على أصول قوية رفيعة جليلة ، وعلى حفظ القرآن الكريم لها ، وسيبقى هذا النور مشرقا مضيئاً فى الأرض ، سيبقى القرآن ، ونور القرآن ، وعظمة القرآن ليهتدى به الناس ،كلما أظلمت الخطوب ، وتفاقمت الشدائد ، وادلهمت الأحداث ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

إن بعض زعماء العالم العربى وشبابه المخدوعين فى الشيوعية ، والذين يظنونها علاجاً لمشكلات الشرق الإسلامى ، لجد مخطئين ، وسوف يندمون على ما اقترفوا فى حق أنفسهم وبلادهم من سيئات .

إن علاج مشكلات بلادنا لن يكون إلا بمحاربة الفقر ، وبنشر الرخاء الاقتصادى ، وبمتابعة حركة التصنيع ؛ وهى كلها أشياء يدعو إليها الدين الكريم ، وينادى بها كل مسلم عاقل مؤمن ببلاده .. أما أن نعالج مشكلات بلادنا باعتناق المبادىء الهدامة ، وبترك ديننا ونبذه ، وبالافتراء على الله ، وبإنكار الرسالات والأديان ، فهذا هو الضلال البعيد .. وإذا كنا نثق فى مقدرة الدولة التى طبقت الشيوعية فى بلادها ودعت إليها ، صناعيا وعلميا وعسكريا وحضاريا ، ونؤمن بأنها تسهم فى خدمة السلام العالمى ، فإن هذا كله لا يقتضينا أن نترك ديننا لأجلها ، ولا أن نتنازل عن مقوماتنا مجاملة لها ، ولو فرض وأننا اعتنقنا دينها ، فإن هذا لن يغنى عنا من الله شيئا ، بل لن ينفعنا عندها فى قليل ولا فى كثير .. إن الآلات التى نحتاجها لتصنيع بلادنا لا يصح أن تكون سببا لأن نبيع بها ديننا وبلادنا وعروبتنا وقوميتنا ، وإن واجبنا

ـ كمسلمين ـ أن نلتزم جانب السلام ، وأن نصافح كل الناس ، وأن نؤمن بديننا ، ونترك غيرنا يؤمن بما يشاء من أديان وعقائد ومذاهب . . والويل لنا إن كنا نريد أن نشترى دينا جديداً نستورده من روسيا أو من انجلترا أو من أمريكا ، الويل لنا إذا كنا لا نؤمن إيمانا عميقا بأنفسنا وبقرآننا وبديننا الإسلامى الحنيف .

إن الشيوعيين الحمر المنبثين فى أرجاء العالم العربى والإسلامى ما هم إلا أفاقون كذابون على الله وعلى الحق وعلى الدين ، ولن يستطيع واحد منهم أن يقنعنا إقناعا كاملا بدينه ، ولا أن يشرح لنا الأسباب التى تدعونا إلى أن نترك ديننا ، لنؤمن بدين غريب عنا اسمه الشيوعية أو اسمه الديمقراطية مثلا .

لماذا ـ وأنا مسلم ـ أترك إسلامى . هل وقف دينى مرة ضد حريتى أو ضد كرامتى ، أو ضد مصالح بلادى .. كلا .. كلا والله ، إنما هو الذى أعز الله به المسلمين فى الأرض ، ودافع به عن حرياتهم وعن بلادهم ، وهو الذى أقام لهم حضارة زاهية ، ومدنية مشرقة ، وجعل لهم علما مرفوعا ، وملكا مشيدا فى الأرض . الإسلام هو الذى أقال العرب من عثرتهم ، وجمع على الحق والخير كلمتهم ، ووحد بينهم ، وجعلهم أكثر حرصا على حرياتهم وعلى عزتهم وكرامتهم . الإسلام هو الذى جعل للعرب دولة ونفوذا وسلطانا وملكا كبيرا .. الإسلام هو الذى رفع رأس المسلمين ، وهو الذى جعل الثروات الاقتصادية الضخمة فى العالم ملكا لهم ،وهو الذى نشر الرخاء فى وسطهم الإسلام هو مصدر النور والخير والعلم والمعرفة والثقافة فى بلاد المسلمين ...

فلماذا إذا أترك دينى وأعتنق دينا آخر ؟ لماذا يريد الشيوعيون أن أؤمن بالشيوعية ، وأن أترك من أجلها دينى وإسلامى وقرآنى وعقيدتى ومبادئى ومثلى ؟

أنا مسلم ، أعتز بأنى مسلم ، وسأظل مسلما بإذن الله ، وسوف يعيش أبنائى وأحفادى فى الأرض وهم مسلمون .. الإسلام شرفى ومجدى ، وعدتى وعتادى ، وهو الخير لى فى دنياى وآخرتى ، وهو عزتى وكرامتى ، وهو حريتى وقوتى ، وهو مصدر كل خير ينالنى وينال وطنى وأمتى . فلماذا أبدل

دينا بدين ؟ ولماذا أختار الشيوعية على الإسلام . . كذب الشيوعيون وضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

جلست بالأمس إلى شيوعى عربى ، وقلت له : لماذا يا أخى !! لماذا تريد أن تسود الشيوعية هذا الشرق الإسلامى ؟ لماذا تقطعون القومية العربية بيننا وبينكم ، لماذا تريدون أن تستبدلوا بهذه القومية العربية قومية أخرى تستعزون بها ، هل الأفضل لكم أن تشعروا بأن القاهرة ودمشق ومكة والرباط والخرطوم وطرابلس وطهران وصنعاء معكم ، أو أن تشعروا بأن موسكو ووارسو وليننجراد أو لندن وباريس وواشنطون معكم ، هل الأفضل لكم أن تعملوا على نشر الرخاء الاقتصادى فى بلادكم وفى البلاد العربية جمعاء ، أو أن تضعوا ثرواتكم فى أيد أجنبية بعيدة عنكم ، عن طريق حظر التعامل إلا مع هؤلاء الأجانب ، ووقف التعامل الاقتصادى فى بلادكم عليهم ؟

وقلت له . . إنه لا عزة لكم ولا كرامة لكم فى الأرض إلا بتعاونكم مع إخوانكم العرب ، وبأن تصبحوا وأنتم لا تزيدون على الستة ملايين ، باجتماعكم مع إخوانكم فى العروبة والدين . وعددكم يزيد على الخمسين مليونا .

أيها العرب ، أيها المسلمون ، إن القرآن الذى حارب وثنية مكة وقريش فى العصر الجاهلى لتقف مبادئه سداً منيعا ضد الشيوعية اليوم ، وإنه لأفضل لكم أن تؤمنوا بالإسلام وبالقرآن من أعماق قلوبكم من أن تؤمنوا بمبادىء ماركس ولينين .

إن الإسلام ظل وسوف يظل هو دين الشرق بإذن الله ، وإنه هو حامى الشرق الإسلامى وراعيه ، وهو مصدر حضارته وعزته إلى الأبد إن شاء الله ؛ والقرآن وهو يحارب الوثنية والشرك ، لا بد أن يحارب أيضا المبادىء الهدامة المنحرفة الضالة الزائغة ... آمنت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبالقرآن دستورا ، وبمحمد رسولا ونبيا إلى الخلق كافة ، والسلام على من اتبع الهدى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؟

# فهرست الجزء السابع

## من القرآن الكريم

## للمؤلف

قصـة الأدب فى مصر - ٥ أجزاء
« « الأندلس - ٥ «
« « المعاصر - ٤ «
الأزهـر فى ألف عام - ٣ «
صور من الأدب الحديث - ٤ «
رائد الشـعر الحديث - جزءان
ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة
الحياة الأدبيـة فى العصر الجاهلى - طبعة ثانية ٥١٠ «
دراسات فى الأدب والنقد
مع الشـعراء المعاصرين
الذكر الحكيم
الشعر والتجديد
مواكب الحرية فى مصر الإسلامية
فى ظلال الإسلام - بالاشتراك